

سليمان سامي الجوخدار

هكذا علمنا

كريم زين

سُليمان سامي الجوخدار

هكذا علَّمنا

دار الفكر المعاصر
دار الفكر
دار الفكر



أمةٌ وسطٌ لعصرٍ جديدٍ

1442هـ دار الفكر 2021م

سُليمان سامي الجوخدار

هكذا علّمنا

تأليف : كريم زين

الرقم الاصطلاحي: 12552.032

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-36-394-9

الرقم الموضوعي :814 (المقالة والخاطرة)

220 ص، 28x20 سم

الطبعة الأولى: 1442هـ =2021 م



دار الفكر

للطباعة والتوزيع والنشر

دار الفكر المعاصر - بيروت +961 1860 739

دار الفكر - دمشق +963 11 3001

دار الفكر المعاصر - دبي +971 444 70880

info@darfikr.net     www.darfikr.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ ﴾

[فصلت]

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّموَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ». [سنن الترمذي: 2609].

سليمان سامي الجوخدار

هكذا علّمنا

مواضيع أساسية لمن أراد أن ينعم بحياة ملؤها السعادة والتوازن بين عالم الحياة الدنيا وعالم الآخرة الذي إليه نهاية كل شيء

سليمان سامي الجوخدار : نبذة عن حياته تجدها في صفحات آخر الكتاب.

اللهُ سبحانه هو كل شيءٍ وهو غاية الآمال وعنده منتهى الغايات...

هكذا عَلَّمنا سليمان

وعلمنا أن:

نحمد الله تعالى في كل لحظات حياتنا

على نعمة الإيمان واليقين بأن هناك:

﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 163].

وعلمنا أن:

نَجِدَّ ونجتهدَ حتى نصل إلى من وصفه نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ» [صحيح البخاري: 6026]

وعلمنا أن:

يكون كلٌّ مِنَّا ليسَ مجرد مؤمن نفسه كامدة؛ بل مؤمناً متأجّجاً ومتوهّجاً بإيمانه بالله جل جلاله.

وعلمنا أن:

نسعى للتخلص من كلِّ الأفكار أو التَّصوُّرات التي قد يجدها أحدنا في أعماقه، والتي لا تليق به سبحانه وتعالى.

وعلمنا ....

وعلمنا ....

أول منطلق ينبغي أن يكون حاضراً في ذهنك دائماً كبديهة يقينيّة، وراسخاً رسوخ الجبال كحقيقة أساسية، هو أن: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: 22/ 6] وما سوى حقيقة الله باطل: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: 17/ 81].

الحق جَلَّجَلَالُهُ هو أصل الحقيقة وكل الحقائق، ونقطة انطلاق أي فكرة من عنده سبحانه.

إياك أن تُستدرج لتصل إلى أيِّ جدل كان مع من يطالب بإثبات وجود الله، أو أن تُضَيِّعَ وقتك لتجيب على سؤال عنوانه صحة وجود الله أو عدم صحة هذا الوجود، وكيف السبيل إلى إثبات ذلك؟ أو تبحث عن أدلة وحجج ونقاشات ومجادلات حول وجود الله أو عدم وجوده، لأن ذلك كله هو الباطل بعينه ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: 22/ 62].

الذي لا يرى بجلاء هذه الحقيقة أو ينكرها، فسوف يأتي اليوم الذي يموت فيه ثم يبعث ليقف بين يدي الحق جَلَّجَلَالُهُ وعندها يعلم يقيناً ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحج: 22/ 6]، وسيرى بوضوح أن الحق جَلَّجَلَالُهُ كان شهيداً عليه عندما أنكر هذه الحقيقة.

ليكن النبي ﷺ قدوتك في توجهك إلى الحق جَلَّجَلَالُهُ فقد كان يقول في تهجده: اللهم: «... لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، ..» [صحيح البخاري: 1053].



توجه إلى الله في كل أمر من أمورك، فهو سبحانه من بداية الخلق حاضر بالزمان والمكان ومعك حيثما كنت ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 57/ 4] هذا التوجه يفتح لك آفاق أوسع عن معرفة الله جَلَّوَعَلَا، ويخرجك من محدودية أسئلة مثل: «كيف نشأ الله؟» ، و مثل: «ماذا كان قبل الله؟» لأن هذه الأسئلة وأمثالها تتلاشى أمام قوله تعالى:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 57/ 3].

الله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ فهو الذي خلق وأوجد كل شيء، لذا هو سابق لكل ما خلق وأوجد، أي لم يسبقه أحد بخلقه أو إيجاده، و لم يسبقه شيء انطلق منه أو تكوّن منه، و كلّ ما هو موجود لاحقٌ له و موجود بإرادته، تنزه سبحانه عن التبعية لأي شيء.

وهو جَلَّجَلَالُهُ ﴿الْآخِرُ﴾: أي لا وجود لشيء بعده، أو إمكانية أن يستبدل بنفسه غيره خَلفاً له، وما إلى ذلك من أسئلة محدودة ضمن العقل البشري.

الله هو الأول جَلَّجَلَالُهُ لم يسبقه شيء أو أحد ولن يأتي بعده شيء أو أحد، وهو سبحانه منزّه عن الزمن فلا يمكن للزمن أن يكون قبله ولا شيء قبله لأنه الأول جَلَّجَلَالُهُ، ولا يمكن أن يكون الزمن بعده فهو الآخر جَلَّجَلَالُهُ ولا شيء بعده.

وهو الظاهر والباطن جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 57/ 3] أي: لا شيء أبعد أو أعلى أو خلف الله ولا شيء ولا أحد أبعد في أي اتجاه آخر، وله الإحاطة التامة والقصوى للجهات، أي أنه سبحانه مهيمن مسيطر له الغلبة على كلِّ أحد و كلِّ شيء؛ فهو العليم الذي لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن محيط بالمكان الذي أنت فيه والذي من بداية الأمر أوجده: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 57/ 3].

أنت الآن وفي أي لحظة من حياتك على الأرض، موجود في زمان ومكان حدده الله سبحانه، وهو معك حيثما كنت ومطلع على ظاهرك وباطنك، لذا إياك أن تفعل أي نوع من أنواع الفواحش أو الإثم والبغي لأنه سبحانه حرمها عليك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 7/ 33].

توجه إلى الله سبحانه بدعائك كما علمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» [صحيح البخاري: 4888].

لتكن دائماً في أعماقك بمستوى عالٍ سراً وعلانية مع الكبير والصغير، أو مع أي شخص كان، واعمُرْ عقلك بأمور هامة، ولتكن أوضاعك النفسية ثابتة لا صعود ولا هبوط فيها أبداً، واجعلْ كلامك على الإطلاق دقيقاً وبشكل عفوي دون تَصَنّعٍ وابتذال، وإياك والكذب لأنه يفقدك الإحساس بما تقول، ويصيبك بمرض التسويف، الذي يتأتى عنه تأجيل عمل يوم إلى الغد، ويقطع عنك عمل الخير وثقة الناس بك.

كن منفتحاً على العالم الذي تعيشه ولا تنطوي على نفسك إطلاقاً، ولتكن أفكارك بناءةً بحيث تخلق مجالات من الطاقة الإيجابية، وهذه المجالات تؤثر على الآخرين من حولك وتشكل مع الزمن تيارات قوية ومفيدة لهم.

اعمل للآخرين بكل ما تستطيع من أعمال خير؛ وعَجِّلْ بها فأن لم تجد وقتاً لها فأكْثِرْ من الدعاء والاستغفار لهم.

وإن حدث معك أمر ظاهره أذى، فلا تعتبره حالك الدائم بل اصبرْ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: 42/ 43] وخاطب نفسك قائلاً: أن الله سبحانه أعلم وأدرى مني بهذا الأمر، فإن صبرت وأدركت بأن ما حدث معك هو بإرادة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ؛ صار عندك ثقة بالله تعالى تجعلك تُحسن التصرف حتى في أصعب الظروف، وإيماناً بأنه لا بد من خير وراء ذلك؛ كما قال نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «عَجباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ» [صحيح مسلم: 5318].

ولكي تُحَصِّلَ هذه الصفات، التي جعلها الخالق جَلَّوَعَلَا في أولي العزم من أنبيائه، ابتعد عن كل أمر يسخط الله ليكون عوناً لك وتوجَّه إليه بها، لأنها مدد منه سبحانه.

عَظِّمِ الله جَلَّجَلَالُهُ في قلبك وعظم أسماءه وصفاته واستشعر العبودية له، وكن دائمَ الذكر لمن بيده أمور الخلق كلهم ويعلم سرك وجهرك فهو: ﴿ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: 6/ 3].



كن على يقين أن الله هو المهيمن جَلَّجَلَالُهُ، ويقينك بذلك يجعلك تخاف الله وحده، ولا تخاف أحداً سواه في أي تصرف أو عمل تعمله مع الآخرين، لأنه لا حول لأحد بوجود المهيمن جَلَّجَلَالُهُ، وهذا اليقين يخرجك أيضاً من كلّ إشكالات الخوف من الناس أو الطواغيت أو الجبابرة أو أي قوة خفية، إذ كيف لأحد من كل هؤلاء أن يتطاول على المهيمن جَلَّجَلَالُهُ، أو يظن أنه قادر على الالتفاف أو فرض إرادته على الإرادة الإلهية كما هو اعتقاد بعض الأديان الأخرى، لأن هيمنة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ فيها معنى الارتفاع والعلو، قدرة على ما دونه، وسيطرة تامة على كل شيءٍ، وقدرة الله مصحوبة بالعلم والحكمة.

علوٌّ من غير أن يُعلى عليه، ومن علوه جَلَّجَلَالُهُ إشرافه؛ وبالتالي سلطته التامة وسيطرته ومعرفته بكل ما يجري، وهو على عِلْم بالصغيرة والكبيرة ولا تخرج صغيرة ولا كبيرة إلا بعلمه وإرادته وسيطرته سبحانه، علمه محيط بكل شيءٍ وهو مشرفٌ على كل شيء.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ [الحشر: 59/ 23].

ومن علوه وجلاله سبحانه أنه محيط ومشرف بعلم على كل ما أوجد وخلق، له الأمر كله، لا تناقض ولا تضارب في سريان إرادته سبحانه، بل انسجام مطلق في كل لحظة ومكان، وفي علاقة الأسباب بالغايات، تنزّه عن خلقه بتفرده بصفات الألوهية المطلقة فهو جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: 6/ 59].

احمدِ الله دائماً أن كل شيء تحت أنظار وسيطرة وإرادة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ الذي له القوة والقدرة التامة على ما دونه، واعلم أنه لولا هذه الهيمنة المطلقة على الوجود بأسره لحصل انعدام تام للنظام، ولم يبقى شيء في هذا الكون.



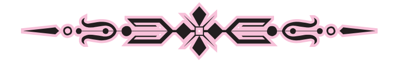
لا وقت لديك للبحث عن عدد الذين نشؤوا وعاشوا بعيداً عن الدين، ولا عن الذين لم يفكروا أبداً بشيء اسمه الدين؟ لأن الدين ملازم لمسيرة البشرية منذ القدم، ومهما توغلت في الماضي وبحثت في هذا الشيء تجد أن الدين ملازم للإنسان كما أن نفسه ملازمة له، ولا يوجد بعثة أثرية وجدت قوماً عزّلاً لا دين لهم.

الدِّين هو مسألة كونية شاءها مُوجد الأكوان جَلَّوَعَلَا، وهو قرار إلهي لا رجعة فيه ومهما فعل البعض لإبعاده، فإنه يعود دائماً بشكل أو بآخر، ولا يوجد تفسير لذلك سوى أن الدِّين جعله سبحانه استعداداً فطرياً لدى الإنسان؛ انظر في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: 30/ 30].

الخَلْقُ كلهم موصولون بالله جَلَّجَلَالُهُ صلة روحية مستمرة منذ الإيجاد إلى الإفناء؛ وهذه الصلة جعلها سبحانه من خلال الدِّين الحقيقي الذي هو منهج الأنبياء جميعهم، وقد أخبرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كيف أوصى بالدين أنبيائه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[الشورى: 42/ 13] وكان آخر الأنبياء على هذه الأرض هو نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الذي شهد له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالدين الحق: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: 48/ 28].

احمدِ الله على ما تفضل به سبحانه من الدين الحق وجعله في كتاب كريم تقرؤه متى شئت ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[الزمر: 39/ 2]

فكن مخلصاً في دينك لمن أنزل لك هذا الكتاب وقال فيه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[الزمر: 39/ 3].



كم هي نعمة أنعم الله بها عليك بتوجهك إلى الله الواحد جَلَّجَلَالُهُ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 2/ 163] فلا تَضِيعُ ولا تحارُ في تَوَجُّهِكَ وتَوسُّلكَ إلى آلهة مزعومة متعددة، لكلٍّ منها اختصاص ولكلٍّ منها أذواق وميول ورغبات وطلبات، كما هو حال الديانات أخرى.

وكم هي نعمة أكثر، أنك لا تضيع في شتات الجهات والتوجهات، بل تنشأ على التوجه لإله واحد تجتمع فيه جميع صفات الألوهية، وهذه الصفات يخالفه فيها جميع خلقه، ومن أهمها وحدانيته، فهو واحد جَلَّجَلَالُهُ أي غير مركَّب، وغير مكوَّن، وغير مؤلَّف، غير مكون من ثلاثة بل هو واحد مهيمن على وحدانيته، لا يؤثر فيه شيءٌ ولا أحدٌ، ولا يتبدَّل، وبضرورة مخالفة صفة الألوهية ما سواه: مكوّن، مركّب، متغيّر، متبدّل... ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [النساء: 4/ 171].

إيمانك بأن الله هو الواحد جَلَّجَلَالُهُ يجعلك ترى الانسجام المطلق في تجليات إرادته في الخلق والقوانين والنواميس الإلهية.

وحدانيته سبحانه تتجلى في آياته وكلماته ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 67/ 2] وبهذه الآيات ينجلي لك مظهر كلّ ما أوجده الله فتجده خاضعاً لقوانين ونواميس منسجمة مكونة مع بعضها قانوناً واحداً.

كن دائم الأدب مع الله الواحد لأنه من صفاته المتلازمة مع وحدانيته هي صفة القهار سبحانه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: 38/ 65] وتذكر أن القهار هو وحده الله، وأنك كعبد موقوف بين يديه وبارز أمامه يوم الحساب ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 40/ 16] وإن كنت على يقين باللقاء الذي لا فرار منه فإياك أن تقهر أحداً من خلق الله، واعلم أن الواحد جَلَّجَلَالُهُ هو وحده القهار.



لا تجد في التعاليم الإلهية الأصيلة التي جاءت مع نبينا تركيزاً أو اهتماماً ولا حتى التفاتاً إلى المعجزات الكثيرة حتى التي جرت على يديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يقُم ديننا عليها أبداً، بل أيد الله جَلَّ جَلَالُهُ نبينا بالبينات التي تثبتُ للناس كافة أن رسالته حق، وأنها وحيٌ من رب العالمين، وهذه البينات اجتمعت في القرآن الكريم، وقد بيَّن فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن المعجزة ليست في خرق العادة؛ بل بما أوجد وخلق من العدم كل شيء، وجعله يسير بنظام محكم لا يخرج عما أراده له سبحانه، وهذا بحد ذاته هو المعجزة الإلهية الكبرى وهي متواصلة ومحيطة بنا ولكن حجبتها غفلة العادة، فالعادة غشاوة تحجب البصيرة وتلبِّد النباهة، انظر في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: 21/ 33] أليست الدقة المتناهية في دخول الليل والنهار وشروق الشمس وظهور القمر من أكبر المعجزات التي نبَّه إليها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: 36/ 40].

العجائب والخوارق لا سبيل لها إلى القلب والعقل القائم على الدين الأصيل، لأن أعظم العجائب والخوارق في تاريخ البشرية تكون على يديّ المسيح الدجال في آخر الزمان، والقرآن برمته دعوة متواصلة لتحكيم عقل نقي وجليّ وناضج في كل الأمور، وهو موجه لبشرية بلغت سن النضج والعقل، وآن لها أن تُحَكِّم العقل ليكون قائماً على الحقيقة، وذلك كخطوة تهيئ النفس لاكتشاف آفاق لانهائية، وللتسامي في معرفة خالق الكون جَلَّ جَلَالُهُ.

ليكن عقلك وفكرك دليلك لمعرفة الله، لأنك إن بحثت في كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تجد الدعوة الدائمة للنظر في البينات الإلهية والتفكر بها، ومثالها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: 13/ 3].

هناك دائماً طرق مختصرة توصلك إلى الحقيقة بجلاء ووضوح، إحدى هذه الطرق تجدها في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

فقد أشار النبي ﷺ معلّماً إياك فضل سورة الإخلاص، وفتح لك باباً من أبواب الخير قائلاً: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» [صحيح البخاري: 6152].

هذا الباب لا يمكن لك أن تدخله إلا إن تفكرت بنور من الله، كيف بدأت سورة الإخلاص بأمر رباني هو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وختمت: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وهذا إخبار لك أن الله تعالى هو الأحد جَلَّجَلَالُهُ؛ أي: لا ثاني له ولا ثالث ولا أكثر، ولا مكافئَ ولا مماثلَ ولا نظيرَ، ولا شبيهَ ولا مقابلَ له؛ لأنه إن كان أي شيء قبله فلن يكون سبحانه أحدٌ، وإن كان أي شيء بعده فلن يكون سبحانه أحدٌ؛ لذا لا مقابل له وهو سبحانه أحدٌ ولا أحدَ سواه، هو الأحد جَلَّجَلَالُهُ حقاً قائم بذاته مستغنٍ عن كل ما خلق، متفرد بوحدانيته جَلَّوَعَلَا، يستحيل تصوره وإدراكه سبحانه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: 42/ 11] ولا يشبهه شيءٌ ولا يماثله شيء، ولا شيء قبله ولا بعده.

كن على يقين أن الله سبحانه هو الأحد وبذات الوقت هو الواحد جَلَّجَلَالُهُ؛ أي: لا أجزاء ولا مكونات ولا طبقات ولا عوالم فيه، لا يتألف من ثلاث، ولا من شيء، بل هو واحد مطلق ولا واحد غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما سواه متعدد متباين، وبناءً على تلك الحقيقة، يمكنك فهم التعدد والتنوع في الخلق؛ ومثاله أنت كإنسان هناك أناس من أمثالك الكثير، وكلهم خلقهم الواحد جَلَّجَلَالُهُ وسوّاهم وركبهم وخاطبهم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار: 82/ 6-8] ، فسبحان الواحد الأحد جَلَّجَلَالُهُ وتقدست أسماؤه.



هناك إله خالق واحد، أنزل ديناً واحداً بحقيقته وأسسه وشعائره، أسماه الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: 3/ 19] ولا سموَّ؛ روحياً حقيقياً إلا به، ولا يمكن لعقلك البشري المأسور في حدود الزمان والمكان بدون ذلك الدين الحنيف؛ الارتقاء في التعرف على خالقه جَلَّجَلَالُهُ، لأنك ستجد فيه معلومات وخصائص تفتح أمامك آفاقاً شاسعةً لا نهائية.

الإسلام هو الدين الحق الذي شاءه سبحانه منذ القِدم لأنبيائه ورسله؛ فقد قال سيدنا نوح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مخاطباً قومه: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: 10/ 72]. وقال سبحانه عن سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 3/ 67].

دين الإسلام هو الطريق لمعرفة الذي لا تدركه الأبصار ولا الحواس، ولا تحيط به العقول، لمعرفة الله ومعرفة الطرق الصحيحة التي يتواصل الإنسان بها مع خالقه جَلَّجَلَالُهُ.

وكم هي رحمة منه سبحانه أن عرَّفَنَا على نفسه بهذا الدين الحنيف من خلال كتاب أنزله على نبينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وبه تجد كل ما تحتاجه لمعرفة الذي خلقك، ولمعرفة كل أسباب وجودك على هذه الأرض.

وبهذا الكتاب أعلمنا أن الله هو الاسم الذي نتوجه به إليه جَلَّجَلَالُهُ، وإن قلت: يا الله فأنت تنادي الذي خلق السماوات والأرض وخلقك وأوجد كل شيء دون الحاجة لمن يوصل نداءك إليه، لأنه سبحانه قال في ذلك الكتاب الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [غافر: 40/ 20] كتاب تجد فيه حقيقة أبدية وواحدة؛ هي أن الدِّين هو دين الخالق الذي خلق السماوات والأرض وخلق كل شيء، وجعله للبشرية منذ إيجادها.



إياك أن تقيِّم أي عمل تعمله ثم تضع به مكانة روحية لك، أو درجة معينة في الآخرة، أو أن يصل بك الأمر لتظن نفسك من الأولياء والصالحين.

الله هو الخافض والرافع جَلَّجَلَالُهُ، وهو وحده الذي يقرر الدرجات والمقامات ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو العليم البصير بكل عمل تعمله ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: 3/ 163] وهو وحده الذي يخفض ويرفع في درجات عباده أو أيّ شيء؛ إذ إنه العليم الحكيم العدل المقسط جَلَّجَلَالُهُ هو أدرى بتقييم خلقه، وهو كذلك عزيز قيوم حكم أمره سابق وكلّ ما سواه لاحق، فلا يستطيع أحد أن يفرض عليه بعمله مقامه أو درجاته؛ لذا قال سبحانه عن قيام الساعة أنها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[الواقعة: 56/ 3] لأنه هناك الخافض والرافع جَلَّجَلَالُهُ يخفض ويرفع في درجات من يشاء من عباده ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: 46/ 19].

ما أجمل أن تسعى جاهداً إلى إرضاء ربّك سبحانه لتنال عطاءه في الآخرة، وهذا السعي بحاجة منك إلى سلوك روحي حقيقي، وذلك بتعظيم الله تعالى وبالعبودية المطلقة وانعدام الأنا عندك، وإلى التبرؤ التام من حولك وقوتك كي لا تقع في الإشكال الكبير الذي وقع فيه إبليس، فقد كان تواقاً لتحصيل مراتب روحية عالية والارتقاء إلى مقام الملائكة بجهده وعمله، لذا نبهه سبحانه قائلاً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: 38/ 75] وكان جوابه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص: 38/ 76] وهذا دليل أهمية الأنا عند إبليس ورغبته في تحقيق الدرجات العالية.

كن على سنة نبينا الذي بشره سبحانه بمغفرة ذنوبه﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 48/ 2] إلا أنه قال: «وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي» [صحيح البخاري: 1241] وقوله هذا من الأدلة الدالة على صدقه وعدم تقوُّله على الله بلا علم، وتعليم لنا جميعاً أن لا نضع مكانة أو درجة روحية لنا في الدنيا أو الآخرة.



الأنفس كلها متصلة مع بعضها بشكل أو بآخر؛ لأنها خلقت من نفس واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: 4/ 1].

فإن أنت أحسنت إلى نفس من خلق الله فكأنما تحسن إلى جانب من نفسك، وإن آذيتها فكأنك تؤذي جزءاً من نفسك ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 5/ 32].

فحياة الأنفس في صلاحها، لذا إن أصلحت أي نفس وهديتها إلى جادة الصواب فكأنك تصلح جزءاً منك، وإن فعلت ذلك عندها يتضح لك أهمية ومسؤولية هداية ودعوة الآخرين، وكيف جعلها سبحانه عمل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من سيدنا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى سيدنا النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عمل الأنبياء في إيصال الخير والهداية إلى البشرية يجعل منهم قدوة لك لأن تكون على اتصال بهذه الأنفس الراقية، ولعل أرقى نموذج لنفس بشرية هو نفس سيدنا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ونفسه الشريفة هي منا نحن البشر، فكم هو شيء رائع إن تواصلت نفسك معه، وكم هو شيء رائع أن تجتمع نفوس الناس حول نفسه الشريفة لتخلق تيارات قوية من الخير والبركة؛ لتستمد هذا الخير وتلك البركة من الذي قال عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 9/ 128].

الأنفس متصلة بشكل ما مع بعضها، والصلاة على النبي هي التي تجمع تلك الأنفس وتوجهها نحو الله وملائكته؛ كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: 33/ 56] وهنا تبرز محورية الصلاة على النبي، ويتجلى لك واضحاً أمر الله وحكمته سبحانه بها.



انظر إلى خلق الله سبحانه، وأنت منهم، كيف من عظمته خلق الناس وجعلهم ذكوراً وإناثاً وشعوباً وقبائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾[الحجرات: 49/ 13] وقسم الحياة بين خلقه ليتمكن الناس من العيش فيما بينهم﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الزخرف: 43/ 32] وميز بين خلقه فرفع بعضهم فوق بعض بدرجات ومراتب﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾[الزخرف: 43/ 32] وسخر كلّاً منهم بعمل يعمله للآخرين ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: 43/ 32] وذلك كله ليُمْكِنَ للحياة أن تبقى وتستمر.

الله جَلَّوَعَلَا خلقه متنوع، وهذا التنوع في الخلق يصدر عنه بالضرورة المراتب والدرجات، وهو المعز وهو المذل جَلَّجَلَالُهُ الذي وحده يقرر المراتب والدرجات بين خلقه، لأنه مالك الملك والأمر له تعالى﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: 3/ 26].

بمشيئته سبحانه يعز ويذل من يشاء من خلقه في هذه الحياة الدنيا، ويوم القيامة يرفع ويخفض في درجات عباده، وشاءت إرادته سبحانه أن يجعل نتيجة الرفع العزّ ونتيجة الخفض الذلّ لمن شاء من عباده.

إيمانك بأن الله وحده المعز جَلَّجَلَالُهُ يجعلك في راحة وسلامة نفس، من أي غيرة أو حسد أو اعتراض لمن شاء له سبحانه العز، ويقينك أنه هو المذل جَلَّجَلَالُهُ يعطيك ثقة بحكم الله وتواضعاً وخشية من أن يذلّك الله إن أذللت أحداً من خلقه أو أذللت نفسك لغيره، ويجعلك تسعى لأن تكون من الذي قال عنهم سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[يونس: 10/ 26].



الحياة الدنيا هي امتحان لك تنتقل فيه من سؤال إلى سؤال ومن موقف إلى آخر، وهي المغامرة الكبرى للنفس البشرية. هذه النفس لا بد لها من مرجع وشيء تتوجه إليه حتى لا تتبعثر وتبقى متماسكة، ولا يتم ذلك إلا بالتوجه له سبحانه فهو الذي خلقها وهو أدرى بها.

لتكون من الفائزين الموفقين في كل أحوالك ومَواقِفِكَ في حياتك الدنيا، كن من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: 14/ 12]؛ إذ لا بد لك من العزم لفعل أي أمر من الأمور، ولكن لوحده لا يكفي ويحتاج معه إلى توكل حقيقي على الله سبحانه ليتم هذا الأمر، وهذا ما أمر به ربنا سبحانه نبيه بقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 3/ 159] ولا يمكن فصل العزم عن التوكل الحقيقي أبداً.

ليس هناك أحد سوى الله سبحانه يريد لك الخير، فهو الذي خلقك وفضلك على سائر الخلق، وأمر ملائكته بالسجود لآدم الذي أنت من ذريته. فإذا عزمت وأنجزت أي عمل كان، وكنت على يقين أن نتائج العمل هي بيده سبحانه، وكان موقفك هو الرضا والقبول التام بتلك النتائج، عندها تكون متوكلاً على الله حق التوكل..

أساس نجاحك في الحياة الدنيا والآخرة عندما تكون نفسك ثم جسدك وطاقة الروح كلها متطابقة لا شتات بينها، وكم هي سعادة لنفسك وطمأنينة لها حين تعمل أي عمل وأنت متوكلٌ على الله حق التوكل، لأن هذا يعطي نفسك نوعاً من التفاهم والاتفاق معها حتى تكون متماسكة ومستعدة لأي عمل آخر تقوم به، والأنبياء هم قدوة تتعلم منهم، وضمانة لك بأن تكون متوكلاً عليه سبحانه في كل أمر من أمورك، ومثالهم سيدنا هود حين قال لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 11/ 56].



إن رأيت إنساناً في أحسن حال، ولا يعبد الله بل ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الفرقان: 25/ 43]، وهو ظالم للعباد، ويرتكب كل أنواع المعاصي، فلا تظن أن الله غافل عنه، ولكن اعلم أنه في مدد الإمهال من الرحمن جَلَّجَلَالُهُ.

رحمة الله تعالى لا حدود لها﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 7/ 156] وصفة الرحمة غالبة على كل صفاته سبحانه، جعل منها رحمة إمهال ليعود المذنب إلى جادة الصواب، وأعطاه فرصة وزماناً ليتدارك ما فاته من خير، وداً ورحمة من الرحمن جَلَّجَلَالُهُ عسى أن يتوب ويَصلُحَ ويرجع إلى ربه ويغتنم مهلة الإمهال التي هو فيها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 19/ 96].

تكرُّمُ الرحمن جَلَّجَلَالُهُ برحمة الإمهال على عباده ما هو إلا فرصة ممنوحة بمحض الفضل منه سبحانه للعبد ليعود عن ظلمه وذنوبه، ويسعى لإرضاء الله تعالى الذي قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [النحل: 16/ 61].

كن على يقين أن من فاتته رحمة المهلة والفرصة الممنوحة، بل تكبّر وتجبّر وترك الفرصة تلو الأخرى الممنوحة له ليتوب ويرجع إلى جادة الصواب، فقد وقع بمدد الذي يمد من كان في الضلالة مداً ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: 19/ 75] وكان إمهال الرحمن جَلَّجَلَالُهُ له استدراجاً وليس إهمالاً أو غفلة لما كان يعمل، بل تأخيراً له ليوم الحساب حيث يرى هناك هول ما فاته من فرصة رحمة المهلة التي كان فيها ويتجلى له قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 14/ 42].



إن نظرت إلى تاريخ الأمم والشعوب منذ بدء الخليقة وحتى بعثة نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تجد أن هذه البعثة بالنسبة للزمن الذي مضى قبلها كأنها سباق مع الزمن وحالة طوارئ؛ وذلك لقربها من نهاية العالم فقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى» [صحيح مسلم: 1435].

إن تتبَّعت التاريخ وبحثت في أحوال الأمم قبل بعثة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنك سوف تلاحظ أنه لم يطرأ على أحوال البشر والأمم والحضارات، طوال ألوف مديدة، تغيير في إيقاعها. أي أنك تجد نشأة أمة أو حضارة، وتطورها، وازدهارها، واتساعها، ثم انهيارها.

أما بعد بعثة خاتم النبيين، فقد بدأ عصر جديد في تاريخ البشرية لا سابق ولا شبيه له، فقد بدأ كل شيء يتغيَّر بتسارع شديد وذلك ابتداءً من قفزة علمية شاهقة وانتشار بسرعة فائقة لحضارة متألقة قائمة على نهضة فكرية وعلمية استثنائية، وكانت هذه الحضارة أساس ما نجده اليوم من ارتباط القارات فيما بينها، وانفتاح العالم كله على بعضه بشكل مطرد لا عودة له إلى حال الدنيا قبل البعثة.

لقد كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم النبيين ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 33/ 40] لأن الزمن بتسارع مطرد عبر عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلاً: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ» [مسند أحمد: 10521] ولم يعد هناك أنبياء بعده لأن نهاية البشرية ستكون بقيام الساعة التي قال عنها ربنا سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: 16/ 77] فما أحوجك وأنت في آخر الزمان أن تبادر بالتمسك بما جاء به نبي آخر الزمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي قال عنه سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: 7/ 158].



إياك أن تكون من أولئك المتزمتين المتشددين الذين لا يجدون أي عذر لأحد من الخلق إن أخطأ، ويسقطون تزمّتهم وتشددهم هذا على الله سبحانه، ولا يرون بل وينسون أنه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 12/ 92] فهو الرحيم جَلَّجَلَالُهُ الذي لا حدود لرحمته فتح باب التوبة لكل من حاد عن جادة الصواب منذ بداية الخلق والإيجاد، وتاب على أول الخلق سيدنا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل هو سبحانه علم آدم الكلمات التي بها تاب عليه، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 2/ 37].

الله وحده هو الذي يتوب على عباده لأنه ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 37] ورحمة الرحيم جَلَّجَلَالُهُ ليست عابرة بل متأصلة ودائمة وبحدها الأقصى.

كن على يقين أن من مظاهر رحمة الرحيم جَلَّجَلَالُهُ هي مغفرة الذنوب لمن تاب وعاد إليه سبحانه فهو ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: 34/ 2].

ويكفيك أن تعلم أن الرحمة ارتبطت مع المغفرة في واحدٍ وسبعين آية من آيات القرآن الكريم، ليس هذا فحسب بل ارتبطت أيضاً مع رأفة الرؤوف الرحيم جَلَّجَلَالُهُ ، الذي من رحمته أرسل لنا كتاباً ليخرجنا من الظلمات إلى النور ويعيد المذنب إلى جادة الصواب، بالرأفة والرحمة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: 57/ 9].

ما أرأفه وما أرحمه سبحانه الذي أخبرنا على لسان نبيه في الحديث القدسي:

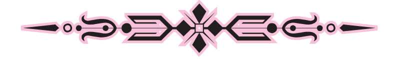
«قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [صحيح مسلم: 4927]. وهذا الإخبار بحدِّ ذاته رأفة ورحمة.



أن يتولد عندك قوتان متعاكستان هي مشيئتك ومشيئة الله جَلَّجَلَالُهُ، أي أن تكون بين الأنا والحقيقة، هو خطأ جسيم، والصحيح أن تكون غاية في إنكار الذات وأن تفتح قلبك لمن أوجدك، وتوجه جميع قواك في نفس الاتجاه، ثم تجمع شتات نفسك وكل قواك لتَتَّجه جميعاً نحو: ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: 2/ 163].

اجعل الله حيّاً في قلبك، وذلك بأن يكون سبحانه هو السميع والبصير والمجيب، واجعل كل أسمائه حاضرة في حياتك، حتى تكون معه سبحانه في كل يوم من أيامك، ضع في ذهنك أن الله بيده كل شيء، وأن كل حياتك هي طريق رسمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لك، لأنك إن فكرت أن تضع طريقاً آخر، ورسمت وخططت له ونسيت أنه سبحانه قد كتب كل شيء، عندها يتولد عندك قوتان متعاكستان ويكون التمزق بين مشيئتك ومشيئة الله جَلَّجَلَالُهُ، فلِمَ التمزق وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 76/ 30].

ارضَ بما قسم الله لك تكن أسعد الناس، فقد حَدَّثَ نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلاً: «أَنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِمَا أَعْطَاهُ فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ» [مسند أحمد: 19398] واعلم أنه سبحانه المتصرف وهيمنته فوق كل شيء، وقل: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك، ثم أفرغْ قلبك من كل ما هو عالق به من ذكريات وتداعيات سلبية مضى عليها الزمن. وامسح واحذف كل الذكريات السيئة التي مضت وولت لكل من أساء إليك، وبادر بعلاقة طيبة مع كل من حولك. وفي بداية كل يوم من أيامك خاطب نفسك وقل: الآن ولدت والله يرزقني كما يرزق المولود الذي ولد في يومه، وصِلْ أرحامك بشكل مسلكي وليس عن طريق المصادفة، وإياك والتسويف بأن تؤجل عمل اليوم إلى الغد ، واحسم أمورك مباشرة، وأكمل أي عمل تقوم به حتى آخره. وأهم شيء أن يكون توجهك إلى نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو ظهرك في هذه الحياة ومن لا ظهر له في هذه الحياة لا يستطيع أن يستمر ويتابع لأنه: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 9/ 128].



ليس هناك أحد يُكنُّ لك الودَّ والحب مثل الله تعالى فهو الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ، رأفته سبحانه سابقة لك من قبل أن توجد على الأرض، ومن قبل أن تكون في الموقف الذي تحتاج به للرأفة، وهذه الرأفة رحمة منه وحبٌّ، إذ ما أرأفه وأرحمه أنْ منَّ عليك وأعلمك أنه الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: 57/ 9].

لتكن مشاعرك تجاه الله سبحانه حباً وامتناناً وشوقاً إليه، وإياك وسوء الاعتقاد لما قد يخطر ببال العباد وهم يمرّون بامتحان الحياة الدنيا ولا يرون أن ﴿ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 2/ 143] بل يرون الشدة والقسوة منه سبحانه، وإن لم يعترفوا بذلك صراحة، وهذا سوء اعتقاد بالله الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ.

إياك والظن أن امتحان الحياة الدنيا فيه قسوة، فإنك بذلك لا تعلم من حكمة الأمور شيئاً، ولو اطلعت على الحقيقة وما فيها أدركت تمام الإدراك كم أنت محفوف بالرأفة الإلهية من حيث لا تدري، فهو سبحانه رؤوف بك لأنه رحيم، وهذه الرأفة شكل من أشكال الرحمة الإلهية، تتجلى بتجنيب الخلق الكثير من العذاب والوبال، وذلك فضل من الله ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: 24/ 20].

فالرأفة تخفيفٌ إلى أقصى حد وعناية يحف بها سبحانه خلقه. لِمَ يرأف سبحانه بخلقه؟ لأنه رحيم رحمةً لا يسعها عقل. إذاً رأفته سبحانه بخلقه ليست عابرة، بل دائمة وبالحد الأقصى لارتباطها باسمه الرحيم جَلَّوَعَلَا كما يشهد على ذلك دعاء ﴿..رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 59/ 10] ما أرأفه سبحانه إذ منَّ عليك بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: 3/ 30]، وهذا الإخبار بحدّ ذاته رأفة ورحمة، لأنك إن أخذت أول الآية ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ ضاقت بك الأرض، وانقطع رجاؤك منه سبحانه، أو أخذت بتتمة الآية ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ مالت نفسك للتراخي، والطمع برأفة الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ، فكن مع الله دائماً بين الخوف والرجاء وهو حال الأنبياء.



كلما كنتَ صادقاً مع الله ومع نفسك، أعطاك جَلَّجَلَالُهُ من علمه وتفضل عليك بمعرفته، هذه المعرفة هي التي أنزلها على نبيه الكريم وعلمه إياها: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: 4/ 113].

وإن كنت صادقاً في طلبها باحثاً في كتابه الكريم عنها، فأول سؤال يجب عليك طرحه على نفسك هو: ماذا يريد منا الذي خلقنا وخلق الأكوان أن نتعلم من هذا الكتاب؟ وماذا يريدنا أن نفهم؟ وماذا يريدنا أن نعمل؟.

وستجد الجواب ـ إن كنت صادقاً ـ أن النص القرآني الشريف يحتوي على كنوز من الأسس التي لا غنى لك عنها، وبحثك عن هذه الأسس هو بحد ذاته رفع لإمكاناتك النفسية والعقلية والفكرية والروحية، وجَعْلِها بالحد الأقصى ضمن حدود ملكاتك الذهنية والروحية، وذلك كله للسمو بنفسك والوصول بها إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: 89/ 27-30].

وإن تابعت في سعيك نحو المفاهيم القرآنية، وجمعت المعلومات الموزعة عبر صفحاته وقارنتها ببعضها، واستطعت الربط فيما بينها، فهذا العمل يعطيك لياقات متطورة ويؤهلك للخوض في المواضيع القرآنية العليا، والتي تحتاج منك إلى حسٍ مرهفٍ وانتباهٍ متواصلٍ، ونباهة عالية، وذاكرة قوية.

وإن منَّ الله عليك بهذه المفاهيم كان ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: 5/ 54] لأنك ستصل إلى الضوابط المطلقة التي أوجدها سبحانه للخليقة برمتها ووضعها في الكتاب الذي: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: 41/ 42]، وستجد أن القرآن الكريم هو المرجع الأعلى واليقيني للتعريف بربّ العالمين، وستجد فيه وعلى مدى آياته رؤية كاملة متوازنة وصحيحة عن الله سبحانه، ما أحوج الذين يبحثون عن الحقيقة والذين يهتمون بالمسائل الروحية إليها؛ لأن عدم توفر معلومات ومفاهيم صحيحة وكاملة عن الله جَلَّجَلَالُهُ هو السبب الأساسي للإلحاد أو الكفر أو الشرك أو الاضطراب الديني.



احمدِ الله أنه هداك إلى معرفته وأعطاك إيماناً متكاملاً متوازناً به سبحانه، ووفر عليك متاهة أولئك الذين يرون الإله باعتقادهم أنه إله عنيف ليس همه سوى البطش، وليس لهم إلا اتقاء بطشه، أو الذين يرون الإله باعتقادهم أنه إله حب رقيق يضحي بولده ليُكَفِّر عن سيئات خلقه.

انظر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: 85/ 12-14] وكم في هذه الآيات الثلاث من توازن تام وتكامل مطلق، لأنك إن قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ وحده دون تتمة الآيات تشكل لديك انطباعٌ وتصورٌ مرعبٌ عنه سبحانه وساء اعتقادك، ولكن يمنَّ الله عليك فتتابع كلامه لتجده سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ ولتجد أن الودَّ من صفاته جَلَّجَلَالُهُ، وصفاته ليست نسبية بل تأخذ حدّها الأقصى ويذكرك جَلَّوَعَلَا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي هناك صفات لله لها مقابل، مثل المبدئ والمعيد، كلّ يقابل الآخر، أما صفة الود فليس لها مقابل كالبغض أو الكره، لذا كان وده سبحانه دائماً لأنه مستمرٌ ولا مقابل له.

كن على يقين أن الودود جَلَّجَلَالُهُ وده هو حبه لك ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 5/ 54]، وهذا الحب هو مبادرة منه سبحانه إليك تتجلى بالمغفرة والرحمة.

كن دائماً في مقام الود مع الله سبحانه الذي ودّه لك سابق منه إليك، وهو المبادر والفاتح لك والمقبل عليك دائماً بوده ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 11/ 90] وإياك أن تُعرِض عن الودود جَلَّجَلَالُهُ الذي وده كله هو حب لك ومغفرة ورحمة.

تفكر بنسبة أقصى ما يكون ودُّ أحدنا إلى ما يكون من ودِّه جَلَّجَلَالُهُ، وتذكر ما نسبة أحدنا لمَن خلق السماوات والأرض ، وهو أمرٌ إن أدركته فلا طاقَةَ لك بشدته، فحبه سبحانه ووده لنا، لا يمكن مقارنته مع حبنا وَودِّنا له جَلَّوَعَلَا إن جازت العبارة.

ودُّه جَلَّجَلَالُهُ مبادرةٌ بمحض المَنِّ والجود والكرم الإلهي لنا، فمن أظلم ممن يُعرِض عنه وقد بادله سبحانه بالودِّ والمغفرة والرحمة.



إن أردت، في نفسك بناء خشوع حقيقي أمام الله سبحانه، فابدأ من لفظ الجلالة، أي حين تقول: **الله**.

الله: هو الاسم الحقيقي الذي عرفّنا به سبحانه عن نفسه ولكن كثرة تناولك لهذا الاسم الجليل في كلامك العادي اليومي، شيئاً فشيئاً، يذهب الخشوع من قلبك ولا تلبث إلا أن تفقد الحس السليم تجاه الخالق العظيم، لذا تفقد قلبك حين تسمع من يقول: الله، وانظر إلى ردة فعلك وقيم خشوعك من خلال ذلك، والميزان الذي تقيس عليه هو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: 22/ 35] وإن حققت ذلك فستجد خشوعاً حقيقياً في نفسك خاصة حين تقف بين يدي الله في صلاتك وهذا هو الأهم.

نفسك بحاجة لتنظيم بشكل مستمر، خاصة في مثل هذا الزمان الذي أنت فيه، والصلاة هي الحل الأمثل لتنظيم النفس وإعادتها لفطرتها الأولى، فإن كنت محققاً للخشوع عند ذكر اسم الله فإنك ستحقق بصلاة ركعتين كل آمالك.

لفظ الجلالة: الله هو الأساس في الصلاة التي تبدأ بالإقامة، وإقامة الصلاة هي في الحقيقة تعني حضور ملائكة، وفي كل حركة من حركاتها لا بد من اسم الله، فإن كنت محققاً للخشوع أمام هذا الاسم أثناء يومك وقبل دخولك في الصلاة عندها تكون من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: 23/ 1-2] .

أن تكون من الخاشعين أمام الله سبحانه يحتاج منك إلى وعي لما تقول وخاصة عند قولك: الله، والوعي هو أهم شيء يريدنا سبحانه أن نفعله، لأن من يعِ ما يقول يزدَدْ علماً، وينقله سبحانه إلى مستوى أعلى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 58 / 11].

وَعْيُكَ لعظمةِ قولك: «**الله**» يرفعك لأعلى الدرجات.



لا تكن مثل أولئك الذين ينسون أن الله هو الحليم جَلَّجَلَالُهُ فيتشددون على أنفسهم ويبالغون في مؤاخذة أنفسهم لأيّ ذنب كان، ولا يرون أن ﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 3/ 155] بل يرونه سبحانه لا عمل له إلا متابعة الخلق على أيّ ذنب ليحكم بالعقاب عليهم، وتجدهم أخيراً يصلون إلى حدّ لا يستطيعون فيه المتابعة في تحمل تشددهم، فينقلبون إما إلى تسيّب تام، أو يصبحون منفرين همهم تكفير الآخرين، ودين الله سبحانه بالنسبة لهم هو محكمة عملها تطبيق قانون العقوبات، ولا يمكن إعادتهم إلى جادة الصواب إلا بأيمانهم ومعرفتهم التامة بحقيقة كونية هي أن الله هو الحليم جَلَّجَلَالُهُ.

كن حذراً أن يكون في نفسك تشدد مثل أولئك المتشددين، واعلم أن الله سبحانه يعلم ما في نفسك، واعلم أنه الغفور الحليم جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 2/ 235] وعلمك بذلك هو الدواء لكل تشدد إن وجد في نفسك.

الله هو الحليم جَلَّجَلَالُهُ: حِلْمُه هو عدم تشدد في المؤاخذة والعقوبة على كلِّ الذنوب صغيرة أم كبيرة، بل عدم متابعة وعدم تدقيق تسامحاً وكرماً وفضلاً منه. وكذلك عدم تسرّع في المؤاخذة والعقاب بل إمهالٌ وإفساحٌ لمجال التوبة. ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 3/ 155]

اغنم هذا المجال المفتوح وسارع في التوبة قبل فوت الأوان، واعلم أنك في إمهال الحليم جَلَّجَلَالُهُ وأن الحساب آتٍ لا محالة، فلا يغرّنك ذاك الإمهال في نفسك أو غيرك، فالإمهال ينتهي عندما تصل إلى الآخرة، وتأخذ كتابك الذي: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 18/ 49].



حاسب نفسك على ردود أفعالها وتصوراتها خاصة عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو أهم شيء، وذلك من خلال حياتك اليومية، وتذكر آخر كل يوم هل كان حضورك مع الله جَلَّجَلَالُهُ وتصورك عن الذي قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 57/ 4] تصوراً يليق به سبحانه؟

أصلاً أهم شيء في رحلة الحياة الدنيا هي اللحظة الأخيرة، عندما تنتقل فيها إلى العالم الآخر؛ وفي تلك اللحظة يغيب وعيك ولا يبقى إلا نفسك الأصيلة وما هو أساسي فيها، وعندها هي التي تتكلم عنك، لذلك قال نبينا عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» [رَوَاهُ أَبُو دَاوُد].

لتكون جاهزاً لتلك اللحظة الحاسمة في رحلة الحياة الدنيا يجب عليك تصفية نفسك من كل الشوائب التي لا تليق بالله جَلَّجَلَالُهُ، لذا اسعَ بنفسك وتوجه بها إلى نوره سبحانه كي تكون نفساً حيةً لا نفساً ميتة﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: 6/ 122].

طور مفهومك عنه سبحانه من خلال القرآن الكريم وإياك وسوء الفهم، فكم من أناس مثلاً فهموا قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 2/ 286] عكس المعنى، وعلى أن الآية مجرّد رخصة لبذل الجهد الأدنى والتهرب من الطاعات، ولكن إن تأملت في هذه المقولة الإلهية فستجد فيها قانوناً إلهيّاً قطعيّاً، فهو حكيم وعدل لا يكلف نفساً إلا بما هو جعلها تستطيع القيام به، إذ لا قوة أصلاً إلا بالله، فلو استطعت القيام بأي أمر إلهي فأنت إذاً مكلف به بالكامل! والخطير: أن الكثيرين تجدهم يرفعون راية هذه الآية الكريمة ليبرروا بذلهم الجهد الأدنى، مخالفين بذلك ما أراده سبحانه لنا في الحياة الدنيا من بذل الجهد الأقصى بحكمة وذكاء لتلك اللحظة الحاسمة عندما ننتقل إلى العالم الآخر.



إن رأيت طاغيةً يصول ويجول، أو رأيت صالحاً بريئاً يُظلم ويُعَذب، أو سمعت عن حرمات الله تنتهك، فلا تكن في حَيرة وتذكر خطاب الله لنبيك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما أجابه عن هذه الحيرة ذاتها قائلاً: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 3/ 196-197]، وطمأنه أنه تعالى ليس بغافل عن الظلم وأهله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 14/ 42].

سبحانه هو الصبور جَلَّجَلَالُهُ: صبره جَلَّوَعَلَا هو عدم استعجاله على الظالمين، بل تركهم وأمهلهم إلى أجل مسمى ليتوبوا ويرجعوا وإلا سيحق عليهم القول، ولن تكون لهم حجة يوم القيامة لتبرير ما فعلوا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 18/ 58].

اعلم أن صبر الصبور جَلَّجَلَالُهُ ليس مثل صبر خلقه أبداً؛ لأن صبر الخلق يتصف بالمعاناة ضمن فترة زمنية ضيقة، أما صبره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهو عدم استعجال وإمهال.

الصبور جَلَّجَلَالُهُ: هو الرشيد الذي يقود الخلق والأحداث بعظمة وجلال وحكمة بلا استعجال إلى أجل هو واضعه.

استعن بالصبر والصلاة في كل أمورك لأن الله تعالى مع الصابرين ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 2/ 153] وإياك أن تكون عجولاً لأن العجلة والاستعجال هما منافيان للصبر، كالذي يريد إنجاز سقف مبنى قبل إنجاز طوابقه.

ليكن صبر الصبور جَلَّجَلَالُهُ هو قدوة لك في صبرك، فلا تستعجل وتمهل حتى تصل إلى الأجل والغاية التي وضعها الله سبحانه، ويوم القيامة، يأخذ عندك كلّ شيء معناه، وتظهر لك حقيقة وحكمة الغايات التي وضعها سبحانه لكل أمر.



إياك والتمني، فقد ذكره سبحانه في وصف حال أهل النار يوم القيامة وبيَّنَهُ لنا كحوار بينهم وبين أهل الجنة: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: 57/ 14].

من أهمّ أدوات الشيطان وأبوابه هي الأماني، لذا فهو يترصّد أياً كان يتمنّى ليتدخّل في أمنيته، ولو كان رسولاً أو نبياً!: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: 22/ 52].

الله جَلَّجَلَالُهُ أدرى بنفوس خلقه وما تصبو إليه، وكل ما نهى عنه سبحانه يشترك بنقطة أساسية هي صون كرامة الإنسان والوصول به إلى نفسيَّة سمحة متوازنة ومتماسكة، نفسية استغنت بفضل الله عن الحاجة إلى الآخرين، ولم تعد كالمتسوِّل الذي ينظر بعجزٍ وتمنٍّ وحسرة إلى ما عندهم وما بين أيديهم، وبَيَّنَ جَلَّجَلَالُهُ في كتابه الكريم عدم جدوى التمني، وخطورته لأنه مدخل سهل للشيطان على نفس الإنسان ونهى عنه نهياً صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 4/ 32].

أن يتمنى الإنسان ما عند الآخرين هو في الحقيقة إهانة لكرامته! لأنه يُعَظِّمهم ويُحَقِّر نفسه من حيث لا يدري، وهو كالذي يرضى لنفسه ما استخدمه الآخرون من متاع وملابس ومن أدوات وأواني طعام، ولم يرد في القرآن الكريم قط أن أهل الجنة يتمنَّون؟ لذا تَرْكُ التمني هو صون للكرامة وتحقيق لمستوى عالٍ من ضبطٍ للنفس وسمو بها.

ترك التمني يخلِّص الفرد والمجتمع من مشاكل كثيرة وكبيرة منفتحة على عمل الشيطان، ودعوة من خالق الكون الذي بيده الخير كله للتوجُّه إليه في سؤال الفضل: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: 4/ 32].



إن أردت محبة الله لك فكن من المتوكلين عليه فهو سبحانه الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 3/ 159]، وإن عزمت على أي أمر فتوكل على الله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 3/ 159]، وإن أردت أن تكون حراً بالمعنى الحقيقي، وأن لا تكون لك أيّ تبعية لأحد من الخلق، فاجعل تبعيتك لله فهو الوكيل جَلَّجَلَالُهُ على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: 11/ 12].

كن من المتوكلين على الله سبحانه وإياك أن تُوَكِّل بأيِّ أمرٍ من أمورك أحداً غيره، فتقع في ذلِّ هوان التبعية للآخرين والامتنان لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 33/ 3] فهو الوكيل جَلَّجَلَالُهُ الذي بيده ملكوت السماوات والأرض إن وكلته أعطاك من عطائه بغير حساب، لأنه القادر والقائم على كلّ شيء، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 39/ 62] هيمنة الله سبحانه وقدرته شاملة مطلقة ولا يستطيع أحد أن يقوم بأي عمل أو أن يتدخل بأيّ شيء إن لم يسخّره تعالى لهذا الشيء؛ لذا من العبث أن توكّل أمركَ لأحدٍ من خلقه تعالى إن كان إنساً أو جنّاً أو فرضاً ملكاً، وأنت تعتقد كل الاعتقاد أن الذي وكلته قادر على تحصيل ذاك الأمر، لأن هذا هو حال أهل الغفلة ممن يضعون آمالهم وثقتهم بالخلق ناسين أن الله هو الوكيل جَلَّجَلَالُهُ.

اعلم أنه من كرم الله سبحانه أمره لك بأن توكّله ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 39/ 9]، وحتى تصل إلى هذا التوكل الذي أمرك به، عليك بالأخذ بالأسباب كاملة مع علمك التام أن التوفيق والنجاح والنتائج كلها بيد الله ومنه وليس بجهدك وعملك.

إياك أن تجعل التوكل على الله سبباً ومبرراً لك في ترك العمل والتملص من المسؤولية وعدم الأخذ بالأسباب والكسل وعدم بذل الجهد المناسب لكل عمل، وليكن توكلك على الوكيل جَلَّجَلَالُهُ دليله قول نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في دعائه: «اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الْإِجَابَةُ وَهَذَا الْجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ» [سنن الترمذي: 3341]، وإن كنتَ تسعى في طلب الرزق فتوكل على الله حق التوكل، كما قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَو أنَّكم كنتُم توَكلونَ علَى اللهِ حقَّ توَكُّلِه لرزقتُم كما يُرزقُ الطَّيرُ تَغدُو خماصًا وترُوحُ بطانًا» [سنن الترمذي: 2266].

إن تشرفت بالوقوف عند قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 17/ 85]. فإياك والظن أن صيغة ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ تعني أن «هذا أمر يخصه سبحانه ولا شأن لكم فيه» بل إن تلك الصيغة تذكرك بآياتٍ اقترنت فيها عبارة «الروح» بعبارة «أمر» منها قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: 16/ 2] ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: 40/ 15] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 42/ 52] ويتبين لك أن قوله تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾، هو جوابٌ صريحٌ على السؤال في تتمة الآية: ﴿...وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 17/ 85]، ويفهم منه بشكل جلي واضح ارتباط الروح بالعلم، ويؤيد ذلك ذكره جَلَّجَلَالُهُ كيف تدرج: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ في خلق الإنسان وكانت البداية ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وبعد ذلك ﴿سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة: 32/ 7 – 9].

وكان أمره جَلَّجَلَالُهُ للملائكة بالسجود لآدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعد نفخه سبحانه من روحه فيه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: 15/ 29]، لم يكن نفخُ الروح لآدم هو منحه الحياة، وإنما منحُ آدم مؤهلاتٍ علمية تمكنه من الخوض في مجردات العلوم العليا، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: 38/ 71–72] فقد شاءت إرادته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بعد نفخ الروح في آدم إعطاءه العلم ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 2/ 31].

انظر كيف أنه سبحانه جعل كلمة الروح لقباً لسيدنا جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الموكل بتبليغ رسالة الله جَلَّجَلَالُهُ وما فيها من العلم خاصةً ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 53/ 5].

قربك من الله هو بابك لإجابة الدعاء فهو جَلَّوَعَلَا القائل لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: 2/ 186] ولا إجابة لمن هو بعيد عمن هو سبحانه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبأ: 34/ 50] و﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 11/ 61].

القرب من الله سبحانه لا غنى لك عنه أبداً، ولكن له شروطه وأسبابه، منها أن تعلم أنه كلما كان الشيء نقياً طاهراً مقدّساً أمكن لهذا الشيء الاقتراب منه سبحانه، لأنه القدوس جَلَّجَلَالُهُ أي المقدس المنزه عمّا لا يليق به، فلا يقبل الخبيث ولا يقبل الخبث وهو المنزه عن أيّ عيب أو نقص أو إسقاط بشري ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ [الحشر: 59/ 23].

لتكون لائقاً بالتقرب إلى الربِّ الذي خلقك والذي هو مقدّس ومنزَّه عن كل شيء، ولتكون أهلاً للتقرب من حضرة الملك القدوس جَلَّجَلَالُهُ، ابتعد عن كل خبث وكن دائم النقاء والطهر، وحافظ في كلّ لحظات حياتك على ذلك، وكن من الذاكرين عسى أن يشملك قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 62/ 1].

وانظر كيف جعل سبحانه ملائكته الذين يحملون العرش أطهاراً نورانيين لقربهم من القدوس جَلَّجَلَالُهُ، وجعل ذكرهم الدائم له لا ينقطع أبداً﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: 40/ 7].

احمدِ الله أن أمرك عبر يومك خمس مرات بالصلاة، لأنها لحظة يتحقق لك فيها ذروة النقاء والطهر مادياً ومعنوياً، هذه الصلاة قال عنها نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا» [صحيح البخاري: 497] فالصلاة هي طُهْرٌ مادِّي، والأهم أنها طهر معنوي عندما يمحو الله بها خطاياك.



عندما يمن الله عليك وتتشرّف بالتفكُّر بما يتعلق به جَلَّجَلَالُهُ، إياك أن تُدْخِلَ عاملَ الزمنِ في ذلك، لأنه منزَّه عنه سبحانه، وهذا ما يشير إليه القرآن برمته.

وإن كنت على يقين بعظمة ورقيّ ـ وبشكل خاص ـ دقة لغة كتاب الله الذي قال عنه من أنزله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: 41/ 41-42] فإنك تجد البرهان على تنزه الله جَلَّجَلَالُهُ عن الزمن، أي انعدام الزمن في كل ما يتعلق بذاته، تجده بشكل واضح عندما يعبِّر سبحانه بآيات كثيرة عما يكون في الآخرة ـ أي في المستقبل بالنسبة لنا ـ بفعل ماض، بدلاً من فعل مضارع من مثل قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: 39/ 71] وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [يس: 36/ 26]. وإن نظرت كيف استخدم سبحانه الزمن في هذه الآية ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 22/ 47] أو هذه الآية: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: 23/ 112-113] تجد أن استخدام الزمن في تلك الآيات ومثيلاتها، ليس مجرد أسلوب بلاغي، بل هو إشارة جعلها في كتابه الكريم دليلاً على تنزهه سبحانه عن الزمن.

بهذا التفكير تدرك تمام الإدراك أن الزمن كله لا وجود له عند من أوجد الزمان جَلَّجَلَالُهُ، وما هو ماضٍ وحاضر ومستقبل بالنسبة لنا، سيان بالنسبة لله سبحانه ، فلا زمان ولا شيء قبله ولا بعده، وله الإحاطة التامة بكل زمان.

إن استطعت بعون من الله، حذف عامل الزمن عند التفكّر به جَلَّوَعَلَا، فقد حققت قفزة نوعية في فكرك، وعندها ترى بجلاء ووضوح أن لا تعارض مثلاً بين سابق علم الله جَلَّجَلَالُهُ، وبين مسؤولية المكلفين عن أعمالهم، وغيرها من أمور أشكلت على الذين اعتادوا التفكُّر به سبحانه، من خلال محدودية الزمان الذي هم فيه.



إن بدأت أي عمل بالبسملة الشريفة، فكأنك تستأذن من صاحب الملك سبحانه، وعندما تضع يدك على أي شيء تذكَّر أن الله هو الملك جَلَّجَلَالُهُ الذي يملك ما بين يديك، وقل في نفسك دائماً: أنا لست مالكاً لأيّ شيء بل مستخلف عليه ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: 57/ 7].

إن ظننتَ أنكَ تملك شيئاً أو أحسستَ في قراره نفسكَ بشعور الملكية فأنت في غفلة عليك التحرر منها، لأنك سترى يوم القيامة وتسمع سؤاله سبحانه ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾[غافر: 40/ 16]، وستجد يومها بأن الله هو حقاً ومطلقاً الملك جَلَّجَلَالُهُ، ولا أحد من الخلق كله كان يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، وأن الملكية المطلقة الكاملة الدائمة والشاملة الحقيقية هي لله الملك جَلَّجَلَالُهُ، وأن ملكه سبحانه لا يستطيع أحد أن ينازعه فيه ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [طه: 20/ 114].

عندما تصبح عقيدتك أنك لست مالكاً لأيّ شيء بل مستخلف عليه، ويكون ذلك يقيناً وليس مجرد عبارة ترددها، عندها يحدث لديك تغيير عميق وقناعة أنك تملك ولكن الملك لله، ولن تعود هنالك صراعات في نفسك أو مع غيرك سببها حب التملك أو الإحساس بالحاجة للملكية الموجود في أعماق الإنسان، وعندها تتيقن أنك مستخلف على ما تملك وتتحرر نفسك من عادة مستأصلة في النفوس البشرية، هي الخوف من الإنفاق: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: 17/ 100] وعندها تعيش نفسك في سلام لأن الإحساس بالملكية أصبح عندك متوازناً.

كن على يقين بأن الحل الأمثل لأكبر مشاكل البشرية في أمور الملكية والتملك هو الاعتقاد بأن الله هو الملك جَلَّجَلَالُهُ ولا أحد يملك سواه.



إن أردت الوصول إلى قلب مطمئن تفقد نفسك بين الفترة والأخرى؛ لأن النفس مختلفة متغيرة وهي مثل طبقات، قد تصل بها إلى قناعة لفكرة ما ولكن ضمن طبقة من طبقاتها أو جانب من جوانبها وليس كلها. وهذا يعني غياب راحة القلب.

وإن أردت الوصول بقلبك إلى الطمأنينة فعليك أن تجعل في أعماق نفسك مركزاً يستقطب كل جوانبها وطبقاتها، وذلك بأن تجعل لك ذكراً لله بشكل دائم، وإن كنت من الذاكرين كنت من: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 13/ 28]. لأن الأذكار بتكرارها الدائم تجعل نفسك متطابقةً على بعضها، ولعل ذلك هو السبب في تخصيص بعضها بعدد معين، لأن بذلك العدد من التكرار تتجمع طبقات النفس كلها أمام عظمة المذكور سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فالذكر الحقيقي يحضِّرُ النَّفْسَ ويوصلها إلى مستوى راقٍ، وقلب مطمئن بالله سبحانه، وإلى انسجام تام بين كل جوانبها، هذا الانسجام ما أحوجك إليه كي تبني معرفتك عن خالق الكون الذي ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: 20/ 7] والذي بيده ناصيتك وناصية الخلق كلهم.

إن جعلت لك ذكراً بشكل دائم أصبح قلبك مطمئناً، ونفسك مجتمعة بكل طبقاتها وجوانبها حول مرَكَّزٍ متألق كامل وجوهري هو الله جَلَّجَلَالُهُ، وإن أصبحت من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: 33/ 35] وكنت من الذين لا يغيب وعيهم عنه ويستأثر على قلوبهم، ويرون أي خير آتياً منه جَلَّوَعَلَا، عندها وبالضرورة وبالنسبة والتناسب، تجد ما سوى الله عدماً لعظمته جَلَّجَلَالُهُ، وتجد نفسك تسعى في حسن استغلال فرصة الحياة الدنيا بذكره سبحانه قبل فوات الأوان، فقد أخبر نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن: «لَيْسَ يتحسر أهل الْجنَّة إِلَّا على سَاعَة مرت بهم لم يذكرُوا الله تَعَالَى فِيهَا» [رواه الطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان].

وفي حديث آخر قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ عَلَى ابنِ آدَمَ لا يَذْكُرُ اللهَ فيها إلَّا تَحَسَّرَ عَلَيْها يَومَ القِيامَةِ» [رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في شُعب الإيمان].



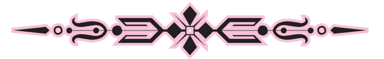
إن أحببت أن تكون نفسك طليقة صافية جاهزة للسمو الروحي، وأردت أن لا تتعلق بأثقال المادة ولا يؤسَر تفكيرك في الطموح إليها، وأن تنجو نفسك من الحسد لما هو عند الآخرين، فاعلم أن الله هو وحده مَالِكُ المُلْكِ جَلَّجَلَالُهُ، وأنك إن مَلَكْتَ شيئاً في الحياة الدنيا فهو ملك عابر وأنت مستخلف عليه، ولو أنك كنت تملك حقاً إذاً لوجب أن يدفن ويبعث معك ما ملكت ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: 35/ 13]

المَلِكُ الحقُّ الأوحدُ هو الله، والمُلكيَّة الإلهية هي مطلقة لا يشارك الله فيها أحد أبداً، والله هو مالك الملك جَلَّجَلَالُهُ: أي قائم بأمر المُلْكِ وحده ولم يترك حق التصرّف ولو بجانب من مُلْكِهِ لأحدٍ من خلقه، أو يتركه لغيره، ولا مُلْكَ إلا مُلْكُه يتصرف به كله كيف يشاء، وهو الذي يملك ولا أحد غيره يملك سبحانه.

اجعل أساس حياتك يقينك بأن الله هو مالك المُلْكِ جَلَّجَلَالُهُ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: 3/ 26] وهذا اليقين هو الدواء لذلك الإحساس المتأصّل بالملكية في نفسك، والذي لا يمكن تجاهله لأنك إن أهملته يؤدي بك إلى عقلية ونفسية مادية صرفة توصلك إلى أن تقيّم الآخرين بناءً على ما يملكون، والأخطر، أن تقيّم نفسك بما تملك.

علمك بأن الله هو مالك الملك جَلَّجَلَالُهُ يخلّص نفسك من كل ذلك ويعلمك أن العزّ الحقيقي بيد الله، وكذلك الذل، فلا ذل إلا لله ولا عز حقيقياً إلا من الله وبالله.

أمّا إن استخلفك مالك الملك جَلَّجَلَالُهُ على شيء فإياك أن تتكبّر، لأن الذي أعطاك هو من يؤتي مُلْكَهُ لمن يشاء سبحانه، إله واسع عليم أخبرنا كيف فعل بقارون وهو رجل من قوم موسى نسب عطاء مالك الملك إلى نفسه وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 28/ 78] فعاقبه جَلَّجَلَالُهُ بقوله: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 28/ 81].



النص القرآني الشريف ليس نصاً بشرياً في محتواه ولا حتى في صياغته أو في لغته، وإياك أن تتعامل معه كتعاملك مع أي نص آخر، لأنه نص إلهي مقدس، وهو مجال روحي فيه كلمات تختلف جذرياً عن سائر كلمات الخلق؛ كلماته قائلها هو الله سبحانه وهو منزه عن الزمن! وهذه الكلمات متَّصلة به، باقية بقاء الباقي جَلَّوَعَلَا، فعّالة بكل قوتها من قوة قائلها الذي يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

لذا كان لا بد لك قبل دخولك في هذا المجال الروحي المقدس العظيم الذي هو: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ الرَّحيم﴾ [فصلت: 41/ 2] من تعليمة واضحة وصريحة أمرك بها من أنزل هذه الكلمات تجدها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: 16/ 98] ورغم صراحة ووضوح أمره تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، لكن ما أقل الذين يَعُونَ أن سريان مفعولها يكاد يكون فضلاً إلهياً استثنائياً يتفضّل به سبحانه على خاصَّةِ عباده، وليس تحصيلاً حاصلاً، وكأن مجرد النطق بها، وكيفما كان، كافٍ لتحقيقها بشكل آليّ.

انظر كيف طلبت أم سيدتنا مريم حين ولدتها وأسمتها مريم من الله جَلَّجَلَالُهُ الاستعاذة لها ولذريتها قائلة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 3/ 36] فأي مقام، وأي عطاء منه سبحانه أن تقبل دعاءها وأعاذ سيدتنا مريم وذريتها من الشيطان الرجيم بقوله سبحانه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 3/ 37] .

سَلِ الله جَلَّجَلَالُهُ بحضورِ قلبٍ وافتقارٍ شديدٍ إليه، حتى يمن عليك بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، لأنها لأولئك الذين يحبهم الله كما في الحديث القدسي: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ استعاذني لَأُعِيذَنَّهُ» [صحيح البخاري: 6021].



من عظمة الله تعالى أن ترك لك حرية الحركة والعيش والتجوال كما تشاء، ولم يجبرك على فعل شيءٍ من ذلك، وهو الجبار جَلَّجَلَالُهُ الذي تنصاع كل مادة الكون بما فيها لقوته ولإجباره إياها أن تأخذ حركة أو تجول ضمن مسار معين رسمه لها: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 59/ 23].

انظر كيف خلق فأوجد ملايين المجرات من المادة تسبح في فضاء الكون، وأجبرها الجبار جَلَّجَلَالُهُ على أخذ مسار معين لها، انظر إلى الشمس مثلاً ماذا قال عنها سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: 36/ 38] تصور لو أنه سبحانه ترك الشمس بما فيها من قوى هائلة بدون إجباره لها، وذهبت الشمس وأمثلها من ملايين الشموس في كلّ الاتجاهات فكم ستُحدِثُ من كوارثَ وفوضى وخراب. إذاً لا بدّ من أن يجبرها الجبار جَلَّجَلَالُهُ أن تذهب وتجري بالاتجاه السليم، وإجباره سبحانه لها من غير جهدٍ ولا توتر وبذات الوقت بجمال وجلال وبساطة تلقائية، وهذا من تجليات قوته سبحانه.

قوة الله تعالى فوق كل القوى، وهي قوة منسجمة ومنظمة مسيطرة تجبر جميع القوى التي أوجدها سبحانه على أخذ مجرىً معيَّنٍ، ولا أحد أدرى بهذا المجرى سوى الله جَلَّوَعَلَا، وكل شيءٍ يجري بأمره، إن كان ساكناً أو متحركاً، جامداً أو حيّاً، عاقلاً أو غير عاقل، مكلفاً أو غير مكلفٍ، وكل ذلك من تجليات قوته سبحانه.

إياك أن تستغلَّ ما أعطاك الله إيّاه من حرية وعدم إجباره سبحانه لك على شيء، أن تكون جباراً في الأرض، لأن ذلك خيبة وفشل لك ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 14/ 15] بل تواضع أمام خلق الله وتفكر جيداً عند استخدامك لقوتك والتي هي أصلاً من عطائه سبحانه لك، وتذكر دعاء سيدنا يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 19/ 32].

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: 19/ 14].



انتبه لأي تصرف لكَ على الأرض؛ لأن الخليقة التي أوجدها الله جَلَّجَلَالُهُ هي كُلٌّ متكاملٌ ومتوازنٌ لا تفاوت ولا خلل فيها ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: 67/ 3] وأي تغيير لأيِّ جزءٍ مهما صغر أو كبر لا بد أن يظهر أثره على باقي الخليقة. إما في الحياة الدنيا أو يوم الحساب ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 10/ 61].

عندما تضع يدك على أي شيء تذكر أن تغييرك أو تبديلك لهذا الشيء سوف يحدث شيئاً جديداً في كون منضبط، وبعبارة حديثة هو تحول للطاقة من شكل إلى آخر، كذلك أي عمل تعمله هو توظيف للطاقة، هذه الطاقة إن ذهبت في غير مكانها في الحياة الدنيا فإنها تحدث خللاً، ولا بد أن تعود في الآخرة إلى مكانها ضمن النظام الكلي المنضبط في هذا الكون، وهذا يحتاج في العالم الآخر إلى طاقة ليعاد إلى مكانه، هذه الطاقة اسمها جهنم.

جهنم ضرورة منطقية وحتمية لإعادة طاقة في الدنيا وضعت في غير مكانها لتعود إلى مكانها، وطالما أن كل شيء في هذا الكون منضبط بشكل تام عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 6/ 59]، عندها تدرك أنه بقدر ما يذهب أي عمل تعمله في اتجاه غير سليم في الحياة الدنيا، يحتاج في الآخرة إلى طاقة لتصحيح هذا الخلل بما يعادله من الطاقة الموجودة في نار جهنم.

جهنم هي توازن وانعكاس لتصحيح ما حدث من خطأ في الحياة الدنيا ولا يتم توازن وتصحيح أي خطأ أو خلل حدث فيها بغير الطاقة الموجودة فيها.

عليك أن تفهم وتعيَ تماماً أن الذنوب تُحدث خللاً في التوازن الكلي المنضبط في هذا الكون، وتعويضه هو رحمته بمغفرة الذنوب؛ أي: بقدرته جَلَّوَعَلَا يعيد ذلك التوازن بالمغفرة لكلِّ خطأ وإساءة للإنسان على الأرض، والاستغفار جعله سبحانه ثمناً لأي خطأ ارتكب في الحياة الدنيا، وهو أسهل بكثير من أن يؤجل إلى الآخرة لأن تعويضه يحتاج إلى طاقة جهنمية.. نعوذ بالله منها.



إن كنت في موقف تدافع فيه عن نفسك من شرٍّ أراده إنسان لك، فعليك أن تواجه هذا الشر بدافع إحقاق الحق لا بدافع الحقد والضغينة والبغضاء؛ لأن هذه الصفات إن كانت في نفسك فإنها توصلك إلى قهر الناس وكسر قلوبهم والتطاول عليهم، إذ ما أسهل أن يقهر إنسانٌ مخلوقاً آخرَ بلا معنى بل بدافع من شر نفسه.

يجب أن لا يغيب عن بالك إن تحركت تلك الدوافع عندك، أو همّت نفسك بقهر إنسان أن تتواضع وتُعرض عن ذلك؛ إذ لا يستطيع أحد أن يكون هو نفسه قهاراً، لأن الله هو القهار جَلَّجَلَالُهُ واحد لا شريك له: ﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 39/ 4].

وعندما ترى ما للقهر من مظاهر في حياة البشر، تدرك أهمية التذكرة باللقاء الذي لا فرار منه يوم الحساب ووقوف العباد بين يدي الواحد القهار، وعندها لن يجرؤ أحد على قهر غيره من الخلق.

إياك والظن أن معنى القهر عند الخلق هو ذاته عند الله، فهو سبحانه عدل مقسط ولا يظلم أحداً، وفكرة الظلم منفية عنه جَلَّوَعَلَا وبشكل مطلق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: 10/ 44]، وهو رحيم رؤوف يقيناً وعلى الدوام، وإنما قهره سبحانه لمن يخالف أو يعارض إرادته ولكل ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق: 50/ 25].

واعلم أن القهار جَلَّجَلَالُهُ هو قدوس منزّه عن النقائص والعيوب وهو أحكم الحاكمين ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: 95/ 8]. وهو نفسه الرحمن والرحيم والرؤوف واللطيف وخاصة العدل سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ لذا لا تخف من قهر الخلق بل اجعل خوفك من الواحد القهار جَلَّجَلَالُهُ، لأن قهره سبحانه بتمكن تام ولأقصى حدٍّ لكلِّ ما يخالف أو يعارض إرادته: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 6/ 18].

وعليك بسنة نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فقد استعاذ من قهر الرجال بقوله: «أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» وهي إشارة منه لعظيم ذنب ـ خاصة ـ من يقهر الآخرين بذريعة مخالفة آرائهم أو وجهات نظرهم.



النفس تحتاج إلى تطهير بشكل دائم فهي مرآة للقلب. انظر في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[المطففين: 83/ 14].

ما دمت في الحياة الدنيا فلا بد لكَ من النظر إلى أحوال نفسك وعلاجها وكأنها شيء مستقل عنك، إذ لا مجال أن تنال رضا الله ما دامت نفسك قد علتها الذنوب وجعلت قلبك قاسياً من ذكر الله لأن ذلك من أخطر الأمور ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر: 39/ 22].

لتتعرف على أحوالك لاحظ هل تطرح بينك وبين نفسك أسئلة مثل: تُرى لماذا أعطى الله سبحانه فلاناً ولم يعطني؟ أو مثل: أين وضعي الآن من ذاك؟ ما هي قيمتي في أعين الناس؟

انظر في حالك هل يا تُرى تبحث عن تصفيق الناس وإطرائهم أم أنك تبحث عن رضا الله تعالى، لأن هذه الأمور وأمثالها عميقة في النفوس البشرية وهي ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ ولكي تتحرر من ذلك اجعل هدفك دائماً طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته، وكل شيء في نفسك يدور حول ذلك.

اسأل نفسك ما هي قيمتي عند الله سبحانه، وليس في أعين الناس، فقد علمنا نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ» [سنن الترمذي: 2338].

ابحث عن رضا الله واجعل خشيته سبحانه في قلبك، عسى أن تكون من الذين قال عنهم: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: 98/ 8].

عند تناولك للقرآن الكريم خاصة وفي كلّ ما يخطر على بالك، ينبغي ألا يغادر جلال الله قلبك وذهنك، ولتصل إلى ذلك ليكن الأدب مع الله جَلَّوَعَلَا وتقديرك لله حق قدره هو حالك الدائم.

وإياك ورفع الكلفة معه سبحانه لأن ذلك يوقعك في عتب طرد ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 6/ 6]، وتقدير الله حق قدره لا يكون إلا بالتعظيم والإجلال.

عند ذكرك لاسم الله، تجد نفسك بالخشوع والوجل والتعظيم تتبعه بقولك: جَلَّجَلَالُهُ، لذا ينبغي ألَّا يغادر عقلك ووجدانك عند ذكرك له سبحانه وخاصة عند تناولك للقرآن الكريم أن الله هو الجليل جَلَّجَلَالُهُ، لأن جلاله سبحانه كامل لا حدود له وبالكليَّة إلى أعماق الأعماق، وكلّ صفاته وأفعاله يغشاها ذاك الجلال و﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 55/ 78].

وإن كنت يوماً من الأيام ذاكراً مستغرقاً بمعاني وده ورحمته سبحانه وتعيش في أنوارها وبركتها، عندها ينبغي ألا يغيب عنك أن الله هو الجليل جَلَّجَلَالُهُ.

واعلم أنه بقربه سبحانه منك وأنت تذكره يجب أن لا يغيب جلاله وعظمته عن عقلك وقلبك أبداً، فكن دائم الأدب معه سبحانه في كل أحوالك، لأنك يوم القيامة إن أكرمك الله برؤية وجهه الكريم فستجد مدى عظمة الجليل جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وستجد هناك أن الله هو وحده المتَّصف بصفات الجلال والعظمة والكبرياء، المستحِقّ أن يُعرف بهذه الصفات.

ليكن قدوتك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي كان إِذَا أتم صلاته قَالَ:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [صحيح مسلم: 931].

عليك الانتباه لأي فكرة سلبية أو لا معنى لها، لأنها هدر للطاقة التي أعطاك إياها الله جَلَّجَلَالُهُ ما دُمتَ في هذه الحياة، هذه الطاقة الإلهية هي طبقات أعلاها وأهمها الذهنية، ومركزها الدماغ الذي جعل فيه سبحانه الحواس الخمس والعواطف والمشاعر والأحاسيس، وأي تلف يصيب الدماغ يفقد الإنسان حاسة معينة كالسمع أو البصر وغيرها، أو يؤدي إلى تغير المشاعر والأحاسيس، والأهم من ذلك أنك يوم القيامة مسؤول عنها ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 17/ 36].

الدماغ هو صلة الوصل بين العالمين المادي واللامادي، وهنا مسألة الطاقة التي منحها الله جَلَّوَعَلَا للإنسان تأخذ قواماً هاماً، لأنها المحرك لكل وظائف الدماغ، ومتى شاء سبحانه إيقافها تنتهي حياة الإنسان، لذا عليك استثمارها وتوظيفها بشكلها الأمثل.

أي فكرة تمر في ذهنك لا تتلاشى بل تأخذ مساراً معيناً ولا بد لها أن تعود ثانية، وكلما عادت واستغرقت فيها تزداد وتكبر، وكلما غذيتها من طاقة دماغك تدور وتعود بشكل أقوى من قبل، وبالتالي اهتمامك بالأفكار الرديئة يغذيها ويزيد من قوتها، وقد تسيطر على نفسك وتوصلك إلى أمراض نفسية أنت في غنى عنها.

الأفكار بشكل عام كلما أهملتها تتضاءل إلا أنها تعود ولكن بشكل أضعف، والعجيب فيها أنك مثلاً إن أعطيتها موعداً في يوم معين وساعة معينة عادت تماماً بنفس الموعد، وإن أقنعتها بالتلاشي تنتهي ولا تعود ثانية، لذا عليك توظيف هذه الطاقة الإلهية بشكل قوي وفعال من خلال التركيز وضبط وتنظيم تداعيات الأفكار التي تمر في ذهنك، وهنا يتجلى لك جانبٌ من حكمة الأوامر الإلهية، فالقاسم المشترك بين أغلبها هو تكرارها بنظام وبوقت معين ومثالها الصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: 4/ 103]، والصلاة في وقتها هو خير علاج لتوظيف وتنظيم طاقاتك الذهنية، لأنها منضبطة بوقت محدد وإيقاع معين فحافظ عليها.



إن قدر لك وكنت من الذين يرشدون الناس إلى طريق الله ويسعون في الدعوة إليه سبحانه، وأصبحت ذا مكانة عالية بينهم يُجِلُّكَ ويكرمك الناس فيها ، فتذكر أن ربك هو ذو الجلال والإكرام ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: 55/ 78] وتذكر عظمة الألوهية والتي لا تشكل فيها أنت والخليقة برمتها إلا جانباً من جوانب تجليات الذي خلقك جَلَّجَلَالُهُ، لأن من أخطر ما يعتري الدعاة إلى الله هو نسيانهم من يدْعونَ إليه سبحانه والالتفات إلى إجلال وإكرام الناس إليهم، وقد يصل بهم الأمر إلى تعظيم أنفسهم وظنهم أنهم أصبحوا الشغل الشاغل لله سبحانه لما يقدمونه من خير ونصح للخلق والعباد، متجاهلين أنه سبحانه أعلى وأجلّ من ذلك وأن الخلق معدوم وهو وحده حي قيوم : ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: 55/ 26-27].

ينبغي أن يكون حاضراً في ذهنك كلما توجهت إلى الله أنه سبحانه ليس الجليل فحسب بل هو: ذو الجلال والإكرام، وقل في نفسك دائماً: ما أعظم ذا الجلال والإكرام في ترفّعه وسموّه سبحانه وبعده عن الخسيس أو المحتقر أو الصغير من الأمور، واستحضر كلَّ معاني الجلال والرفعة والسمو اللازمة بحق الذي قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وإياك أن تُجِلَّ وتُعَظِّمَ نفسك وتتوهم أنك أصبحت محطَّ الأنظار الإلهية إن كنت من الدُّعاة إلى الله، أو حتى إن كنتَ مَلِكاً من ملوك الأرض وتظن أنك في مُلكك أصبحت ذا جلال ورفعة بذاك المُلك، وأصبح الناس يقولون لك: جلالة الملك! فتذكَّر الفارق الشاسع بين مُطلق ما ملكتَ وبين مالك المُلك جَلَّجَلَالُهُ، وتذكَّر أن المخلوق إن أوتيَ مُلكاً فهو لفترة وجيزة لا تتجاوز الحياة الدنيا، في حين أنه سبحانه غنيٌّ عن ذلك المُلك؛ بل هو الخالق الذي أوجده أصلاً.

عند توجهك لله بالسؤال أو الدعاء أو أي أمر آخر إياك أن تُجِلَّ وتعظِّمَ نفسك، بل توجه إلى ذي الجلال والإكرام، كما قال نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لرجل سمعه يقول: يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فقال: «قَدْ اسْتُجِيبَ لَكَ فَسَلْ» [سنن الترمذي: 3450]. وسمع رجلاً آخر يقول في دعائه: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [سنن الترمذي: 3467].



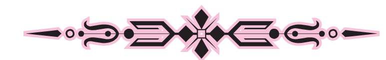
كم هناك من دعاة إلى آلهة وهمية عملهم في حقيقته الضلال والدجل، والأوهام والوعود الكاذبة لكل من يصغي إليهم، ودعوتهم لا تسمو بالنفوس والعقول، وإنما تغمس الناس في أنفسهم على عِلّاتها وأهوائها، فتغرقهم في الضلال والفساد، وترى مئات الملايين من الناس جهلاً وسذاجةً منهم يتوجهون إليهم بعواطفهم ومشاعرهم ظناً منهم أنهم سيحققون لهم السعادة، أو يعطونهم راحة نفسية، وقد يصل الأمر بهؤلاء الناس إلى الاعتقاد أن عند أولئك الدُّعاة القدرة على التصرف المطلق كأنهم إله.

أما دعاة الله وهم أنبياؤه ورسله فجل عملهم هو تزويد النفوس والعقول بكل ما يلزمها لسموها، وهم المعلم المخْلِص الذي يُحضِّر الناس نفسياً وعقلياً لامتحان مصيري، مزوداً إياهم بكل ما يحتاجونه من معلومات، هدفها إيقاظ تلك النفوس والعقول وإعطاؤها معلوماتٍ صحيحةً ودقيقةً عن حقيقة الأمور، وعلى مداها البعيد لذاك الامتحان المصيري في العالم الآخر.

شأن أنبياء الله ورسله، شأن المعلِّم الجامعي المخلص الذي يحضِّر الطلَّاب نفسياً وعقلياً لامتحان مصيري، مزوداً إياهم بكلِّ ما يحتاجونه من معلومات. وعمل هؤلاء الطلاب هو الجد في العمل وتحمل المسؤولية كاملة واغتنام تلك الفرصة الذهبية.

ومن هؤلاء الأنبياء، نبينا الذي بعثه الله بشيراً ونذيراً،﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [البقرة: 2/ 119] فهو مثل نبع عذبٍ صافٍ ماؤه غيثٌ من عند الله جَلَّ وَعَلَا. فاغتنم فرصتك الذهبية وهي حياتك الدنيا، وانهل من هذا النبع العذب الصافي الذي قال عنه من أرسله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: 21/ 107] .

اجعل عواطفك عميقة ومستمرة وقوية ووجها كلها إلى هذا النبي فهو المكان اللائق بها، واجعل صلتك به دائمة، فقد علمنا أن الصلة به ليست صلة نسب فقط، بل صلة انتماء حين قال: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ» [رواه الحاكم، والطبراني]. وتذكر أن صلتك به صلوات الله عليه تجعلك على صلة روحية بكل أنبياء الله ورسله لأنه﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 33/ 40].



إن كنت في مكان تحكم فيه بين الناس فليس من الصعب أن تطبق حكماً له نص واضح، أما أن تضع أنت نص ذلك الحكم وتسن القوانين، فهذا ليس بالأمر السهل لأنه يترتب على ذلك النص محاسبة الناس والحكم عليهم بالعدل، ولتحقق أنت ذلك اجعل دليلك في حكمك النص الإلهي الذي جاء فيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: 4/ 105] ، لأنك ستجد فيه أن مواد حكمه سبحانه متطابقة وبشكل دقيق مناسب بلا زيادة ولا نقصان، وآياته كلّ منها مطابق لمكانه لا تخلخل بينها ولا خلل فيما بينها؛ أي أن كلّ آية متناسبة مع ما قبلها وما بعدها، ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده. ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: 13/ 41].

حتى تحقق العدالة في حكمك على الناس وتكون من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: 4/ 58] اجعل الحَكَم جَلَّجَلَالُهُ هو المرجع في كل أحكامك فهو أحكم الحاكمين وحكمه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بقدر الاحتياج وبتناسب وتطابق تام لا زيادة ولا نقصان ولا خلل فيه، ومطابق تماماً للأمر الذي يحكم به، وهو القادر سبحانه أن يصدر أحكامه، ويعرف أبعاد ونتائج هذه الأحكام مع مرور الزمن، لمعرفته التامة ببداية أي أمر ونهايته ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 57/ 3]، لأن تمام الحكم والحكمة والإحكام لا يكون إلا بمعرفة البدايات والغايات، فالله الأول والآخر هو حقاً: ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: 11/ 45].

إن كنت على سنة نبينا الذي قال: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» [سنن النسائي: 5292]. وكان الحَكَمُ جَلَّجَلَالُهُ مرجعك في حكمك، فلن يكون للشيطان عليك سبيل في حكمك لأنه تعالى قال: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: 22/ 52].



حين تسلم على أي شخص بقولك: (السلام عليكم) اعتبر سلامك له فعلياً، واقصد أن يكون السلام بينك وبينه حقيقياً لأن السلام هو عدم وجود أضداد، أي قوة عكس الأخرى، أي أن تكون قواك وقوى من تسلم عليه تسير باتجاه واحد، وعندها يجعل سبحانه محبة بينك وبين من تسلم عليه وهذا ما دلنا عليه نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟! أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» [صحيح مسلم: 81]، ثم في كل صلاة حين تقول في التشهد: (السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ) اعتبرها سلاماً فعلياً لسيدنا النبي ﷺ الذي قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلام» [سنن أبي داود: 1745]، وحين تتابع في تشهد صلاتك وتقول: (السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ) انوِ بها أن لا يكون بينك وبين عباد الله كلهم أي تضاد أو قوى معاكسة، واعتبر هذا السلام كأنه دائرة صغيرة أنت تقف فيها وهذه الدائرة تلتقي مع دوائر من أناس يطلبون الشيء نفسه، ثم تلتقي بدوائر أخرى وهكذا لتجتمع مع دائرة أوسع وأشمل، دائرة النفس الواحدة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: 39/ 6]، لذا احرص على صلاة الجماعة لأنها فرصة يجتمع فيها المصلون ضمن نظام واحد، يتوجهون بصدق للخالق جَلَّ وَعَلَا بقولهم: (التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ)، وكم في تلك التحية من خير يكفي ليوصله الله جَلَّ جَلَالُهُ إلى أبعد وأوسع دوائر البشرية، سلام حقيقي لا صراع فيه ولا تجاذب بين بني البشر بل الكل في جهة واحدة لا تمزق بينهم، وقد لخص وبَيَّنَ كل ذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ للهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [صحيح البخاري: 788]، إن نويت وقصدت كل ذلك في سلامك العابر على الآخرين أو سلامك في صلاتك فأنت الرابح لأن الأصل دائماً: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» [صحيح البخاري: 1].



هناك من يدَّعي الإيمان بالله ومن باب الحرص على إيمانه والتمسك به يطرح أسئلة مثل: كيف يحاسب الله الناس الذين لم تصلهم الهداية، أو كيف يحاسب الله الناس على ذنوبهم وهو يعلم أنهم سيذنبون، أو ماذا سيفعل الله بالأمم الغابرة أو... وفحوى كل هذه الأسئلة وأمثالها بأن الذي يطرحها يتصور نفسه مكان الله سبحانه، والناس أمامه يريد حسابهم، ولا يستطيع بعقله الراجح وذكائه الخارق أن يحقق العدالة بينهم، فيتساءل كيف يستطيع سبحانه ذلك؟!

إياك أن تتجرأ على الله جَلَّوَعَلَا وتفعل ذلك، لأن جواب كل هذه الأسئلة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾ [يونس: 10/ 44]، ويستحيل بحق الله الظلم لأنه العدل جَلَّجَلَالُهُ الذي يحكم ويعدل بحكمه بالمساواة بين جميع خلقه بنفس الطريقة وبنفس القدر من العدالة والمساواة بينهم.

صفة العدالة عنده سبحانه متأصلة غير متكلفة أو متقطعة، بل دائمة متواصلة وحاضرة ظاهرة غالبة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: 3/ 108].

كن على يقين أن الله هو العدل جَلَّجَلَالُهُ، وهو الذي وضع قوانين العدالة بين البشر جميعاً وأمر بها سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: 16/ 90]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: 4/ 58]، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا وأمر بالعدل فيه وجعل ذلك دليلاً من دلائل التقوى ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: 5/ 8].

الأوامر الإلهية برمتها هي كي ينعم البشر بالسعادة على هذه الأرض، إذ لا سعادة بدون عدالة وهذا قرار من الله العدل جَلَّجَلَالُهُ ولا بديل غيره: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: 6/ 115].



الله العليم الحكيم جَلَّوَعَلَا هو الذي خلق الشيطان فيمن خلق، فهو أدرى به وبغيره وبما يكون منه ومن غيره لذا حذرنا منه، وتكرَّم فضلاً منه إذ جعل في كتابه المنزَّل الأخير معلوماتٍ استثنائية عن الشيطان، لا أثر لها في أي مرجع آخر وأعلمنا إياها من خلال ذلك الحوار الذي جرى عند أمْرِهِ سبحانه الملائكة بالسجود لآدم يوم خلقه حيث قال سبحانه مخاطباً إبليس: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: 38/ 75]، وكان جواب إبليس على السؤال الإلهي مبرراً عدم سجوده لآدم ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: 38/ 76].

إن تفكرت بنور من الله في هذا الجواب المعبِّر تجد أن محوره: ﴿أَنَا۠﴾، ويتبين لك كيف ضل الشيطان عندما صارت المرجعية في محاكمة الأمور هي نفسه بما يوافقها، وبذلك انقطع عن نور المرجعية الإلهية، فضلّ ضلالاً بعيداً.

الشيطان نفسٌ من أنفس الثقلين، وقد أخبرنا سبحانه أن: ﴿إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: 18/ 50]، فما أسهل انتقال عدوى عيوبه وسمومه إلى نفوس الثقلين من الإنس والجن من خلال عيوب النفس واستعدادها لـ ﴿أَنَا۠﴾، وهذا في الحقيقة هو مدخله إلى نفوس الخلق كلهم، وجَعْلِها تقع بما وقع به هو من ضلال، وقد وعد بذلك ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: 15/ 39].

إياك أن تطغى الـ «أَنَا۠» على وعيك لأنك سوف تنقطع عن حقيقةِ وعظمةِ المرجعية الإلهية، وستغرق بشكل مُهلِكٍ في ضيق وقصور مرجعيتك الذاتية، وباب الأهواء والأوهام في نفسك سيفتحُ على مصراعيه، ولخطورة ذلك كله بيَّن الله جَلَّجَلَالُهُ أن العدو الحقيقي لك هو الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: 35/ 6] وحذَّرك مما يدعو إليه لأنه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: 35/ 6].

وهل هناك عاقل يرضى أن يكون من ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟



إن عجزت عن إدراك ومعرفة ما كان وما يكون، ما سبق وما لحق، إياك أن تثور أو تقنط أو تعترض أو تيأس، بل تأكد بأن الله تعالى هو الحكيم جَلَّجَلَالُهُ، الذي حُكْمُهُ على عباده سبحانه يكون بحِكْمَةٍ، وهذه الحكمة تتطلب علماً و﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 12/ 100]، وتتطلب معرفة البدايات والغايات، والله سبحانه وحده أدرى وأعلم بها، لأنه الأول والآخر والباقي بعد فناء الموجودات: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 55/ 26-27]، ولأنه الحكيم جَلَّجَلَالُهُ فهو أدرى بنهاية وغاية أي أمر، وهو من يضع حدّاً لكلّ شيء لعلمه بأصل الموجودات والأمور، فهو الخالق الواجد الذي أوجدها أصلاً وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 2/ 209].

تذكر أنه محال في حق الله أن يوجد عبثاً بلا سبب، وقد منَّ علينا سبحانه إذ نفى صراحة العبثية عن أفعاله بعبارة اللعب ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الأنبياء: 21/ 16]، فعندما يخلق ويوجد فإنما لهدف أو غاية أو بعبارة أدق لحكمة! والحكيم جَلَّجَلَالُهُ حكمته تتجلى بإعطاء الشيء أو المسألة أو الأمر القدر اللازم والكافي بلا زيادة فيه ولا نقصان، ومعرفة أصله وسببه، كما يقتضي معرفة نهايته وغايته حتى يكون التطابق محكماً؛ لذا اطمئن لحُكم وحِكْمَة مَن هو أصلاً منزه عن القَبْلِيَّة والبَعْدِيَّة، بل هو سبحانه يتحكم بهما فهو مَن أوجدهما، ومَنْ غير الحكيم جَلَّجَلَالُهُ الذي من صفاته الكمال قادر على ذلك..

تذكر ما حدث مع نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين لقائه بسيدنا الخضر وكيف تعلم منه أن على الإنسان ألا يعترض قبل معرفة الحكمة لما يحدث معه، والقصة برمتها هي رسالة من الله سبحانه أنهاها سيدنا الخضر بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: 18/ 82]، وليرى نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن كل ما عمله سيدنا الخضر هو عبارة عن أوامر جاءته ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 11/ 1]، من الذي بقدرته سبحانه يطابق أي حدث حتى غايته، ولا أحد أدرى بالغايات لكل ما حدث معهما ولكل ما يحدث في هذا الكون إلا الله الحكيم جَلَّجَلَالُهُ، الذي لا أحد أكمل منه؟ لا بل لا حكيم حقّاً إلا هو.



ما أسهل أن تعترض على أمر مُنْكِراً له فالاعتراض لا يتطلب منك الكثير من الذكاء، إذ يكفي ألا تتوافق قناعاتك، مهما كان مستواها، مع ما هو مطروح عليك، كي تعترض، وفي وقتنا هذا تجد أن المخطئين المعترضين في أي مجال كان، هم الأغلبية، وما أقل نسبة العاقلين المنصفين، وإن كان ذلك في أمور الحياة اليومية ومع نتاج بشري فالأمر أهون، أما عندما يكون الاعتراض على أمور مصيرية فالأمر غاية في الخطورة.

انظر في قصة سيدنا نوح مع قومه وما آلو إليه من هلاك عندما: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 11/ 32]، فقد كانوا حين يأتيهم سيدنا نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويطرح عليهم ما فيه خير لهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: 71/ 7]، لم يقفوا أمام ما هو مطروح عليهم من بينات تتعلق بمصيرهم الأبدي، بل أنكروا تلك البينات قبل أن تكتمل عندهم الصورة لأهمية تلك البينات، ولم يكن لديهم الوعي بخطورة أخطائهم في اعتراضهم على نبيهم فكانت نتيجة ﴿خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: 71/ 25]؛ لذا عليك بدوام الوعي والتريث وعدم التسرع في الحكم سلباً أو خطأً عندما يعرض عليك أي أمر، خاصة إن كنت تبحث في كتاب الله جَلَّجَلَالُهُ، لأنه نص إلهي في حرفية كلماته ورموزه وإشاراته ومواضيعه، وخاصةً مع آفاقه وحقيقته، وهذا النص الإلهي يحتاج منك إلى التدرّج في التعرّف عليه، ونقلة نوعية عند تعاملك معه، ليتناسب مع عظمة فعل وإرادة الخالق الذي أنزله.

الانتقال إلى آلية تفكير مناسبة لكلامه سبحانه هي بمثابة فرصة استثنائية لك، ليتداول عقلك فكراً صادراً عن الذي خلقه وخلق آلية تفكيره، وهو جَلَّجَلَالُهُ أدرى بالأسلوب المناسب لمخاطبة ذاك العقل، وهذا ما جعله سبحانه في كتابه الكريم.



إن وجدت نفسك يوماً من الأيام بمكان أنت الآمر فيه بإعطاء الناس حقوقهم وما يستحقون، تدرك صعوبة تحقيق ذلك بالدقة التامة المطلقة، وتجد نفسك كمخلوق مهما فعلت فلن تكون نتيجة حكم عطائك إلا تقريبية.

أمر الوصول إلى العطاء بالقسط وبتمامه وكماله هو أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله المقسط جَلَّجَلَالُهُ، الذي بقدرته يحقق يوم الحساب الدقة المطلقة في محاسبة خلقه، مع العدل والإنصاف لكل منهم في مقدار العطاء الممنوح له، وكذلك في وجهة ونوع ذلك العطاء مع العدالة والحياد في كل ذلك.

المقسط جَلَّجَلَالُهُ عدلهُ وإنصافهُ ودقةُ حسابه للخلق تصل إلى مثقال حبة الخردل ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 21/ 47].

تَفَكُّرِكَ جيداً بيوم الحساب وأن الله سبحانه هو المقسط في ذاك اليوم يدفعك إلى الشعور بالمسؤولية تجاه جميع أفعالك، مع حسن اختيارك عند القيام بأي عمل تحسُّباً لما في ذاك العمل من تبعات تجدها يوم الحساب، وكن صابراً مطمئناً إن لم يوفَّى إليك حقك في الدنيا، لأنه سوف يوفَّى لك في الآخرة بالتمام والكمال، ولن ينقص منه شيء لأنك لن تحاسب أمام قاضٍ قد يخطئ أو يظلم، وإنما أمام المقسط جَلَّجَلَالُهُ. فكن مطمئناً مهما كابدت من ظلم في الدنيا، وبذات الوقت إياك أن تظلم أحداً.

اعمل من الصالحات ما استطعت لأنك ستجازى عليها بكل دقة من المقسط جَلَّجَلَالُهُ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: 10/ 4]، ونتيجة عملك للصالحات تجعلك إنساناً ملتزماً بمبادئ صحيحة ما أبعدك عن المستهتر الذي لا يأبه لتبعات أعماله.

وسَلِ الله أن تكون من أُمة رسولنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عسى أن يشملك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 10/ 47].

انتبه لأي تعبير سلبي تقوله لأنه يكشف عيوب وسلبية نفسك وأعماقك، والأهم من ذلك هو أيُّ تعبير سلبي تسمعه لأنه لا بد أن يؤثِّر فيك سلباً، ويبقى بأعماقك وهيهات أن تتخلص منه، وهذه الفكرة سماها سبحانه باللغو، ووصف من يعرض عنها بالفلاح، وجعلها من الصفات الأساسية للمؤمنين ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 23/ 1-3].

اللغو هو كل تعبير لا يتَّصف بالصحة أو الدقة، وكذلك ما لا حاجة لك به، وحتى ما لا داعي له مما هو مفروغ منه، أو مما لا يقدم ولا يؤخِّر لك شيئاً.

وإن كان اللغو، قد ذمه الله جَلَّجَلَالُهُ، فما أخطر أشكال التعبير السلبية، من السوقي إلى الجارح ومن الافتراء والنميمة إلى الكذب والتضليل! وإياك أن تقع في ذلك كله.

أنت مسؤول عن أيّ كلمة تقولها وعليك أن تعي ما تقول، وكذلك وقعَ وعواقبَ ما تقول، حتى ولو كنت مازحاً، فقد قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحَةِ وَيَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ صَادِقاً» [مسند أحمد: 8276].

ولقد كان نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قدوة في دقّة وإيجاز وفصاحة وأناقة التعبير، وحذَّرَ من عواقب الكلام بقوله: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» [صحيح البخاري: 5997]، وهذه التعاليم النبوية ليست كبتاً للعفوية والبساطة التي تعيشها، بل هي دستور لحياة راقية تنعم فيها بالراحة والأمان، وتقودك بشكلٍ عفويّ إلى ضبط كل الحركات والأفعال والتصرفات إلى أقصى ما يكون بما يليق بكائنٍ راقٍ يباهي الله به ملائكته.

اجعل كلامك وتعابيرك طيبة ذكية، فهي سهلة لمن اعتادها ونشأ منذ الطفولة الأولى عليها، فقد قال سبحانه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 35/ 10].



إياك أن تُخْدَع بأيّ مظهر من مظاهر القوة، ولا تأبه ولا تخَف منها أبداً، لأن الله هو القوي جَلَّجَلَالُهُ ولا قوي حقاً ومطلقاً إلا الله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 18/ 39]، والأَوْلَى أن تخاف منه سبحانه لا أن تخاف من أي قوةٍ كانت.

﴿لَا قُوَّةَ﴾: ليست ضعفاً ولا تخاذلاً بل تبرؤٌ من الادّعاء بأي قوة عندك، واعتراف بأن القوة هي من الله، ولا قوي حقّاً ومطلقاً إلا هو، والقوة به ومنه، وكلّ ما يبدو لك قوياً ما هو إلا بدفع وتحريض وهيمنة من القوي جَلَّجَلَالُهُ، فكما تسري قوته فيما أوجده فهو يعدم الموجود ويسحب منه قوته، لذا اجعل أحد أسس تفكيرك قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 18/ 39].

انظر كيف توهّم الكثيرون وادّعوا آلهة من دون الله تمنحهم القوة، وهي مستقلة عن الله تعالى، وغاب عنهم أنه تعالى هو القوي جَلَّجَلَالُهُ وأن لا قوة من دون الله ومن غير الله، فكما أنه لا نقاش في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد: 47/ 19] يستدل بالقياس والتطابق التام وبلا نقاش أنه ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، ويذكّرك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: 57/ 25] وتحققك من ذلك يوصلك إلى عز قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: 63/ 8] .

كُنْ على سُنَّة نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقد أوصانا إذا أحدنا خرج من بيته أن يقول: «بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، وحصيلة هذه الوصية لمن قالها أنه «يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ» [سنن الترمذي: 3348].

وقد أوصى بها أحد أصحابه قائلاً: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»؟ فقال الصحابي: بلى، فأمره نبينا أن يقول: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» [صحيح مسلم: 4875].

وكانت وصية سيدنا إبراهيم لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلة أسري به أن يأمر أمته أن يكثروا من غراس الجنة، وغراس الجنة «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» [مسند أحمد 22450].



الأنفس البشرية في الحقيقة لا تنتمي إلى عالم المادة، لذا فهي تتصل ببعضها بدرجات مختلفة من حيث تدري أولا تدري، وهذا ما تراه في قوله سبحانه:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 4/ 1]، وقد عبر عنها نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلاً: «النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» [سنن الترمذي: 3891].

إن كان الله جَلَّجَلَالُهُ خلق الناس من نفس واحدة وفتح لها باب الاتصال فيما بينها، فما أشرف وأكرم إن وفقت بالاتصال بالنفس الشريفة لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، خاصةً أنه مُرسَل كافة للناس: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سبأ: 34/ 28]، وهذا الاتصال هو اتصالٌ بالذي هو رحمة للعالمين﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 21/ 107]؛ لأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جعله الله جَلَّجَلَالُهُ ملتقى صلوات الله وملائكته بصلوات المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 33/ 56] فما أجمل وأروع ذلك الملتقى.

خير طريق يوصلك بأمان إلى الله جَلَّجَلَالُهُ هو أن تكون من﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف: 7/ 157]، أي النقيّ الذي لم تتعرض نفسه لظلمات الكذب والتحريف، والذي هو على خُلُق عظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 68/ 4]، والذي كان على النهج الحنيف لجده الأكبر إبراهيم الخليل، نفساً صافية نزل عليها الروح الأمين بالوحي، لتكون نفسُه الشريفة أول نفس من أنفس الناس تتفاعل مع القرآن الكريم وتتمثله بالكلية، ويسري فيها نوره، وينتقل بالنفس الواحدة ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[النساء: 4/ 1] إلى كل من يتوق إلى الحق، كما ينتقل القَبَس. وفتح لك الطريق لتأخذ من ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: 7/ 157] وعندها ستلتقي مع صلوات الله وملائكته مع نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

مهما كنت قوياً بغِنَاكَ ومَالِكَ وصِحَّتِكَ، أو كنت ذا سُلْطَةٍ ومكانةٍ قويةٍ تسيطر بها على الآخرين، فلا تغترَّ بقوتك، فأنت مخلوق وإن وصفت بوقتٍ ما في حياتك بأنك ذو قوة وسلطان، فإن قوتك متناهية لأنها بدأت من ضعف وآيلة إلى ضعف وإلى تلاشي وفناء: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[الروم: 30/ 54].

رزقكَ أنتَ وكل الخَلْق بين يدي الله القوي المتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 51/ 58]، والمتين جَلَّجَلَالُهُ هو الذي قوته سبحانه ثابتة مستمرة بشكل مطلق وغير متبدلة، قوة فاعلة بحدّ ذاتها ظاهرة عُليا مسيطرة سيطرة مطلقة لا تعلو عليها أي قوة؛ قوة بالغة الشدة لا نهاية لها، قوة ثابتة مستمرة ممتدة في أي مكان أو زمان شديدة في عزمها وتماسكها، قوة لا تزيد ولا تنقطع ولا يستولي عليها العجز في حال من الأحوال.

المتين جَلَّجَلَالُهُ هو من لا يلحقه في أَفعاله مشقة ولا كُلْفةٌ ولا تَعَبٌ، وقد أخبرنا بذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: 50/ 38] وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾[الأحقاف: 46/ 33].

انظر إلى قوم عاد كيف كان هلاكهم ونهايتهم حين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ لأَنَهُم لَمْ يَرَوْا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت: 41/ 15]، وأنه جَلَّجَلَالُهُ هو وحده: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

إن آتاكَ اللهُ قوةً فاعلم أنها مؤقتة ولزمن محدد، وهي متغيرة متبدلة وليست ثابتة، ولحُسن استغلالها كن على هدي نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسَخِّر كلَّ قواك كما قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» [صحيح مسلم: 4816] تكن من الفائزين في الدنيا ولآخرة.



الصدق مع الله جَلَّجَلَالُهُ هو الأصل في كل شيء، وإن كنت صادقاً معه، ذاكراً له، لا يغيب عقلك ووجدانك عنه سبحانه، فلن تغيب عنك الحقيقة أبداً.

الصدق هو الذي يجند طاقاتك النفسية والوجدانية والعقلية بالكلية، ويفسح لك المجال للتواصل مع الحقيقة، وبهذا التواصل تكون قد انسجمت خفايا نفسك ووجدانك مع عقلك، وتضاعفت إمكانيات نجاحك للوصول إلى الحقيقة أضعافاً مضاعفة، وبالصدق لا تتبدَّد طاقاتك بل تتوحد باتجاه واحد لتصل إلى أصل الحقيقة، إلى الحق جَلَّجَلَالُهُ.

إن كنت صادقاً مع نفسك، أي إن قلبك لم يتلفه الادّعاء والكبر والغرور والذنوب والكذب خاصة، فسوف تميّز بجلاءٍ بين سعادةِ نورانية الصدق، وبين تعاسةِ شقاوة ظلمة الغش والكذب، وبين أنس نور الحقيقة ووحشة ظلام البُعد والضلال والوهم، وكلما كنت صادقاً مع الله ومع نفسك، كانت هذه القدرة على التمييز أقوى، لأن أهم شيء في الوجود أن تصل إلى مرضاة الله جَلَّجَلَالُهُ، ورضاه هو السبيل للنجاة يوم القيامة، فقد وعد سبحانه ذلك للصادقين من عباده﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [المائدة: 5/ 119].

لتنال رضاه سبحانه كن صادقاً في كل عمل تعمله، واجعل كل ما يجول في نفسك وفكرك، هو شعورك الدائم أنه سبحانه مهيمن على كل شيء وهيمنته جَلَّجَلَالُهُ فوق أي عمل تعمله.

اسألِ الله سبحانه بصدق أن يكون هو الأول في قلبك وحضوره دائماً فيه، وهو وحده لا شريك له أكبر وأحب شيءٍ إليك.

توجه إلى الله جَلَّوَعَلَا بدعاء سيدنا داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ». وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الذي نقل لنا هذا الدعاء إِذَا ذَكَرَ سيدنا دَاوُدَ يُحَدِّثُ عَنْهُ قَائلاً: «كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ» [سنن الترمذي: 3412].



تأمل في آلاء الله وفي قدرته سبحانه في الأكوان والموجودات، ثم عد من هذا التأمل لنفسك ولمجتمعك وقلبك متأجج تعظيماً لمظاهر الألوهية، تجد نفسك وعقلك منطلقين في آفاق لا نهاية عظمة القادر جَلَّجَلَالُهُ وأنه ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: 6/ 65] وحده، الذي بقدرته تسري إرادته وقوته في خَلْقِهِ سبحانه بالقدر المناسب اللازم والكافي لكلِّ شيءٍ خلقه من غير إفراط ولا تفريط، وبمعرفة دقيقة لكلّ ما تسري عليه تلك القدرة، وإن جازت العبارة ذكاء وعلم في توظيف القوة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 77/ 23] لأن كل شيء في هذا الكون تحكمه الطاقة، وهذه الطاقة بقدرة القادر جَلَّجَلَالُهُ مطابقة لإرادته ولعلمه وحكمته، يوجهها كيف ومتى شاء بمبادرة مستقلة منه؛ أي أنه هو سبحانه الذي يبادر ويفعل من غير أن يدفعه إلى ذلك شيءٌ، بالاستقلال التام، وهذه القوة لا يؤثر فيها أحد غيره سبحانه، فهو العليم بكل مخلوق أوجده وبحاجته من القوة وجعل تلك القوة مناسبة تماماً له، ولا عجب إذ إنه هو الخالق جَلَّوَعَلَا الذي أوجد كل شيء من العدم.

قدرة القادر جَلَّجَلَالُهُ تتجلى بما يتطلبه أي مخلوق من حاجته للقدرة معرفة دقيقة، وبعلمٍ تام وإدراكٍ مطلق لخصائص ذاك المخلوق، وهو سبحانه أدرى به لأنه هو الذي خلقه وأبقى عليه وقادر أن يخلق مثله ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: 36/ 81].

عندما تدرك تمام الإدراك أن لا عبثية في خلقه جَلَّوَعَلَا بل غاية محكمة هو أدرى بها، هل تستوقف صغائر أمور البشر وتفاهتهم عقلك، أم ينطلق في آفاق الذي أوجد فيما أوجد الماء من العدم، وبقوة منه أنزله من السماء وهو القادر جَلَّجَلَالُهُ على أن يبقيه أو أن يذهب به حيث يشاء ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: 23/ 18].



إياك أن تخطئ بين مفهوم القدر وسابق علم الله جَلَّجَلَالُهُ، لأن ذلك استدراج من الشيطان يوصلك إلى تبرير أي معصية تقع فيها.

القدر هو ضبط لكلّ شيء ضمن نظام كلي وضعه الله الذي أوجد الخليقة كلها من العدم والذي قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 54/ 49]؛ أي أن القَدَرَ: هو تحديد المقادير كمّاً وزماناً لكل حدث يحدث في هذا الكون، وهو ضبط لجملة الاحتمالات الناتجة عن أي فعل، وضبط لسلسلة الأحداث الناتجة واللاحقة لذاك الفعل، ووضعها كلها ضمن نظام كلي كوني.

الإنسان هو أحد العناصر الموجودة ضمن النظام الكوني، فلا بد من تقديرِ وضبطِ كل ما يتعلق به، كما هو الحال بالنسبة لغيره، لأن الإنسان ليس معزولاً عن الخليقة في فقاعة مخصصة له، بل هو مع غيره من الخلق في علاقةِ تفاعلٍ وثيقةٍ ضمن حيِّز الزمن، وهو يتقدم في سيره عبر الزمن بقوانين مضبوطة دقيقة ضمن النظام الكليّ لمن خلق السماوات والأرض حيث لا زيادة ولا نقصان فيما خلق، ولا تقطّع أو تفتُّت في خلقه سبحانه؛ بل ترابط وتواصل بتوازنٍ وتكامل: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 67/ 3] فالقدر، إذاً، ليس محصوراً بالإنسان، بل يشمل الخلق كله. ويمكن النظر إليه من خلال رؤية حديثة بأنه تحديد وضبط للطاقة وتجلياتها في المادة و«اللامادة» ضمن الزمن، ولا يقدر على ذلك، إلا الذي قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 15/ 21] بذلك، فإن الذي يدعي أن (إتيان المعصية والفسق والجور والظلم قدرٌ محتم) ما هو إلا مغالطةٌ تقوم على عدم التمييز بين سبق علم الله وبين القدر، والسؤال: كيف «يُقدِّر» الله جَلَّجَلَالُهُ إتيان المعصية والمعصية هي معارضة للنظام الكوني، في حين أنّ القَدَرَ جعله سبحانه ضبطاً لكلِّ شيءٍ ضمن ذاك النظام؟



اعلمْ أنه من أعجب الكتب التي مرت في تاريخ البشر هو كتاب الله سبحانه، وهو نصٌّ إلهي تلقاه نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من لدن الله الحكيم العليم ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل: 27/ 6]، وقد وصفه الذي أُنزِل عليه هذا الكتاب صلوات الله عليه بأنه: «لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ» [سنن الترمذي: 2831]، ومن عجائبه أنه كتاب محكم لا مجال فيه لنقص أو زيادة أو إفراط أو حشو، كلُّ ما وردَ فيه لا بدَّ منه ولا غنى عنه، وآياته برمتها لها ذات الأهمية لا تفاضل بين آية وأخرى، ولا يوجد أي تباينٍ أو فروقٍ في مستوى ذلك النص الإلهي.

فإن أكرمك الله وشرفك بأن تبحث وتتفكر بالقرآن الكريم، فكن على يقين أن لا مرادفات في كلامه سبحانه، وكل كلمة هي في مكانها تماماً، لا يمكن أن تنوب عنها كلمة أخرى، ومثال ذلك أنه جَلَّ وَعَلَا وصف نفسه بأنه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾[الروم: 30/ 54] وأنه ﴿ٱلْقَادِرُ﴾[الأنعام: 6/ 65] وبأنه ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 54/ 55] فإن جعلت بحثك لهذه المعاني الإلهية وتتبعك لفهم هذه الكلمات من خلال القرآن الكريم ذاته، فإنك ستجد أن قدرة الله هي المشتركة بين هذه الصفات الإلهية الثلاث، ولكن ميزها عن بعضها بأن:

صفة القدير سبحانه تشير إلى أن قدرته بحدّها الأقصى ظاهراً وباطناً بلا اختلاف.

أما صفة القادر جَلَّ وَعَلَا فإنها تشير إلى أن قدرة الله هي مطابقة لإرادته ولعلمه وحكمته، يوجهها كيف ومتى شاء بمبادرة مستقلة منه لا يؤثر فيها شيء.

وأن صفة المقتدر جَلَّ جَلَالُهُ تشير بجلاء للقدرة الإلهية من خلال سريان هذه القدرة واستمرارها بلا انقطاع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف: 18/ 45].

وأخيراً ستجد الدقة والإحكام في هذا الكتاب العزيز الذي قال منزله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: 54/ 54-55]، اسعَ واجتهد أن تكون من المتقين عسى أن تحظى بوعد المليك المقتدر جَلَّ جَلَالُهُ.

إياك أن يتبادر إلى ذهنك أنه ربما كان هناك تفاوت في آيات القرآن الكريم أو تفضيل بين موضوع وآخر، فقد أشكلت هذه الفكرة على البعض وظنوا أن قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: 39/ 55] هو المقصد منه أن تختار الأفضل والأحسن مما أنزل سبحانه وتتبعه.

لا تفاوت أبداً في الجودة ولا تباين ولا تفضيل ولا حاجة للاصطفائية في كلام الله جَلَّجَلَالُهُ. بل هو اختزال قرآني أنيق تجده كالنور الساطع في كلمة (أَحۡسَنَ): والمقصد منه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ﴾ (ما يمكن أن يصل إليه الفهم والتدبُّر من) ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾؛ لذا فقد تكرّم سبحانه عليك إن أشكلت كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾ في: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ..﴾، ويسَّر لك الضمانة على عدم تفاوت مستويات الجودة في النص القرآني الشريف، في سورة الزمر نفسها وبإيراد الكلمة ذاتها عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا ...﴾ [الزمر: 39/ 23] وجليٌّ أن كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾ في هذه الآية الكريمة تشمل سائر النص القرآني الشريف.

لا بد لك من السعي وبذل الحد الأقصى من الذكاء والنباهة كي تفهم القرآن الكريم، لأنه سبحانه لا يريد الوهْنَ لعقل قارئه، بل يريد رفع لياقات عقل قارئه إلى تفكير صحيح، وإلى التحرُّك في نور النص القرآني تدبُّراً، خاصة أنه جَلَّوَعَلَا قال في نفس سورة الزمر: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: 39/ 18]، وكم هي لياقات عقلية استثنائيّة عندما تكون من: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ومن أولئك الذين هم: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

لا محال أن الله تعالى يقود خلقه إلى يوم القيامة والحساب، وهناك ترى كيف أنه سبحانه كان الرقيب جَلَّجَلَالُهُ على كل لحظة زمن كنت فيها، وأنت مُراقَب ومكلف، لذا سبحانه، يحاسبك يوم الحساب على كلّ صغيرة وكبيرة ومثقال ذرة من خير أو شر.

الله تعالى في مراقبة دائمة ومتابعة مستمرة لأي عمل تعمله ومع مرور الزمن من غير تدخل آني، لذا لا تعجب كيف ترك الظالمين في الحياة الدنيا لظلمهم بل أخرهم ليوم الحساب: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: 14/ 42].

الله هو الرقيب جَلَّجَلَالُهُ على كل خلقه، وعلى علم وملاحظة ما يجري بشكل متواصل وبدون انقطاع مع مرور الزمن من الإيجاد إلى يوم الحساب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: 4/ 1].

الرقيب جَلَّجَلَالُهُ هو الذي لا يغيب ولا يخفى عنه أيّ شيء، أو أي أمر، مع الإحاطة التامة، والمعرفة النافذة لكل أمر وشيء، يتابع كلّ صغيرة وكبيرة بشكل متواصل وعلى الدوام بلا أي انقطاع، ومتابعته ليست متابعة شاهد حيادي بل متابعة مهيمن جَلَّوَعَلَا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[الأحزاب: 33/ 52].

إياك والغفلة عن الله سبحانه فهو ليس الرقيب جَلَّجَلَالُهُ عليك فحسب، بل هو بذات الوقت وَكَّل بك ملائكة كالرقيب والعتيد ليكتبا كل صغيرة وكبيرة تعملها ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 50/ 18]. وأرهب شيء تراه يوم الحساب هم البشر الذين ظنوا وجال في أذهانهم بأن الإله الخالق من عظمته وكرم مقامه أبعد من أن يهتم بشؤون أهل الأرض، ستجدهم يقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 18/ 49].



في كتاب الله تعالى آية اجعلها من أساسيات تفكيرك: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 17/ 44].

إذاً ما من شيء إلا يسبح الله جَلَّجَلَالُهُ ولكن لا تفقه تسبيحه، والآن إن أضفت أيضاً إلى تفكيرك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النور: 24/ 24] تعلم أن الجسد لا علاقة له بالنفس، والإسلام يحترم الجسد البشري أيما احترام، حتى أي كافر جثته لها حرمة لأنها من مادة، وأي مادة في هذا الكون لها تسبيحها، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: 17/ 44]، كذلك يحرم في الإسلام تشويه الجسد بكل أنواعه مثل الوشم وعمليات التجميل وغيرها؛ لأن أي جسد بشري مكون من مادة لها تسبيحها.

المادة هي شيء مستقل عن النفس وهي في عبادة وتسبيح دائم، حتى كل المخلوقات هي أمم مثلنا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام: 6/ 38] ولها صلاتها وتسبيحها ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[النور: 24/ 41].

إذاً المادة التي تُكَوِّنُ الأجسادَ هي مادة منتقاة، هيأها الخالق سبحانه عبر ألوف السنين لتكون في تلك الأجساد، وهذه المادة تَوَّاقة إلى الوصول إلى جسد يركع ويسجد ليكون مُتَطابقاً مع تسبيحها، فإن وجدت في جسد يحمل نفساً سيئة كانت هذه المادة أشبه ما تكون بإنسان أمضى عمره وهو يجمع المال بشتى الوسائل، ويتحمل الصعاب من أجل أن يؤدي فريضة الحج ويصل إلى يوم عرفة، ولكن حين وصل إلى ذلك اليوم أُخِذَ إلى نادٍ ليلي كله فسق وفجور فكم هذا ظلم له.

ولك أن تفهم الآن فكرة القصاص التي قال عنها سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: 2/ 179]، فحين يقتل المجرم الذي يحمل نفساً سيئة فإن مادة جسده تتحرر من الظلم الذي كان عليها.



مصير الخلق كلهم مرتبط بنهاية لا بد منها، عندما يأتون في يوم البعث والحساب عباداً للرحمن سبحانه كل على حدة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[مريم: 19/ 93-95].

وأمام ذلك الموقف الرهيب حيث ترى كلّ نفس مصيرها بين جحيم نار جهنم ونعيم سعادة الجنة، فإنها تدافع عن نفسها وتبرر وتجادل مستميتة ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[النحل: 16/ 111]، وتوضع الحجة على أي نفس إن قالت لخالقها: لا أنكر أنك عليم بما يكون، ولكنك بعيد في علوك وكبريائك ولن يكون ما كتب في كتابي ولا ما أخبرك به ملائكتك مطابقاً لما جرى بي أو معي...

والحجة على العباد يومها أن الله سبحانه لم يكن فقط عليماً، أو فقط عليماً أو سميعاً أو بصيراً، أو فقط عليماً وسميعاً وبصيراً، بل كذلك هو الشهيد جَلَّجَلَالُهُ على كل عبد من عباده، بأفضل وأتم ما تكون شهادة شاهد لأي أمر أو عمل أو حدث كان، بحضور متوافق مع جلاله وعظمته سبحانه، ولا قيمة لأيّ شاهد أمام من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 4/ 33].

كن على يقين أن أيّ عمل تعمله وأية شهادة تشهدها سوف تحاسب عليها، والشاهد يوم الحساب عليك هو الشهيد جَلَّجَلَالُهُ ويومها ستجد أن الله سبحانه قد أحصى لك كل عمل عملته، وهو شهيدٌ عليك أنت وكل الخلق ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المجادلة: 58/ 6].

لذا اتّقِ الله واعمل الصالحات وتمسك بالكتاب الذي قال عنه سبحانه مخاطباً نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 4/ 166]، عندها تكون شهادة الله لك نعمة يمن بها عليك سبحانه.



لا يمكن لك أبداً تجاهل مسألة الشيطان كما هي معروضة في كتاب الله، والتأكيد والتذكير أنه هو العدو: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[الإسراء: 17/ 53]، وهو رمز للجهل والضلال بثوب الذكاء والمعرفة.

إن استعملت آلية تفكير معينة وفكرت بأبسط حركة وأكثرها رمزية تعبر عن عداء ودفاع عن نفس، ورغبة في طرد أي شر واجهك، فإن تجد أبسط وأعتق من حركة رمي شخص بحجر. وإن أخذت بأساسيات علم العلاج السلوكي، تجد أن خير ما يرسخ فكرة في النفس البشرية هو تمثيلها جسدياً ـ أي بشكل مادي ـ عندها تكون جميع حواس الإنسان وملكاته مجتمعة ومتفقة على أمر واحد.

من هنا يتضح لك جانب من حكمة رمي الجمرات في الحج، فهي عملية تعبير وترسيخ لفكرة أساسية هي أن الشيطان هو العدو، ولا بد من مبادرة لطرده.

إن كانت غاية رمي الجمار فقط ما ذكرته لك، لكان بالإمكان أن يتم ذلك في أي لحظة من الحج وفي أي مكان كان، ولكن اللافت للنظر أن رمي الجمرات محصور ضمن زمانٍ ومكانٍ محدد، مما يؤدي إلى تجمع كل الحجيج في مكان واحد، وعندها ما يراه الحاج هناك هو درس آخر يضاف إلى السابق؛ إذ يرى ويعي أنه يرجم عدوه الأوحد وهو الشيطان، ويرى الآخرين يرجمون العدو نفسه وبالوقت ذاته.

إن أكرمك الله بأداء فريضة الحج تجد أن العبرة والفائدة التي تدخل أعماقك هي أن العدو الذي تعبر عن عدائه تجاهك ليس أخاك الإنسان بل الشيطان، ولا ترمي أخاك بالحجارة بل أنت معه بسلام، وإنما أنتما معاً تتابعون عملاً واحداً وترمون العدو الحقيقي لكما وتمتثلون لأمر الذي قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: 2/ 208].



مع تعامل السالك إلى الله عند مناجاته وسؤاله له سبحانه عن كل صغيرة وكبيرة، ومع كثرة ذكره وعبادته وحبه لله، قد يختلط عليه الأمر ويتعامل معه جَلَّوَعَلَا كأنه حبيب أو صديق حميم، وينسى أن الله هو العظيم جَلَّجَلَالُهُ، وأن علينا جميعاً تعظيمه كما علّمنا في ركوع كل صلاة ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: 56/ 74].

وعلينا تعظيمه في كلّ ما يتعلّق به سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[الحج: 22/ 32]، مناجاتك وسؤالك الله سبحانه هو أمر في غاية الأهمية لك ولكل الخلق على السواء، ولكن مع الأدب، وتذكرك الدائم أنه هو سيدك وربك ومولاك، وأن العظيم جَلَّجَلَالُهُ عظمته تأخذ بعدها الأقصى في كل أمر حقيقة ومجازاً، فهو سبحانه عظيم في حلمه عظيم في كرمه وفي انتقامه وعفوه وفي كل صفاته، ولا أحد عظيم غيره وله وحده كل معاني الهيمنة والجبروت، والقوة خاصة.

كن دائم الأدب مع العظيم جَلَّجَلَالُهُ في كل أحوالك، خاصة حين تسأله، وإياك أن تعظم نفسك أو غيرك وتنسى أن العظمة هي لله عَزَّوَجَلَّ، فقد حذر من ذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [سنن أبي داود: 3567].

واجعل ذكرك الدائم (سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) لأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال عنهما: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ» [صحيح البخاري: 5927]، وهما دواؤك لتبقى نفسك متواضعة لمن خلقها، ولا يبهرها شيء سوى علمها بأن الله حقاً هو العظيم جَلَّجَلَالُهُ.

إياك أن تطرح أسئلة عن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهي بحد ذاتها خطأ فادح لما في طياتها من جملة تناقضات غير صحيحة.

هذه الأسئلة أغلبها من نمط: «كيف سوف يحاسب الله...؟» أو «كيف سوف يعاقب الله... أو ماذا سيفعل الله...؟».

وهذه الأسئلة ومثيلاتها من بدايتها ليست صحيحة، لأن فيها تعميم النِّسبيّ على المطلق، أي تعميم معرفة الإنسان المحدودة ضمن علمه ومعرفته، على العليم جَلَّجَلَالُهُ الذي: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: 96/ 5]، وأوجد الخلق وقال مخاطباً الناس: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 17/ 85].

المنطق الذي تناقش فيه أي أمر من أمورك هو نسبيّ، لأنك تنظر إلى الأمور من خلال منظار الظاهر وما تراه في حياتك وضمن نطاق المكان والزمان الضيِّق الذي أنت فيه، وهنا مكمن الخطأ..

الله هو الخالق جَلَّجَلَالُهُ، وكل ما يتعلق به سبحانه، منزهٌ عما ينطبق على الخلق من منطق أو قوانين، فأين هو في علوه وقدسيته سبحانه مما يصل إليه فهمك أنت أو أي خلقٍ من خلقه.

الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 57/ 3]، وبشيء من التفكير السليم، تستنتج أنه خالق تقدست أسماؤه وصفاته عن خلقه، ولا يمكن اعتماد المألوف عند التفكر بالسبوح القدوس سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، الذي لا تدركه الأبصار ولا تبلغه العقول والذي هو ﴿مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: 57/ 4]؛ لذا إياك أن يتبادر إلى ذهنك مثل هذه الأسئلة، فأنت من حيث لا تدري تُسْقِط فهم المخلوق وهو أنت، على الخالق جَلَّجَلَالُهُ الذي وصفه نبينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بقوله: «لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [سنن الترمذي: 3287].



الكون الذي يحيط بك والذي تقدّر الأبعاد فيه بالألوف المؤلفة من السنوات الضوئية، شبهه رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «مَا السَّمَواتُ السَّبْعُ في الكُرْسِيِّ إلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ» [السلسلة الصحيحة للألباني].

فإن تفكرت بهذه الأبعاد الشاسعة في الكون يتحصل إليك الإيمان واليقين التام أنه تعالى هو ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: 2/ 255]، وأن الله سبحانه هو أعلى من السماوات والأرض وهي دونه، وهو المنزه عن المكانية والذي ليس كمثله شيء، وأن العَلّيّ جَلَّجَلَالُهُ هو صاحبُ أعلى مكان وأعلى درجة، وأعلى من كل شيء لأن السماوات والأرض يسعها كرسيه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: 2/ 255].

ما أعلا وأعظم الذي ليس فحسب وسع كرسيه السماوات والأرض بل هو سبحانه وحده الذي يحفظها ويحفظ الكون كله من الضياع: ﴿.. وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 34/ 21]، وهذا الحفظ دليل على أن العلي جَلَّجَلَالُهُ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وهو جواب على ما قد يعتري عقول البعض من شطح وسوء اعتقاد، مثل زعم بعضهم بأنه سبحانه بعد إذ خلق كل شيء في ستة أيام ارتاح ـ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ـ ونسي أصحاب هذا الاعتقاد الخاطئ أن مردهم أجمعين للآخرة، حيث لا تنعدم ولا تتلاشى نفس واحدة من الأنفس البشرية أيّاً كانت، وأن هذه الأنفس سترى يومها بجلاء ووضوح عظمة العظيم جَلَّجَلَالُهُ.

إياك أن تذهب نفسك بالألفة وأنت تذكر الله جَلَّوَعَلَا ، فتجعل خطابك ونداءك له وكأنه أحد المعارف أو الأقارب، بلا تكلف ولا أدب! لأنك بذلك تقع تحت عتب وتوبيخ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: 22/ 74].

انظر في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 42/ 51] فإن كلّم سبحانه خلقاً من خاصة خلقه من وراء حجاب، فكيف لك وأنت تذكره سبحانه أن ترفع الكلفة معه وهو العلي جَلَّجَلَالُهُ.

احرص في كل ذكرك وطاعاتك وفي كل أيامك أن يكون التعظيم في قلبك لمن هو: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.



طور نفسك وملكاتك العقلية حتى تستمتع بالحياة وتواجه الصعاب، فالحياة معقدة بما فيه الكفاية، وإن لم تفعل ذلك فستزداد الحياة صعوبة في وجهك وتعقيداً يوماً بعد يوم، وأول خطوة في طريقك إلى زيادة تلك الملكات هو الوعي للإيقاع الرتيب لحياتك اليومية التي تعيشها.

هناك شيء أساسي في نفسك عليك أن تعيه تماماً، هو ميلها إلى الراحة والوصول إلى أي شيء بأقصر الطرق وبأقل جهد ممكن، لذا تجدها تسعى، إن استطاعت، إلى جعلك كل يوم تكرر عمل اليوم السابق، لأن ما اعتادت النفس أن تفعله كل يوم لا يتطلب جهداً كبيراً منها. وهذا يوصلك إلى إيقاع رتيب لحياة يومية لا تلبث إلا أن تَمَلَّها، لتجد أخيراً أنك وصلت إلى حياة صعبة لا متعة فيها.

الله جَلَّجَلَالُهُ هو الذي خلق نفسك وملكاتك العقلية وهو أدرى وأعلم بكل ما يدور فيهما ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [البقرة: 2/ 235] ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الأحزاب: 33/ 51]؛ لذا كان جانب من حكمته سبحانه من العبادات تدريبك للخروج من رتابة حياة مملة، فجعل شهراً كاملاً من كل عام له نظامه الخاص لأوقات الطعام والنوم في رمضان، ولا بد لك من السفر شئت أم أبيت لأداء مناسك الحج التي جعل لك فيها نظاماً يخالف كل تفاصيل حياتك من اللباس حتى أدق الجزئيات، ولعل شيئاً يغيب عنك أن أوقات الصلاة ليست ثابتة بل متبدلة كل يوم وعليك الانتباه ومتابعة أوقاتها يومياً، حتى زكاة المال ليست مبلغاً مقطوعاً تدفعه كل عام، بل هو متغير في كل يوم حسب نصاب المال، ولعل أهم شيءٍ هو ذلك النص القرآني الذي جعله سبحانه بمثابة الفرصة الاستثنائية ليتداول عقلك ونفسك فكراً صادراً عن الذي خلق كلّاً منهما، وكل ذلك لتطوير نفسك وملكاتك العقلية وإخراجك من إيقاع رتيب لحياة مملة.

من حيث نظرت في القرآن الكريم تجد أن العقاب يحلّ في الظالمين عقاباً لما يقومون به في العالم المادي، انظر إلى قوم صالح: ما حلّ بهم العذاب إلا بعد أن عقروا الناقة ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[الأعراف: 7/ 77-78]. ولم يرد عقاب إلهي دنيوي للشرك أو لمن يتعرض لذات الله، أو إلى الذين ظنهم بالله وعقيدتهم ومفهومهم عن الألوهية كان خاطئاً، فسبحانه يتعالى عندما يكون الأمر متعلّقاً بذاته، أن يرد أو يجابه الذي يتعرض له تاركاً الأمر إلى يوم القيامة، عندئذٍ يقول لهم سبحانه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾[الكهف: 18/ 52]، وهذا التعالي من رحمته فهو الهادي سبحانه، إذ يمنح البشر فرصة التوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم.

الله هو المُتعال جَلَّجَلَالُهُ يتعالى عن التنكيل والردّ لمن يتعرض لذاته ولا ينزل في مجابهة معهم، وأوضح مثال على ذلك إمهاله جَلَّوَعَلَا لأولئك الذين شطح عقل بعضهم في فكرة هبوط الإله وتنازله وتواضعه إلى حدّ أنه أرسل ابنه، وهو على زعمهم إله مثله، ليكون بشراً، يعيش بينهم يأكل كما يأكلون ويشعر بما يشعرون به، وأخيراً يُصلب رحمة بهم، ورغم شنيع فعلهم الذي قال عنه سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: 19/ 90-91] أعطاهم الفرصة للتوبة والرجوع، لأنه المتعال جَلَّجَلَالُهُ الذي تنزه في تعاليه وترفعه عما يصفه المغرضون علواً كبيراً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾[الإسراء: 17/ 43].

إياك أن يتبادر إلى ذهنك عن نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل شيء مما شطح به تفكير بعضهم، فنزوله ذلك مجازي، لأنه جَلَّجَلَالُهُ ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 13/ 9] المُنزَّه عن المكان والزمان، ورغم تعاليه هو قريب منك ومن قربه ينزل إلى السماء الدنيا في الأسحار كل ليلة، ونزوله جَلَّوَعَلَا متواصل لأن في كل لحظة وقت للسحر عبر السماء الدنيا وهذا ما يغيب عن الأذهان لذا كن دائم الذكر لله المتعال جَلَّجَلَالُهُ.



من عظمة الله جَلَّجَلَالُهُ أن جعل أداة في غاية الرقيّ والشفافية وهي أساسية في منهج وأسلوب القرآن الكريم ألا وهي الإشارة.

عندما يصلُ أي أمر إلى مستوى تعجزُ فيه كلماتنا العادية والمحدودة عن التعبير عنه، عندها لا بدّ من إسكاتها واستبدالها بالإشارة والتعبير من خلالها عن ذاك الأمر بالصمت والرمز، لأن الكلمات العادية غير مناسبة للأحداث غير العادية.

في قصة سيدتنا مريم عندما جاءت قومها تحمل سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، انظر كيف يُطلَبُ منها أن لا تكلم أحداً من الناس ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 19/ 26]. وعندما سألها قومها عن وليدها لم تتكلم بأي كلمة بل أشارت إليه ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لأن ما حدث معها لا تستطيع أن تعبر عنه من خلال كلماتنا العادية والمحدودة لما فيه من شيء خارج عمّا اعتاده البشر في حياتهم.

وكذلك في قصة سيدنا زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما بشره سبحانه بأنه سيكون له ولد اسمه يحيى، ستجد الاستخدام الصريح لكلمة رمز: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 3/ 41].

وفي قصة سيدنا موسى والخضر طلب من سيدنا موسى أن لا يسأل عن شيء (أي أن يلتزم الصمت) حتى يأتي الوقت المناسب للكلام ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 18/ 70]، وعندما نسي سيدنا موسى وتكلم قبل الوقت المناسب سائلاً الخضر عن سبب ما يحدث معهما، كان ذلك الكلام سبباً لنهاية تلك القصة التي قال عنها نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا» [صحيح مسلم: 4385]. والسؤال ماذا كان يمكن أن يحدث لو صبر سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟. ولم يتكلم....



إن أحببت أن تصل إلى أمر معين ومنعت عنه ولم تستطع أن تناله، أو وقف حاجزٌ ما بينك وبين ما تريد أن تصل إليه وكرهت ذلك، فتذكر قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: 2/ 216] .

وأنت تواجه أي مانع وقف حيال ما تريد، كتلك الموانع التي تتجلى في الظروف القاهرة، أو في الموانع المنسوبة إلى ما يسمى الطبيعة، أو تلك الموانع المتمثلة في نقص الإمكانيات والعتاد، أو الموانع التي من ورائها القوى البشرية، إياك أن تعظم في قلبك ونفسك تلك الموانع أو غيرها إلى حدٍّ قد تنسى فيه الإرادة الإلهية، ويغيب وعيك عنها.

وأنت تواجه أي مانع كان، إياك أن تيأس أو تتراجع وتخضع له، لأن الموانع مهما كانت ليست قوى قائمة بذاتها ولا تتمتع بأي استقلالية، بل هي تجلٍّ من تجليات الإرادة الإلهية والله هو وحده المانع جَلَّجَلَالُهُ، ولا أحد غيره يهيمن حقاً ويسيطر على أي مانع يقف حيالك، وإن توجهت لغير الله أثَّرت هذه الموانع في نفسك وأخذت أبعاداً وأهمية، وعظمت في قلبك حتى تكاد تصير شركاً خفياً.

إن وقف أي مانع أمامك فعليك تمام الإدراك أن وراءه هيمنة الله جَلَّوَعَلَا، لذا توجه إليه ولا تضيع وقتك بالتوجه إلى غيره سبحانه.

انظر في قوله تعالى عن أولئك الذين: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ...﴿٢﴾﴾ كيف أنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿... فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ ...﴾[الحشر: 59/ 2].

إن مُنعت عن أيِّ أمر وأردتَ الوصول إليه توجه بالكلية إلى الله المانع جَلَّجَلَالُهُ كما علمنا نبينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ» [صحيح مسلم: 736]، فهو سبحانه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء وهو وحده الذي يوجد ويرفع أي مانع، وهذا التوجه يضفي على حياتك جلاء بالرؤية وتوازناً في نفسك، وصحة في موقفك، ويجعلك تحمد الله أن المانع جَلَّجَلَالُهُ هو الحق وهو رحمن رحيم عدل عليم حكيم....



إياك أن تخلق لنفسك حياة على هذه الأرض ظناً منك أنها مثالية، وما هي في الواقع إلا عيشك ضمن فقاعة من الاكتفاء والانطواء والبعد عن الناس، والعيش بمعزل عن واقع العالم الذي أنت فيه، ذريعتك في ذلك هو اتقاء الحملة الشرسة العنيدة والمتواصلة على الحق وأتباعه من قبل قوى الشر والفساد والتضليل.

تعاليم الله جَلَّجَلَالُهُ تدعوك إلى عدم تجاهل ذلك الواقع، وإلى معرفة تلك القوى، ظاهرة كانت أو خفية، معرفة تامة وعميقة، وإلى دوام الحذر منها أولاً، ثم التصدي لها بالشكل الأمثل، وليس دخولك في فقاعة من الاكتفاء والانطواء والبعد عنها.

حيثما نظرت في تعاليم الله جَلَّجَلَالُهُ تجد بأن واقع العالم، بكل أبعاده وتفاصيله، تحت الهيمنة المطلقة والدائمة للحكيم العليم سبحانه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: 6/ 59].

هذه الحملة الشرسة تتطلب منك لياقات عقلية عالية، لحُسن التصرف معها، ولا يكون ذلك إلا بناءً على معرفة النواميس الإلهية الكونية، وما ينسجم معها من عمل، لا أن تتقوقع ضمن حدود نفسك لتكون أشبه بنملة تعيش في شق حائط بيت على أطراف العالم.

انظر إلى نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي بعثه الله رحمة للعلمين كيف كان يعلم أصحابه قائلاً: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ» [مسند أحمد: 22019].

وتعاليمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليست من خلال سذاجة ومحدودية ما يصدر عن الناس، بل من خلال لغة تواصل مباشر مع خالق الكون! في كتابه المنزَّل، الذي دَلَّك فيه على رأس قوى الشر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: 35/ 6].



إياك والظن أن الله سبحانه خلق الأمور كلها وأوجد الموجودات وفصّلها وميّزها عن بعضها ثم ترك لها أمر التصرف والانتقال حرّة فيما بينها، بل هو: ﴿ٱلْفَتَّـاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 34/ 26] الذي إن شاء أذن لأي أمرٍ إن كان موجوداً بالانتقال من جهة إلى جهة أخرى، أو منعه من الانتقال وحدَّه من كل جهاته، ولا أحد غير الفتاح جَلَّجَلَالُهُ القادر على ذلك، لأنه سبحانه هو أصلاً حجز ذاك الأمر ورسم له حدوده من كل الجهات، ولولا ذلك لكانت كلّ الأمور ضمن مكونات الخليقة ممزوجة مع بعضها، ولا معنى عندئذ للتباين والانفصال فيما بينها، وطريقة إزالة المانع أو الحاجز بالفتح، والفتح لا يكون بإزالة الشيء دفعة واحدة أو بالإطلاق، وإنما بالمباعدة بين مكوناته. ويمكن لذلك أن يبدأ بشكل صغير وبتسارع شديد ثم ينتشر، ومثال ذلك جَعْلُ سبحانه السماوات سبعاً طباقاً، وجعل بينها حواجز عند الانتقال من سماء إلى أخرى، انظر في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: 78/ 19].

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 35/ 2].

في هذه الآيات الكريمة نفي لقوة غير قوة الله في السيطرة على هذه المكونات المختلفة، فهو سبحانه ممسك لها، مسيطر عليها، جعل فيما بينها حواجز أو موانع تفصلها عن بعضها، وهو الفتاح جَلَّجَلَالُهُ الذي يرفع الحواجز أو الموانع بين أمر وآخر فينتقل ممّا في أحد الطرفين إلى الطرف الآخر.

إن أحببت أن يفتح الله لك، ليس أبواب السماء فحسب، بل أبواب الجنة، فاحرص على وصية نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ التي قال فيها: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» [صحيح مسلم: 345].



اجعل أهم شيء في حياتك هو معرفة الله، لأنك مهما حاولت فلن تجد مهرباً من لقائه جَلَّجَلَالُهُ، ولا بد لك يوماً من الوقوف بين يديه، فقد أخبر نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ» [صحيح البخاري: 6058].

لذا؛ كم هي نعمة أن جعل الله سبحانه كلماته في كتاب أنزله على نبيه، ويكفيك فخراً أنك في يوم واحد وفي الصلوات الخمس المفروضة فيه، تسأل الله جَلَّجَلَالُهُ بهذه الكلمات: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: 1/ 6-7]. وهذا الكتاب في حقيقته إلهيّ وهو استمرار وتطهير وإكمال للتراث الكوني الأصيل، لأنه كتاب سماوي منزّل وحياً، كامل متكامل نقي من أيّ شائبة أو تدخل بشري، ومن خلاله تجد الشعائر التي تتواصل بها مع من ستقف بين يديه يوم القيامة، مثل الصلاة والحج والصيام وكل ما تحتاجه لمعرفة ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 1/ 4]، وهو الآن بين يديك فاجعله طريقك إلى الله جَلَّجَلَالُهُ.

كل كلمة أنزلها سبحانه هي كاملة ونقية كمال ونقاء الذي قال عن نفسه سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: 73/ 20]، فكم هي نعمة من الله أن أعلمك سبحانه بذلك، وبأنك ستجد عنده يوم تقف بين يديه كل خير قدمته، بل وستجده أضعافاً مضاعفة.

لن تجد طريقاً غير الطريق الذي جاء به نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يوصلك إلى الله سبحانه، ويوفر عليك الدخول في متاهات وطرق لم يعد هناك وقت لها، لأن رسالته التي حملت لنا كلمات الله هي الفرصة الأخير للبشرية، وهي تتمة وإكمال لكل من جاء قبلها من أمم سارت على نهج الحقيقة، وقد عبر عنها صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قائلاً: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ؛ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ:هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» [صحيح البخاري: 3271].



هناك محور أساسي في حياتك مختزل في كلمتين هما: «الله أكبر» تسمعهما طيلة يومك وليلتك في الأذان والإقامة، وفي كل صلاة تصليها.

تذكر في كلّ مرة تسمع أو تقول الله أكبر أن الكبير جَلَّجَلَالُهُ: حقاً هو الله، لا ملك ولا قائد ولا زعيم ولا جيش ولا قوة ولا شيء أكثر وأبلغ أهمية وأكبر في عقلك وقلبك ووجدانك من الله، لا مال ولا ولد ولا جاه ولا منصب ولا مشاغل ولا حاجات ولا شهوات ولا رغبات، فهو الكبير جَلَّجَلَالُهُ الذي يأخذ حدّه الأقصى في كل شيء يليق بألوهيته وجلاله، وكل ما سواه بالمقابلة مهما كبر معدوم بالنسبة والتناسب. وكذلك فهو جَلَّوَعَلَا يأخذ الحدَّ الأقصى من حيث شدة الأهمية والمكانة وكذلك ما سواه بالنسبة والتناسب معدوم: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: 22/ 62].

لا كبير حقاً بالغ الأهمية وآخذاً حدّه الأقصى في الصفات الكاملة سوى الله وما سواه صغير، هذا الفهم يوجه عقلك وقلبك إلى نظرة صحيحة للأمور كلها، ويستقطب محور اهتمامك رافعاً إياك من صغائر الأمور لأعظم وأكبر وأجلّ ما يمكن أن يكون، فلا يعظم عندك سوى الكبير جَلَّجَلَالُهُ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 13/ 9].

ما أنبل إن كان في قلبك ذلك الفهم، وما أرقاه لأنه لن يعظم ويخضع قلبك لشيء إطلاقاً إلا للواحد الكبير والذي حقاً لا كبير جَلَّجَلَالُهُ سواه.

اجعل توجهك إليه سبحانه بقولك: (اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيراً وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) فقد سمع نبينا أحد صحابته يقولها فقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ»، وكن مثل ابن عمر الذي نقل لنا هذا الحديث فقد قال عن نفسه رضي الله عنه: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ ذَلِكَ» [صحيح مسلم: 943].



القرآن الكريم هو مجال روحي لا مادي، وتدبره قُرْب من الذي أنزله سبحانه، والذي هو أصل الروح؛ لذا لا ينبغي لك التعامل معه، كتعاملك مع غيره.

كتاب الله جَلَّجَلَالُهُ هو أصل العلم الحي، لأنه يحيي صاحبه وينقله من الظلمات إلى النور. وقد دلك وفتح لك سبحانه على كنز من كنوز كتابه الكريم بأسمائه الحسنى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: 20/ 8].

أسماؤه جَلَّجَلَالُهُ هي ذروة العلم الحي، الذي يشمل ما يسمّى «العقيدة» بجميع جوانبها، مختزلاً بحورها بكلمات، إذ إن أسماءَه جواب على أي سؤال يخطر على بالك عنه سبحانه، وذِكْرُك لأي اسم من تلك الأسماء يفتح ذاكرتك، دفعة واحدة، ويوفر عليك مسيرة سنين من تدبر الآيات والمواضيع والمفاهيم المرتبطة بذلك الاسْم.

أليس لافتاً للنظر أن يدلك جَلَّجَلَالُهُ على باب من أبواب إجابة الدعاء بأسمائه الحسنى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 7/ 180] وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: 17/ 110].

الأسماء الحسنى هي مفاتيح للذاكرة، وهي الاختزال الشديد لمواضيع القرآن الكريم وكل كلمة منها تكفي لاسترجاع مسلكي ومنظم وتدريجيّ لبحر من المعلومات، كذلك فإنها تختزل الرسالات الأساسية لمعظم الآيات القرآنية. فما أكثر المقاطع أو المواضيع القرآنية التي تنتهي بما ينقص أو يزيد عن اسمين شريفين، كتلخيص لحقيقةِ ما يسبقها.

الأسماء الحسنى هي الاختزال المعجز ومفاتيح الذاكرة التي تمثل عِلماً حيّاً صحيحاً حقيقيّاً وشديدَ الاختزال، تأمل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: 59/ 24]كيف ذكر سبحانه بين أسمائه ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾، وبين اسميه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ من ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وكم في ذلك من دليلٍ على عظمة أسمائه جَلَّجَلَالُهُ.



إياك أن تكون متكبراً على غيرك من الخلق، الله وحده هو المتكبر جَلَّجَلَالُهُ وهو الوحيد الذي تليق به صفة الكبرياء، لأن تكبره جَلَّوَعَلَا معناه تفرده وتنزيهه عمّن سواه، لذا كيف لمخلوق أياً كان أن يتكبر على غيره من الخلق؟ إن فكر ما هو بالنسبة لمن خلق السماء والأرض وكل شيء، فالكبرياء لله تعالى وحده ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الجاثية: 45/ 37] ولا كبرياء ولا تكبّر ولا كبر إلا له سبحانه، لأنه الوحيد الكبير بالمعنى المطلق، فلا شيء يجاريه أو حتى يقترب منه في عظمته جَلَّوَعَلَا، وفروق شاسعة ولا نهائية بينه وبين أيّ شيء سواءٌ في زيادة الأبعاد، أو الارتفاع والعلو، أو الهيمنة والسلطة بالمعنى الحقيقي أو المجازي؛ لذا كان من أكبر الكبائر الظن أنه ـ فرضاً ـ بقدرته شاء أن يجعل له ندّاً كولد أو صاحبة أو آلهة شركاء، فهو سبحانه المتكبر جَلَّجَلَالُهُ، وتكبّره معناه تفرّده وتنزيهه عمن سواه، وهو أكبر بكثير من أيّ خلق أو أيّ شيء، وهذا ينفي نفياً باتاً وقاطعاً الولد أو الشريك أو البنات والصاحبة، وهو الأهم في اعتقادك بالله سبحانه.

وجود ولد له سبحانه يعني الاقتراب بكلّ المعاني بالنسبة والتناسب والخصائص والصفات بينه وبين غيره! وهذا محال ولا يجوز جعل أيّ شيء أو أيّ مخلوق يقترب بالعظمة والأهمية، أو أيّ صفة فردانية أخرى من الله تعالى، لأنه الوحيد المتكبر جَلَّجَلَالُهُ المتفرد بكبريائه وهو سبحانه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾[الحشر: 59/ 23].

واحمدِ الله سبحانه أنه مَنَّ عليك بالحقيقة التامة، ووفّر عليه عناء الضياع والبحث عن الإله الحقيقي وعرفك عن نفسه سبحانه قائلاً: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾[الإسراء: 17/ 111].



أهم شيء في طريق معرفة النفس ـ وعليك الانتباه إليه ـ أن هناك فارقاً بين النفس والروح وهذا لا بد لك من معرفته.

الروح مقترنة بالعلم ولم تذكر إلا مع العلم، وروح القدس أي: سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مهمته إيصال العلم، أما النفس فهي التي تُحاسب، وهي التي تُبعث، وهي التي تموت، والله سبحانه يتوفى الأنفس وليس الأرواح ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[الزمر: 39/ 42].

حتى قبل أن نكون في هذا العالم، خاطب سبحانه ذرية آدم على أنهم أنفس وليس أرواحاً كما هو جلي واضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾[الأعراف: 7/ 172] .

وإن أدركت أنك نفس من الأنفس التي خلقها الله سبحانه وأحببت أن ترتقي بها حتى يناديها سبحانه قائلاً: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[الفجر: 89/ 27]، إذاً عليك أن تميز بين كل ما يرد عليك من أفكار، فإن كانت أفكاراً من مدد الروح الإلهية ففيها خير لك في مستقبل دنياك وآخرتك، وإن كانت من حديث النفس فلا طائل منها ولا جدوى لها سوى إضاعة الوقت. أما إن كانت أفكاراً رديئة أو ذكريات تعيسة فاعلم أنها وسوسة شيطانية هدفها دمار دنياك وآخرتك، ومفتاح خلاصك من هذه الأفكار تجده في قول النبي ﷺ: «خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا... قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» [سنن النسائي: 5341]، اقراءهما بافتقار للذي خلق الإنسان وقال عنه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾[ق: 50/ 16] ، فهما الدواء لإيقاف حديث النفس ولطرد كافة الأفكار الرديئة وكل أنواع الوساوس بإذن الله.



الأدب مع الله سبحانه في عملك ومناجاتك وفي سائر أحوالك هو أمر لا بد منه.

وإياك والتعامل معه سبحانه برفع الكلفة أبداً، كأن تتصوره جَلَّوَعَلَا صديقاً عزيزاً، أو تخاطبه بعبارات مثل «عزيز على قلبي»، «أعز فلاناً كثيراً» وأمثالها من التي تخاطب بها من تعزهم من الخلق والبشر، لأن هذا المعنى المرتبط بكلمة عزيز مع البشر منفي تماماً في حقه سبحانه، بل ويوقعك في عتب قوله تعالى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[الحج: 22/ 74].

معنى العزيز في حق الله جَلَّجَلَالُهُ هو تَرَفُّعٌ واستغناءٌ وعدم التأثر بأيّ مؤثر خارجي؛ أي إنه سبحانه لا يؤثر فيه أيّ مؤثر، ولا يتأثر بأي شيء، ولا يميل لشيء، ولا يطلب شيئاً، عنده كلّ شيء ولا ينقصه شيء، لأن صفة العز بالنسبة إليه جَلَّجَلَالُهُ هي صفة تامة وليست سطحية، بل وتأخذ أقصى حدٍّ لها، لأنه لا عزيز بالمعنى المطلق إلا الله سبحانه.

الله القوي العزيز جَلَّجَلَالُهُ يفعل كل شيء بترفع وسمو واستغناء وتعالٍ عمَّن سواه، ليس لديه أي نقطة ضعف، ويحكم بعزته حكماً مستقلاً استقلالاً تاماً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 22/ 40]، ومهما فعل أي امرئ حتى يؤثر في العزيز جَلَّجَلَالُهُ فإنه لا يتأثر حاشاه سبحانه حتى لو اجتمعت الإنس والجن؛ لأنه منيع مترفع أعلى من أن يصل إليه أحد، كائناً من كان، كما جاء في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» [صحيح مسلم: 4674].

ليكن في قلبك الخشوع والرهبة لما في العزيز جَلَّجَلَالُهُ من معاني الجلال والهيبة والجبروت ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 2/ 260].

وقل دائماً:

سبحان الله العزيز المترفع المتسامي المتعالي والمستغني عن كلِّ شيء.



إياك من الانزلاق في التيار الجارف للاهتمامات والمشاغل اليومية الدنيوية، مهما كانت ضرورية ومشروعة، لأن تلك الاهتمامات والمشاغل على مدى السنين، تَحُدُّكَ في دائرة تضيق بك وبشكل متواصل.

فالعقل يتطورما دام يكتشف ويهتم، ويتراجع عندما يكتفي بما لديه في تكرار المشاغل اليومية الدنيوية.

والدواء لكل ذلك تجده في حسن تدبّر القرآن الكريم، لأنه يفتح أمامك آفاقاً شاسعة في الاتساع والعمق لما فيه من علم ومعرفة، والعلم من أهم ما يريده سبحانه لكل عاقل من خلقه، لأنه يمنحك وعياً ما أحوجك إليه في كل لحظات حياتك.

انظر كيف اقترن أول التنزيل بالعلم: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 96/ 3-5]، وكذلك أول ذكرٍ لسيدنا آدم في القرآن كان عن العِلم ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 2/ 31].

كلمة «عِلم» بلغة القرآن تتجاوز مفهومنا عنها إلى مفهوم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحد الأقصى من الوعي، وهذا تجده واضحاً في قصة الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه فرأى من عجائب ربه ما رأى وقال: ﴿...أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 2/ 259]. قوله ﴿...أَعْلَمُ ...﴾ كما هو جليّ من سياق القصة، ليس مجرد أخذ بالعلم، بل تعبير عن وعي استثنائي. كذلك الحال بالنسبة لأمره سبحانه رسولَه ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: 47/ 19]. جليّ أنه ليس مجرد أمر بالأخذ بالعلم، بل أمرٌ إلهي لتحقيق أقصى مستوى من الوعي والحفاظ عليه، إذ لا فائدة من «العلم» إن لم يقترن بالوعي التام، ولا فائدة لأي «علم» إن غاب وعي صاحبه.

القرآن والإسلام دعوة متواصلة للازدياد في العلم، وذلك لبلوغ وضوح تام في الرؤية ووعيٍ عالٍ للحقيقة، وهذا مما يجعل ملكاتك العقلية بأحسن أحوالها مهما تقدم بك العمر لأنه يوجهك لمثل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: 10/ 101].



قد يعطيك أحد شيئاً وأنت تكرهه، وقد يعطيك أحدهم شيئاً وهو لك محب، ولكن كم هو شيء رائع أن يأتيك عطاء وكرم من المستوى الإلهي من الكريم جَلَّجَلَالُهُ.

عطاؤه سبحانه عطاء الكرم المطلق ولا يكون ذلك لغير الله سبحانه، عطاء كله جود وكثرة وسخاء من غير مقابل، وهو عطاء الأعلى قدراً ومنزلة، عطاء لا حدود له من الأسمى والأشرف، من الله الكريم الذي عطاؤه هو الأعلى قيمة إلى أبعد حدود العطاء.

إن أعطاك الكريم جَلَّجَلَالُهُ من عطائه فهذا يتطلب منك الانتباه بأنه آتٍ من عزيز وعالي القدر والمكان: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: 23/ 116].

ويتطلب منك تعظيم الله سبحانه مع الكثير من التأثر والعواطف لعطائه، وأن يكون سبحانه هو الأغلى والأحبّ والأعلى قدراً ورفعة في قلبك وفي عقلك ووجدانك، والامتنان لعطائه سبحانه لأنه مجبول بالحب لك.

وتذكر أن ذروة العطاء الإلهي يوم تلقى الكريم جَلَّجَلَالُهُ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[الأحزاب: 33/ 44].

ولتحصل على ذلك العطاء اجتهد بالدعاء فقد قال نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً خَائِبَتَيْنِ» [سنن الترمذي: 3479] .

واجعل ديدنك ودعاءك كل ليلة: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» [سنن الترمذي: 3435]، فقد أمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السيدة عائشة أن تدعو به في ليلة القدر.

وكن على سنة نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فقد حدث عن الله جَلَّجَلَالُهُ أنه: «كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ» [سنن الترمذي: 2723]، فكن كريماً جواداً مع خلقه جَلَّوَعَلَا لتحظى بكرمه.



عليك أن تقرأ التاريخ وتنظر وتبحث في الأمم والحضارات التي مرت على الأرض، وإن استطعت التوغل حتى إلى بداية الخليقة فافعل لأن هذا ما أمر به سبحانه في محكم كتابه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 29/ 20].

أي تاريخ تقرؤه أو تشاهد أثره على الأرض هو شيء حدث، وطالما أنه حدث فهو مطابق لمشيئته سبحانه، وأي تفصيلة كانت فيه طالما أنها حدثت فهي نواميس وقواعد إلهية عليك دراستها ومتابعتها كأي ظاهرة فيزيائية أو كونية تحدث، لأن هيمنته جَلَّوَعَلَا مطلقة على كل ما حدث ويحدث في هذا الكون ولولا ذلك لما ترك لك سبحانه أثراً أو شيئاً منها، وهذا ما تجده في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: 51/ 37].

أي معطيات تاريخية صحيحة يمكن لك دراستها مثل قانون فيزيائي، ويمكن لك أن تستنتج النواميس والقوانين التي جعلها الخالق جَلَّجَلَالُهُ فيها، ولك أن تطبقها مثل أي قانون كوني مادي آخر. وأهم شيء هو الحدث التاريخي المذكور في القرآن الكريم، لأن دقته مطلقة وبالتالي يمكن لك دراسته واستنباط المقصد منه واعتباره قانوناً محكماً، وهذا ما أشار إليه سبحانه في سورة يوسف بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: 12/ 3]. هناك فجوة في علوم الشريعة عليك ألا تقع فيها وهي: اعتبار التاريخ شيئاً ثانوياً لا أهمية له، وهذا منافٍ لآيات صريحة وكثيرة في كتاب الله منها: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: 30/ 9]. التاريخ يعيد نفسه؛ لذا هو شيء في غاية الأهمية، ولولا ذلك لما جعل لنا سبحانه سورة كاملة أسماها سورة القصص استهلها سبحانه بقوله: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[القصص: 28/ 3].

انظر كيف جعل الله جَلَّوَعَلَا من قصص الأنبياء تثبيتاً على الحق لنبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وللمؤمنين تذكرة بقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: 11/ 120].



إن أردت تحقيق نجاحٍ باهرٍ في الدنيا والآخرة، وقوةٍ لا يستطيع شيء ولا مخلوق التغلب عليها، فاجعل شعارك وهدفك: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 20/ 73]، وكن متجهاً بالكلية بقلبك وعملك وسائر أمورك لهذا الهدف.

إن أردت وعياً وقوةً ونضجاً وتماسكاً في نفسك فتعلّق بالباقي جَلَّجَلَالُهُ، فما أعظم السعادة التي تجدها عندما يزول ما تعلّق الناس به، وتكون أنتَ مع مَن هو خير وأبقى، مع الباقي جَلَّجَلَالُهُ الذي قال عن نفسه: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: 50/ 26-27].

تعلّقك بالباقي جَلَّجَلَالُهُ ينجيك من أصعب ما يواجه النفس البشرية في خفايا أعماقها، وفي مسألة حساسة وعميقة للغاية لا يستطيع أي عاقل تجاهلها، ألا وهي: مسألة البقاء والفناء، هذه المسألة تتحدى الإنسان في كيانه وفي كلّ شيء يحيط به، تتحداه في أعزّ ما بين يديه وأَحب ما إلى قلبه.

انظر إلى الكرم الإلهي والرأفة والمحبة منه سبحانه في تجنيبه عباده آلام خيبات الأمل، انظر إلى نصيحته ودعوته الكريمة عندما يقول: ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: 18/ 46]، وتذكر أن البقاء لله وحده والفناء لما سواه، لذا اجعل أملك وجهودك عند الباقي جَلَّجَلَالُهُ، ولا تتعلق بمؤقتٍ ثانوي يمنعك عن أساسي أبدي؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [القصص: 28/ 60].

انظر إلى سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 6/ 76]، إن جعلتَ هذه الآية حاضرة في قلبك فعندها لن تحزن على شيء فاتك من هذه الحياة الدنيا، بل ستجد قلبك قد تعلّق بخير وأبقى، بالباقي جَلَّجَلَالُهُ الذي قال: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: 17/ 87].

وتذكر نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين تَصدَّقَت إحدى زوجاته بشاة كانت قد أُعِدَّت طعاماً لهم قائلاً: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا. قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا». [الترمذي: 2470].

فهو الباقي جَلَّجَلَالُهُ الذي ستجد عنده كل جهد وعمل كنت قد عملته.



الذي يتعامل مع الشريعة الإلهية ليبرهن على أنه جيد والآخرون سيئون، هو إنسان نفسه مريضة وعنده عقد اجتماعية، قد يكون أحد أسباب هذه العقد شعوره الدائم بظلم تعرض له من خلال ظروف صعبة عاشها، ولم يكن واعياً في تلك الظروف كيف كان ينقصه الذكاء، وأنَّ تقييمه لنفسه أكبر مما هي عليه، لذا لم يتقبل الظلم الذي عاشه، وكانت ردة فعله تجاه الآخرين هي البحث عن شيء يستطيع من خلاله القول لهم: أنتم سيئون وأنا جيد، ولم يجد سوى ركوب الدين مطية لذلك.

مهما حاولت التقرب إلى الله تعالى وفي نفسك عداء تجاه الآخرين فلن تزداد إلا بعداً عنه جَلَّجَلَالُهُ، لأنك إن تتبعت رضاه سبحانه من خلال أصحاب نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ خاصة من بشرهم سبحانه بالجنة، تجد أن القاسم المشترك فيما بينهم، على العموم، أنهم أناس محبون للخير إيجابيون معطاؤون على أعلى درجة من الذكاء والفطنة، أناس ابتعدوا عن قوقعة أنفسهم والاهتمام بها دون غيرهم، وجل اهتماماتهم ليس أنفسهم بل الآخرين، وهدفهم السعي لإصلاح الأمة بأسرها وليس فقط إصلاح أنفسهم.

انظر كيف امتدح الله جَلَّجَلَالُهُ الذين يقدمون خدمة الآخرين ومصلحتهم العامة على المصلحة الشخصية الخاصة بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 59/ 9].

وانظر إلى أعلى درجات الغيرية وحب الآخرين في يوم الحساب الذي قال عنه سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 80/ 37]، يومها يقول سبحانه لنبينا: «يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ» فلا يسأل لنفسه شيئاً بل يقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي» [صحيح البخاري: 6956].



إياك أن تتدخل فيما تتركه لورثتك فتعطي أحداً دون آخر، وعليك بالإيمان والثقة التامة أن مآل كلّ شيء إلى الله، وإياك أن تظن أن ما تتركه لورثتك هو ملك لك.

الوارث لكل شيءٍ هو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [مريم: 19/ 40].

الإيمان بذلك يعطيك بُعْداً في النظر وعمقاً في الوعي الإيماني، ويعطيك حكمة متأصلة ونضجاً كاملاً أن المَلِكَ المالك الحق لكلّ شيء هو نفسه بالضرورة الوارث لكلّ شيء وهو الله جَلَّجَلَالُهُ، وتحصيل ذاك الوعي يقودك إلى سعادة حقيقية تتمثل بعدم التعلق بكلّ ما هو بين يديك، وعدم الغوص فيه والتدخل في توزيعه بين من يرثك. وإن كان ثمة من يرث بالظاهر من الذرية فبالنهاية مآلهم الموت، ويبقى سبحانه وارثاً بالنهاية كما قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾[الحجر: 15/ 23].

بثقة إيمانية عالية اجعل اهتمامك لما يؤول إليه أيُّ شيء بعد نهاية حياتك على هذه الأرض للوارث الحقيقي جَلَّجَلَالُهُ، لأنك سوف ترى عياناً يوم البعث والنشور قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾[غافر: 40/ 16]، وترى هناك ما هو حقيقة باقٍ وأن كل من يرث بالظاهر شيئاً مآله الموت ويبقى سبحانه بالنهاية الوارث جَلَّجَلَالُهُ لكل شيء ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[القصص: 28/ 58].

وإن أحببت أن ترث شيئاً في دنياك ويبقى معك إلى يوم الحساب فاسعَ في طلب العلم والمعرفة، فقد قال نبينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» [الترمذي: 2682]، وخير عِلم تتعلمه هو كتاب الله فهو الذي يبقى لك في الآخرة، كما حَدَّث بذلك النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قَالَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا» [سنن الترمذي: 2838].

وإن توجهت إلى الله سبحانه بالدعاء والطلب بشيء تريده، فتذكر دعاء سيدنا زكريا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ حين قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[الأنبياء: 21/ 89]، فهو درس وعبرة لك ولكلِّ خلق الله إلى آخر الزمان.



اجلسْ جلساتِ صدقٍ مع نفسك وتوجه إلى الله جَلَّجَلَالُهُ، وتصور كيف يكون حالك إن منَّ سبحانه عليك وعبرت بفضل الله ورحمته الصراط ماراً من فوق جهنم ونجوت منها، ودخلت الجنة بعد ما شربت من الحوض الشريف، وصارت نفسك في حالة قصوى من الصفاء والنقاء، وكنت مع الذين قال عنهم سبحانه: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: 39/ 73] ولعل أهم شيء يميز أهل الجنة هو مستوى الوعي الروحي الذي يصلون إليه بحيث لا يغيب سبحانه عن بالهم وعن وعيهم، ويرون أن كل ما هم فيه من نعيم وفضل وعطاء ما هو إلا ليذكرهم بالله ويزيدهم صلةً به وحبّاً له جَلَّجَلَالُهُ. ومن خلال هذه الصلة بالله الدائمة التي لا تنقطع، يتعاملون مع أي شيء في الجنة بصفاء ورقي، هذا الوعي الروحي العالي والمطلق.

الجنة هي عالم آخر له سُورُه وأبوابه الثمانية! ومن يدخل فيه يتحول تحولاً جذرياً ليعيش في عالم يخضع لقوانين مختلفة، لعل أهمها الانسجام المطلق بين كل ما فيه ومن فيه، في سلام تام دائم ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: 36/ 58] ، انسجام وتوازن مطلق في كل شيء، حتى فيما نسميه الطاقة ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: 76/ 13]، فلا ضوء، بل نور بجمالياته الخارقة، يظهر ويكشف كل من في الجنة بحقيقته وبجمالياته المدهشة، وسائر ما ينتاب أهل الجنة من أحاسيس، ما هي إلا وعيٌ لتلك الحقيقة ولتلك الجماليات من خلال التقاءٍ لا مثيل له مع ما يرونه من نعيمها.

إن وفقت وتصورت كل ذلك النعيم في الجنة فستجد أن هناك أكثر؛ كما في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [صحيح البخاري: 6944] . وهناك أكثر وأفضل؛ كما أخبر نبينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قائلاً: «وَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي وَجْهِ اللهِ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ» [مسند أحمد: 4395].



اجعل الله سبحانه دليلك ومرشدك إلى جادة الصواب، فهو الرشيد جَلَّجَلَالُهُ الذي يبين لك طريق الرشد من طريق الغي ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[البقرة: 2/ 256]، فالغي هو أبعد ما يكون عليه الضلال، وبالمقابلة مع الغي يكون الرشد غاية الصواب والهداية، ونهاية المطاف في الحقيقة.

إياك أن تقع بالإغواء والبعد عن جادة الرشد، وهو ما توعد به إبليس وأقسم عليه ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: 38/ 82]، فهناك صنف من البشر أغواهم الشيطان وأوصلهم لمرحلة قال عنها سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 7/ 131]، وهذا الإغواء أوصلهم إلى سوء الظن وإلى اتهام الله جَلَّوَعَلَا ووصفه باللعب والعبث ـ وحاشاه أن يوصف بذلك ـ ، وأنساهم ولشدة جهلهم بالله أنه سبحانه أرشدهم إلى جادة الصواب، وأنه وحده من يصرفهم عن الباطل والغي، ويرشدهم ويوصلهم إلى الحق، لأن الرشيد جَلَّجَلَالُهُ هو العالم بعين الصواب وحقيقة نهاية المطاف، وهو الذي يعرف حقيقة المصير النهائي وحقيقة وحكمة النهايات والغايات.

ما أرحمه سبحانه إذ مَنَّ على خلقه بالهداية تلو الهداية إلى الرحمة والهداية الأخيرة التي تجدها في كتابه الكريم الذي أخبر فيه عن الذين آمنوا به: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن: 72/ 2].

الرشيد جَلَّجَلَالُهُ هو أعلم بما خلق ولِمَ خلق وإلى ما يكون مصير ما خلق، وهو جَلَّوَعَلَا أولى أن يتبع ويعبد وأن يُسْلِمَ العبدُ وجهه إليه ويتوكل عليه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[الكهف: 18/ 10].

راقب نفسك وكن مؤدباً مع الله في كل أحوالك، واطلب الثبات والرشد من الرشيد جَلَّجَلَالُهُ وتوجَّه إليه قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ» [سنن الترمذي: 3329] وهي كلمات عَلَّمنا إياها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

هناك العلم المُدوَّن وعلم آخر اسمه علم الصدور.

العلم المدون هو العلم الشائع في زماننا، ولعل خير مثال عليه هي الكتب التي تقتنيها لتُلحقها بمثيلاتها على رفوف مكتبتك الورقية أو الإلكترونية. كتب تنتظر منك أن تقْرأها، وكتب لم تقرأ منها إلا صفحات، وكتب لم يبقَ حاضراً في ذهنك ووجدانك إلا عناوينها أو شذرات منها.

إياك أن يكون علمك هو العلم المُدوَّن، لأن إحدى الإشكالات الأساسية فيه هي عدم وضوح الرؤية الكلية عندك، وذلك لأنه يغرقك في فيض من التفاصيل، وهو علم غائب لأنك إن أردت العودة إليه فلا بد لك من البحث عنه وهذا يحتاج إلى وقت وجهد منك، وقد حذر منه جَلَّجَلَالُهُ بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: 62/ 5].

العِلْمُ المُدوَّن علم ميت ويبقى جامداً، طالما أنه لم يتحول عندك إلى علم الصدور، وهو العلم الذي تتمثله، ويكون بينك وبينه تلازم وانسجام.

ليكن هدفك دائماً علم الصدور فهو المعوَّل عليه، فهو العلم الحي، الذي يعبر عن حقيقتك، ويحييك وينقلك من الظلمات إلى النور. تأمل في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 29/ 49].

السمة الأساسية لعلم الصدور، هي دوام حضوره في عقلك ووجدانك، وهو ملازم لك وأساسٌ في تفكيرك ومنهج عملك، وأسوتك في ذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقد علمه الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: 4/ 113] ، وكان خير من تمثل ذاك العلم، فقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكما وصفته السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كانَ خُلُقُهُ القُرآنَ» [مسند أحمد: 11502]؛ أي إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان قلبه وعقله مجبولين بذاك العلم الإلهي الذي علمه الله إياه، لذا أمرنا سبحانه باتِّباع سنته: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 33/ 21].



الله هو وحده الباعث جَلَّجَلَالُهُ الذي يرسل الرسل والنبيين ويبعث الموتى يوم القيامة، وهذا بالنسبة لكل مؤمن أمر بديهي مفروغ منه ولكن في حال الرخاء.

أما في لحظات الشدة وظلمات الضياع والفتن، فقد يتلاشى هذا الاعتقاد وشطحات العقل البشري قد تذهب بك إلى خارج الصواب، فكم من رجل ادَّعى النبوة بعد خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتبعه الناس والتفوا حوله، ثم ينتهي الأمر بالدجال و«إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نبيّاً إِلَّا حَذَّر أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ» [سنن ابن ماجه: 4067]... «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ» [صحيح البخاري: 4051]، ولا يكاد ينجو من هذه المحنة والفتنة، المقبلة قريباً، أحد إلا ثلة أو قليل من المؤمنين.

وقد حذر منه النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي» [سنن ابن ماجه: 4067]. وينتهي به الأمر بالدعاء أنه الإله، لأنه بشعوذته وسحره يصور للناس أنه يحيي الموتى، وهي من أقوى حججه.

فلك أن تتصور مدى أهمية ترسيخ الإيمان بأن الله هو وحده الباعث جَلَّجَلَالُهُ، ولا أحد غير الله مِنْ مَلَكٍ أو إنسٍ وجانٍ أو شيطانٍ قادر أن يبعث نبياً، وهو الباعث جَلَّجَلَالُهُ الذي بعث الرسل وآخرهم خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 3/ 164].

وكن على يقين تام أن معنى البعث الحق هو البعث بعد الموت في الآخرة ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 6/ 36] عند إرسالِ وإيجاد الأنفس في أجساد يحييها الله الباعث جَلَّجَلَالُهُ، ثم تقف بين يديه وتحاسب، وهذا حصراً لا يكون على الأرض، بل يوم القيامة بعد أن يفنى كلّ شيء وتُطوى السماوات والأرض.



إياك وتغذية الأفكار السلبية إن مرت على بالك، ومن الخطأ أن تُحَدِّثَ بها لأنك بذلك أعطيتها طاقة ماديةً بكلامك عنها وأصبحت واقعاً.

أي شيء يحدث هنا في هذا العالم يصبح حقيقة في البعد الثاني أي العالم الآخر، وبالقياس: أي فكرة تخطر ببالك إن قلتها أصبح لها كيان في ذاك العالم وإن لم تَحْدُثْ... انتبه جيداً لذلك.

إن قلت أي كلمة فيها فكرة سلبية ثم قلت قد تقع غداً أو ربما تحدث، وهو ما يسمى بالتطير، فهذا من أكبر الأخطاء التي نهى عنها نبينا وأمر باستبدالها بالفأل بقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَاطِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ». وعندما سئل عن الفأل قَالَ: «الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ» [صحيح البخاري: 5313].

والفكرة ذاتها تجدها بينة واضحة عندما شرح لأصحابه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكرة الرؤية قائلاً: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنْ اللهِ فَلْيَحْمَدْ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنْ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ» [صحيح البخاري: 6470].

اجعل من الفأل الحسن كل أفكارك وكلامك، لأنه حسن ظن بالله تعالى؛ وتأمل الخير دائماً بكل أمورك، وليكن ظنك بالله الإحسان منه إليك، فهذا ما وعد به سبحانه في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي» [صحيح البخاري].

وإن كان الفأل الحسن هو حالك الدائم ستجد أنك أصبحت إيجابياً بناءً، ونفسك كريمة تتخطى كل الصعاب بنضج وعقل راجح، وعندك إقدام وهمتك عالية وكنت من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: 21/ 90].

الفأل الحسن لا يأتي من قلب سيئ الظن بالله تعالى، إنما يأتي من قلب امتلأ إيماناً بأن الله جَلَّجَلَالُهُ هو المهيمن ولا يحدث شيء إلا بعلمه وإرادته.



مهما بذلت من جهود لوعي أهمية يوم القيامة وللتَّحَسُّبِ لأَهْوالِهِ وأنت لا تزال في الحياة الدنيا، فلن تتحصل عندك أكثر من صورة واهية عن ذلك اليوم الحاسم والأهم في مصيرك ومصير كل مكلف في الحياة الدنيا، فهو يوم الجمع والحساب، تجتمع فيه ثانية مع كل من اجتمعت والتقيت به في حياتك الدنيا لتُحاسَبَ ويُحاسَبَ كلٌّ منكم على أفعاله ومواقفه تجاه الآخر، وكذلك يجتمع التابع والمتبوع، المعلِّم والمتعلِّم، الإمام والمأموم، السائل والمسؤول، المدَّعي والمدَّعى عليه، حتى الخفيُّ بالمرئي؛ أي: الإنس والجن والشيطان منهم خاصَّة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: 3/ 9].

الله الجامع جَلَّجَلَالُهُ يجمعك ويجمع الأمم والملل جميعهم من بداية الخليقة إلى ذاك اليوم، يجمعهم سبحانه في زمان ومكان واحد وقد كانوا متفرقين في الزمان والمكان، متفرقين في عقائدهم ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات: 77/ 38].

يجمعهم الجامع جَلَّجَلَالُهُ أمام حقيقة واحدة لا يمكن لأحد إنكارها، وهي سعادة للمؤمن وندامة وذعر للكافر ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 3/ 25].

اعلم أنك ملاق يوم القيامة وإياك أن تتجاهل أو تنسى الجامع جَلَّجَلَالُهُ الحكم المقسط رب العالمين مالك يوم الدين، الذي جعل لك تذكرة بيوم الجمع يوم القيامة في الحج عند اجتماع كلِّ الحجيج في يوم واحد لا ثانيَ له في عرفة، حيث كلهم سواسية لا فرق بينهم، الرجال منهم لهم لباس واحد ما أشبهه باللباس الذي يُدفن فيه المؤمن عند موته، وكذلك في صلاة الجماعة والجمعة.

لذا حَضِّرْ لذاك اليوم بالصالحات واتَّقِ الشر والظلم، وتوسل إليه سبحانه على مدى يومك في صلاتك أن يرحمك ويهديك الصراط المستقيم، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 2/ 281] .



التجرد والمجردات فكرياً هي أرقى بكثير من الأمور الحسية؛ والعقل البشري هو الوحيد بين كل الكائنات الذي يفهم شكلاً مجرداً، ومثالها أشكال الخطوط لوجه (الكاريكاتير مثلاً) لا يمكن إلا لإنسان عاقل أن يعرف صاحب هذا الوجه.

كلما سعيت جاهداً في معرفتك عن الله جَلَّجَلَالُهُ ازدادت ملكاتك العقلية تطوراً، لأن الذات الإلهية هي أقصى ما يمكن أن تسمو إليه النفس البشرية من التجرد؛ وهي الفكرة الأساسية التي لا يمكن التعبير عنها بأي شكل بياني أو رمزي.

مفهوم الذات الإلهية في الإسلام هو أقصى ما يمكن للعقل البشري أن ينظر إليه بالتجرد التام دون تجسيده بصورة أو شكل ما، ولا يمكن التعبير عن هذه الفكرة بأي شيء كائناً ما كان لأنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 42/ 11].

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل يستمر في سائر الشعائر التي تتواصل بها مع الله جَلَّجَلَالُهُ ولن تجد أي مبرر مادي حسي يفسر مثلاً لِـمَ أركان الإسلام خمسة؟ ولِـمَ الطواف سبعاً؟ ولِـمَ حول الكعبة تحديداً؟ ولِـمَ بهذا الاتجاه وليس باتجاه عقارب الساعة؟ لِـمَ الوقوف في عرفة بالذات؟ لِـمَ الجمار سبعاً سبعاً؟ لِـمَ خمسة فروض؟ لِـمَ ركوع وسجدتان وليست سجدة واحدة؟ وكلّها رموز وحقائق خفية، على النقيض التام من الهبوط إلى الاهتمامات المادية المحسوسة.

ما أبعد التفكير البشري المادي المحض، أي غير المُلهَم عن هذه الرموز المجردة التي لا يمكن حصرها ولا إحصاؤها في القرآن والإسلام، والتي تسمو بك إلى آفاق لا نهائية، وتجعلك تتسامى بشكل متواصل في مجردات موضوعها العليّ الأعلى سبحانه، وكم هي قفزة في ملكاتك العقلية عندما تتوجه إلى الله جَلَّجَلَالُهُ بتجرد تام وإيمان عميق بأنه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 59/ 23-24].



عليك الاعتقاد والوعي التام أن الله تعالى وحده الخالق جَلَّجَلَالُهُ وكل ما سواه مخلوق، وأنه سبحانه خلق وأوجد من العدم كل شيء، أي خلق شيئاً لم يكن موجوداً، وأيُّ شيءٍ بحدِّ ذاته أوجده الخالق سبحانه، وأن وجود أي موجود مرهون باستمرار خلقه له سبحانه، وكل مرحلة من مراحل الخلق ما هي إلا إيجاد وخلق، وحين نقول: خلق على مراحل، فهذا من منظار عالمنا، أي مرحلة إن لم تتدخل إرادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالخلق والإيجاد تقف..!!

هناك من جعل من تقدم العلوم المعاصرة أساساً لحياته، وغاب عنه أن الخالق جَلَّجَلَالُهُ هو الذي أصلاً خلق هؤلاء الذين ساهموا بتقدم تلك العلوم وخلق عقولهم وأمدهم بالحياة، فهناك منهم مثلاً من يؤمن بقضايا كالاستنساخ أو التعديل الجيني وأمثالها، حتى وصل بهم الادِّعاء والغرور والاعتقاد أنهم قادرون على تغيير الخلق؛ لذا ذكرهم سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: 56/ 58-59]، وهناك من يقول: لم يُوجِدِ البشرَ من العَدم بل من طين!! كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: 38/ 71] وغاب عنهم أنه سبحانه هو الذي خلق الطين من العدم.

الخالق جَلَّجَلَالُهُ يخلق في كلّ لحظة، ومتى توقف عن خلق أي شيء تلاشى هذا الشيء، وكذلك إن غيَّرَ سبحانه في خَلْقِ هذا الشيء تَغيَّرَ، وإن استمرَّ وجود خَلْقِ هذا الشيء في مكان آخر وُجِدَ هذا الشيءُ في مكان آخر، وإن انقطع مدد خلقه سبحانه عن أي مخلوق تلاشى ذلك المخلوق.

أيّ موجود ما هو موجود إلا بمدد الخالق، وأي شيء عدا الله تعالى فهو مخلوق.

وأي شيء موجود فإن وجوده رهن خلقه المستمر له سبحانه بكل لحظة، وإن توقف سبحانه عن هذا الخلق لحظة تلاشى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 35/ 3].



عليك أن تصحح مفهومك عن الشيطان الرجيم، وينبغي ألا يغيب عن بالك أن تطلب من الله جَلَّجَلَالُهُ دائماً أن يمن عليك بالاستعاذة منه، فقد توعد بالإغواء لذرية آدم كما أخبرنا بذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بآيات منها قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 15/ 39] وقوله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 38/ 82-83].

وعيد إبليس بالإغواء لن يقف أبداً من خلق آدم إلى يوم البعث، وهو بالنسبة لأي إنسان أشبه ما يكون بمن ولد ومات هو وآباؤه وذريته في أجواء وتهديد حرب متواصلة! يتهالك فيها الشيطان لإغوائهم.

ولكي تفهم إغواء إبليس هناك كنزٌ لا وجود له إلا في القرآن الكريم، وهو ذلك الخبر الاستثنائي الذي عليك أن تتدبره وتعتبر منه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 7/ 16]؛ أي أنه اكتفى باستخدام أخطائه نفسها لإغواء غيره.

هذه الأخطاء التي وقع بها إبليس بيَّنَها لك سبحانه في ذاك الحوار عندما سأله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: 38/ 75]، فما كان أول جوابه إلا أن ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: 38/ 76].

﴿أَنَا۠﴾ هذه الكلمة تُلخِّص لك الخطأ المهلك الذي وقع فيه إبليس، والذي يسعى أن تقع فيه أنت وأي مخلوقٍ.

هذا الخطأ هو أن تتجاهل نور وحقيقة المرجعية الإلهية، وتعتمد في مواقفك ومحاكمتك وتقييمك للأمور من خلال مرجعيتك الذاتية أي من ﴿أَنَا۠﴾ ذاتك، متشبثاً بما تصبو إليه نفسك وتتقبَّله من أفكار وآراءٍ وقناعات.

والحل الأمثل هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لأنه سبحانه إن مَنَّ عليك بها، عندها تتلاشى ظلمات مرجعيتك الذاتية أمام نور المرجعية الإلهية، ولا يبقى أمامك سوى عظمته سبحانه.



الإسلام الحقيقي هو الالتفات إلى الأبعد والأعظم، وترك التفاصيل الصغيرة التي ليست من الإسلام في شيء، ومن توجه فكره إلى ذلك كان عقله عميقاً ومتطوراً.

تفكر ببداية الخلق وعظمة الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تجد أن الله جَلَّوَعَلَا يخلق الخلق ثم يفصل المخلوقات بمكوناتها بعضها عن بعض، ويباعد بين أنماطها وأشكالها.

فهو سبحانه البارئ جَلَّجَلَالُهُ الذي خلق وأوجد الشيء ثم أعطاه كيانه المستقل، وفَصَلَهُ وباعد بينه وبين أي شيء آخر بحيث لم يعد له أي انتماء أو علاقة بغيره، وقد تمّ هذا الأمر على أحسن وجه وبأحسن ما يمكن أن يكون، وإن صحت العبارة، أعطاه هويته الخاصة به ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾[الحشر: 59/ 24].

هل ثمة عيب في البرء، هل ثمة شيء أحسن من شخص بريء من مرض؟!

إذاً فكلمة برء بحد ذاتها تحمل معنى الكمال، فيها إيجابية وتذهب باتجاه الإصلاح والبعد عن العيب.

فبتدبرك لمثل هذه المعاني يتوجه عقلك لتفكير كوني ويذهب بك بعيداً في المكان والزمان خاصة، وتصل لإيمان عميق أن البارئ جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يخلق الخلق ويميزه بعضه عن بعض على أكمل وجه، وهو الذي أتم بناءه بأحسن ما يمكن ودون أي تخريب أو عيب بل على التمام والكمال.

البارئ جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يعطي كياناً مستقلّاً للشيء الذي هو سبحانه أوجده وخلقه أصلاً، وكم في مثل هذا التفكير من خير لك ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾[البقرة: 2/ 54].



أنت عندما تكون ذاكراً لله سبحانه وتسير في أي طريق تكون معك حزمة نور وملائكة تسير معك، وذلك لأنه سبحانه يذكرك ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: 2/ 152] وإن أنت لم تأتِ بأي شيء إطلاقاً ولم تحقق شيئاً في حياتك، وكنتَ من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[الأحزاب: 33/ 35]، فعلى الأقل تشهد لك الأرض والمدينة التي كنتَ فيها أنك ذكرت الله سبحانه.

إن كنت من الذاكرين فمن حيث لا تدري ربما مصائب وذنوب حدثت في مكان ذكرك رفعها سبحانه بسببك؛ لأن الذكر هو باب من أبواب الدعاء، وربما بسبب دعوة صادقة منك تغيرت الأمور من اتجاهٍ إلى آخر بقدرة الله الغفار جَلَّجَلَالُهُ، ولا أحد يدري كيف يبدأ الشر ويستفحل وكيف بقدرة الله ينتهي ويتلاشى.

ذكر الله سبحانه هو مثل دواء معقم يعيد أماكن المعاصي والذنوب إلى صفائها وعطرها كيوم خلقها سبحانه، لأن كل مادة وكل شيء من حولك له تسبيحه وحمده للذي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 17/ 44]، وكم هو سخيف أن تجلس أو تسير وأنت تفكر بأمور لا معنى لها، وكم هي طمأنينة وسعادة لك ولكل مكان تسير عليه أن تذكر فيه الذي خلقه وخلق السماوات والأرض.

ثابر وتابع ذِكْرَكَ لله أينما كنت ففيه الطمأنينة والهناء والسعادة لقلبك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 13/ 28]، وهو باب لرضا الله ومحبته لك ودليل قربك منه سبحانه، وهو الحياة، ولا حياة إلا به، ودليله قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» [صحيح البخاري: 5928]. وإن ذكرت الله فأنت تسير مع النظام الكوني ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 21/ 19-20].



ضمن مشيئة الله سبحانه هناك ثمة شيء يسمى استدراجاً وهو امتحان للنفس البشرية لإظهار مكنونها الحقيقي؛ ومن هذا الاستدراج أولئك الذين عندهم الرغبة بتغيير الصورة بشكل وآخر، وظنهم أنه يمكن اللعب بشكل وصورة الخلق من خلال الهندسة الجينية، وإعطاء خصائص ومواصفات معينة للأبوين أو للأولاد مثلاً.

إياك أن تعبث بصورة أحد من الخلق وأولهم أنت، أو أن تفكر في تغييرها، لأن صورة وشكل أي مخلوق كان هو تمثيل وتشخيص لشيء بالأبعاد الثلاثة قد تم وبشكل حاسم بقرارٍ ومشيئة إلهية صرفة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 3/ 6]، الله المصور جَلَّجَلَالُهُ هو الذي أعطى صورة وشكل أي مخلوق كان بدقة وانسجام كامل من حيث خصائص النِّسَبِ والأبعاد والجماليات العالية، وأي مخلوق في هذا الكون شكله منسجم غاية الانسجام في كل خصائصه مع غيره، وهذا الشكل له ضوابط هندسية ورقمية، وهذا بحدِّ ذاته إعجاز لا طاقة لمخلوق به، وكلما توغلت في اعتبارات الشكل في الخلق أدركت عظمة المصور جَلَّجَلَالُهُ الذي لا يمكن لأحدٍ غيره عمل ذلك.

الإنسان هو أعلى مراتب الخلق، تصويره في الأرحام أي شَكْلُهُ الثلاثي الأبعاد قد تم بالانسجام الكامل مع كل ما هو محيط به؛ لذا يحرم تشويه صورة أي إنسان كان مهما كانت خطيئته؛ لأن هذه الصورة أخذت شكلها بأمر من المصور جَلَّجَلَالُهُ الذي قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾

[الأنفطار: 82/ 6-8].

عليك إعادة النظر والتفكُّر في دقة عبارة ﴿ رَكَّبَكَ ﴾، لأن من عجائب هذا الأمر أن ثمة لكل جزء في الجسد البشري مورثة خاصة به تعطيه الصورة التي أرادها له سبحانه.

وهناك مورثة تنظم عمل المورثات الأخرى وتنسق فيما بينها، وعندما ينمو الإنسان في رحم أمه ينمو كل جزءٍ منه وكأنه مستقل عن الآخر، ويأخذ صورته من يدٍ ووجهٍ إلى بقية أجزائه بقدرة الله المصور جَلَّجَلَالُهُ الذي قال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

رسالة الله جَلَّجَلَالُهُ التي أوصلها لنا نبينا عَلَيۡهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ، هي آخر فرصة ممنوحة للبشرية للالتقاء والاجتماع والعودة إلى الحقيقة الصافية النقية.

وأهم ما يميز هذه الرسالة الإلهية التي وضعها سبحانه في القرآن الكريم هو التوازن الدقيق الذي تجده حيثما نظرت في ذلك الكتاب، إن كان بين سوره، أو بين آياته، وحتى كلماته وأحرفه، توازنٌ بين ما يتعلق بالأمور الدنيوية وما يتعلق بالأمور الأخروية والتحضير لها، توازنٌ دقيقٌ عجيبٌ في مدلولاته وفي الآفاق الشاسعة التي يفتحها لك تفهمه، وتجده في مكنون فهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: 54/ 49].

هذا التوازن يجب أن تتمثله في حياتك الشخصية وتعاملك مع الآخرين، كما أراده خالق الكون لك وجعله لك ضمن قاعدة ذهبية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: 17/ 29]، وهذه القاعدة لتكون حياتك متوازنة، ليس في موضوع الإنفاق فحسب، بل في كل نواحي الحياة التي تعيشها، ومثالها: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: 17/ 110]، لأن أي خلل في التوازن ينعكس على حياتك وعلى المجتمع الذي أنت جزء منه، ويوصلك إلى هدر الإمكانات التي أعطاك الله إياها والتي وصفها سبحانه بالتبذير وذمها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: 17/ 27]. لا إفراط ولا تفريط، بل حياة كلها ضمن توازن يوصلك إلى يوم الحساب؛ حيث هناك توضع الموازين الإلهية ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 21/ 47]. اجعل سنة نبينا نوراً تهتدي به، فقد سمع أن ثلاثة من أصحابه قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبداً، وَقَالَ آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبداً. وعندما علم بهم النبي ﷺ قال لهم: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [صحيح البخاري: 4675].

إن كنت من أهل التصريف وأُولي الأمر فلا بد لك من معرفة مسألة العدم والإيجاد والتبصر فيها لما تحمل من إشارات.

هذه المسألة اختصرها لنا النبي ﷺ بقوله: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ» [صحيح البخاري: 2935]، فهناك الموجودات من كل ما ترى وهناك الواجد جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد كل شيء، وأنشأه من غير سابق مثال عليه، وتجد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 16/ 40]، ومن عنده سبحانه اللحظة الأولى عند انطلاق وإيجاد كل شيء.

أي موجود، كان معدوماً ولم يكن شيئاً، ثم أوجده الله الواجد جَلَّجَلَالُهُ بقدرته التي لا حدود لها، فهو سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 85/ 16]، وإرادته نفذت فأوجدت كلّ معدوم، وكما أن الواجد جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد الموجودات قادر كما أوجدها أن يعدمها إن شاء ذلك سبحانه.

إذاً إن كنت من أهل التصريف وأُولي الأمر فإياك أن تُحْجَبَ عن الله أبداً؛ لأن أهل البصيرة لا تَحْجُبُهم الموجودات عن واجدها، بل تذكرهم به ويعون أنه كما أوجدها يعدمها، وكما أوجدهم يعدمهم.

أهل البصيرة يرون يقيناً غناه التام سبحانه عن كلِّ ما يقدمونه، فقد أوجدهم أصلاً وأوجد ما ظنوا أنهم يقدمونه، وهو الغني عن العالمين.

إياك أن تكون من أهل الغفلة الذين حَجَبَتْهُم الموجودات عن موجدها، ولا تأبه لموجود؛ لأن ذاك الموجود ذليل ومعدوم إن لم يوجده الواجد جَلَّجَلَالُهُ، وفي ذلك عزّ وعتق لك بتحررك من سلطان وهم قوة الموجودات، فالله سبحانه هو قائم مدبّر لكلّ شيء، ولا شيء في كل ما ترى إلا هو الذي أوجده.

إيمانك بأنه تعالى هو الواجد جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد كل شيء، وأن كل شيء ما عدا الله موجود، وأن هناك حكمة إلهية من وُجوده وله معنى ضمن الترتيب الإلهي، بهذا الإيمان تُحسن التصرف بهذه الموجودات لعلمك بعظمة موجدها.



آيات القرآن وتعاليم الله جَلَّجَلَالُهُ متناسبة مع تقدم الزمن بل وتسبقه، وكلما تقدّم بك الزمن تيقنت أن لها أهمية أكثر، ذلك لأنها آخر رسالة من العليم الحكيم جَلَّجَلَالُهُ إلى البشرية قاطبة وإلى آخر الزمان.

إن نظرت إلى معظم الآيات الكريمة التي تتحدث عن التاريخ وأحوال البشر والأرض والخليقة والكون، تجد أنه لا يمكن فهمها أيام التنزيل الأولى كما يمكن فهمها حالياً، ومثالها قوله جَلَّجَلَالُهُ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 86/ 1-3]، كذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق: 86/ 11]، ومن الواضح أنه ليس بمقدور البشرية يوم أنزلت فهمها كما يمكن ذلك لأهل زماننا.

كذلك هل يمكن فهم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 51/ 47] لولا التقدم في المراصد الفلكية وعلوم الفلك؟ أو فهم قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطارق: 86/ 12] إلا بناءً على الخرائط المعاصرة لأعماق المحيطات، حيث يظهر ذاك الصدع بجلاء؟

ارفع رأسك عالياً بانتمائك إلى تعاليم الله جَلَّجَلَالُهُ، لأنها سابقة لهذا الزمان الذي أنت فيه ولكل زمانٍ مقبل، وفيها كل ما تحتاجه لحياتك الدنيا بل ولكل ما تريد معرفته عن العالم الآخر حيث يتلاشى فيه كل زمان.

وكم هو سبق للزمن أن تجد معلومات قيمة حتى لما بعد الزمن في جنة الخلد التي قال عنها نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْئَسُ وَلَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» [مسند أحمد: 8471]، وهو إخبار منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما لا يبقى للزمان معنى.

اعمل جاهداً في تمثل تعاليم الله جَلَّجَلَالُهُ، فقد جاء في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [صحيح البخاري: 6944]، وكم في هذه الكلمات التي أخبرنا بها جَلَّجَلَالُهُ من سبق لكلِّ زمان ومكان.



المسلم الذي يعجز عن تقديم البيّنة في حوار مع إنسان صادق يبحث عن الله سبحانه يحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة على جهله وتقصيره، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 5/ 67]، هو أمر إلهيّ صارم توجه للنبي في حياته، والمسلمون هم الذين يتحمّلون مسؤولية تبليغ ونشر رسالة الله والدعوة إلى الحق بعد وفاته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإن لم يفعلوا فقد خانوا العهد مع الله ورسوله ولم يؤدوا الأمانة.

تبليغ رسالة الله مَهَمَّة تتطلب علماً وقدرة على إظهار الحق، وذكاءً في تقديم الحجة والبيِّنة في المسائل الكبرى والأساسية، وهذا كله قد بينه الله تعالى في كتابه الكريم، ومثاله قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: 6/ 101]، هذه الآية الكريمة ترى فيها الحجة البالغة على بطلان دعوة الذين ادَّعوا ولداً له سبحانه، لأن البديع جَلَّ جَلَالُهُ قد أبدع ـ أي أوجد ـ كل أمر أو شيء دون أي سابقة له، وفكرة الإبداع ليست إيجاد عين الشيء أو الأمر أو مادته، وإنما فكرة هذا الشيء أو هذا الأمر؛ لذا فهي لا تقع عليه سبحانه وصفاً له وإنما تقع على فعله في خلقه.

فالإبداع يكمن في السبق والابتكار في الفكرة والمفهوم، إذ بالإمكان الإيجاد من غير إبداع، ويمكن أن يزعم البعض أن ثمة وجوداً أو خلقاً فَنِيَ وَعَدِمَ لسببٍ ما، ثم جاء إله فأوجد كلّ موجود، فلا يكون قد أبدعه إذ سبق وكان موجوداً.

قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعلمك الحجة في الدعوة لكل من ادعى الولد له سبحانه، ويذكرك أن البديع جَلَّ جَلَالُهُ هو الذي أبدع السماوات والأرض وخلق كل شيء على غير فكرة سابقة له، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هي هداية تنقذ البشرية من ضلال بعيد سببه إسقاط واقع الخَلْق بما فيه من محدودية مادية على الخالق الذي يختلف بالكلية عن خلقه بصفاته سبحانه، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ سموٌّ بالعقل البشري إلى مفهوم مجرد وكونيٍّ عنه جَلَّ وَعَلَا.

فإن كانت لديك هذه الحجة وأمثالها من كتاب الله فأنت داعية حقيقي إلى الله سبحانه.



هناك نوعان من التفكير: تفكير إبداعي وآخر استنتاجي، والفرق بينهما مسألة جوهرية هي الأساس في تقدم الفكر البشري.

تحرر العقل عن قيود المعطيات الموجودة، أي اعتماد المعطيات والتحرر من القيود التي عليها، والانطلاق إلى آفاق أخرى هو التفكير الإبداعي، ومثاله أن تصل من 1 مباشرة إلى 5 دون الحاجة للمرور بخطوات: 2، 3، 4 وهو طريق مختصر، ولكن فيه خطورة حين لا يكون هناك مرجع تقاس عليه النتائج الأخيرة.

أما تفكير الاستنتاج فهو أن تصل من 1 إلى 5 مروراً بـ 2، 3، 4 وهو طريق آمن ولكنه يحتاج إلى وقت وجهد كبير.

الإبداع هو قفزة في المجهول، وتتحقق هذه القفزة حين يستطيع الإنسان أن يخرج خارج نفسه، وينظر لأي مسألة بشكل مجرد تماماً، ويمكن تسميتها بمصطلح صوفي (كشف) أي رؤية النتيجة مباشرة، لكن هذه النتيجة لا يمكن اعتمادها إلا بوجود مرجع تقاس عليه.

هذا المرجع هو محقق من خلال تعاليم القرآن الكريم، لأنه أصلاً من مصدر إلهي فيه الأسس والقوانين والضوابط المطلقة لسائر العلوم، وفيه كل الإجابات الصحيحة لكلّ ما يمكن أنْ يُعلَم. وهو أهم مرجع تقاس عليه أي نتيجة جاءت من قفزة إبداعية. ولعل أوضح مثال على ذلك هي القفزة الإبداعية الهائلة التي تحققت في علم الأعداد وخصائصه الذاتية واستقراءاته الهندسية والبصرية، واعتماد نتائجها على القرآن الكريم، فالذي ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:32/ 7]هو نفسه سبحانه منزِّل القرآن، والعدد في حقيقته هو أصلاً أمرٌ إلهيٌّ صِرف؛ كما يشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 72/ 28] وقوله:﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: 78/ 29]. وهناك شيء آخر يفسر لك كيف تفوّقت الحضارة الإسلامية على سائر الحضارات الأخرى المعاصرة لها، لأن أصحابها حققوا قفزة إبداعية معتمدين في نتائجها على كتاب الله الذي جاء عن طريق الوحي، والذي يمكن قياس أي قفزة إبداعية عليه لأن فيه ضوابط قوانين الخليقة برمتها.



يكفي أن ترمي شخصاً في العراء لتجد ما يلحقه مما لا يحصى من الضر والأذى بكل أشكاله، فالضر هو من المظاهر التي جعلها الله سبحانه على الأرض، وما من أحد كان إلا ويسعى لدفع الضر عن نفسه، بل هو أحد محاور اهتمام البشر جميعهم.

إن مَسَّكَ أي شكلٍ من أشكال الضُّرِّ على هذه الأرض إياك والظن أن أسباب هذا الضر هي مستقلة وفعالة بحدّ ذاتها، وإنما هي مطابقة لإرادة خالق حكيم عليم رحيم لطيف، وهو وحده الضار جَلَّجَلَالُهُ الذي يضع حدّاً لكلّ أنواع الضر، وبيده وقوع أو رفع أي ضر كان ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 6/ 17].

كم هناك مثلاً ممن يعتبر نفسه مؤمناً تجده يعظم الحسد ويخشاه ويخشى الضر المترتب عنه، ويغيب وعيه عن الله وهيمنته سبحانه وكأن قوة الحاسد مستقلة عن الإرادة الإلهية. كذلك الخوف من الضرر المترتب عن السحر وكيف تجده يقف خائفاً منه، ويضع التنازلات لبشر أمثاله ظانّاً أن بأيديهم رفع الضرِّ عنه، وينسى أنه سبحانه قال عن السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 2/ 102].

اجعل قصة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي المَثَل الأعلى لك في أي ضُرٍّ أصابك، وتذكر كيف اجتمع عليه قومه بكل ما أوتوا من قوة ليعاقبوه حرقاً، فلم يتزعزع إيمانه بالله جَلَّوَعَلَا خالق النار الذي قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 21/ 69].

إن مَسَّكَ ضرٌّ فإيّاك أن تلجأ إلى تعويذة أو قديس أو قبر ولي أو مشعوذ فإن ذلك لا ينفعك ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: 10/ 18]؛ بل عليك بالإيمان المطلق بهيمنة الله الضار جَلَّجَلَالُهُ وأنه سبحانه هو وراء كل ما يجري من أسباب الضر أو غيره.

ضع أملك حصراً عند الضار جَلَّجَلَالُهُ فهو بيده وقوع أو رفع أي ضر كان، لأنه هو سبحانه المقدِّر للضّر لمن أراد وكيف أراد، وذلك بمقتضى حكمته؛ بل وأي حدث كان هو مطابق للإرادة والحكمة الإلهية، وما أسعدك إن كنت كذلك لأنك لن تخاف من أي ضُرٍّ كان.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 10/ 107].

إن لم تجد أحداً للكلام معه فإنك تتحدث مع نفسك. والعبرة ليست بالفكرة التي تدور في ذهنك، ولكن بالأحاسيس والمشاعر التي تتولد منها، لأن النفس بشكل عام تجري وراء الشيء الذي تهتم به، ولا بد أن جانباً من نفسك مهتم بما تفكر به.

لا يمكن لك أن تقوم بضبط أفكارك بشكل سريع؛ بل تحتاج إلى تحضير وتدريب بشكل متواصل، والعلاج عدة أمور؛ منها أن تفتح قلبك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تسأل نفسك: تُرى من هو أعظم في قلبي ذلك الأمر الذي يجول في خاطري أم الله تعالى؟ لأن تعظيم الله سبحانه هو من أهم الأمور، وأن تسأل نفسك بصدق وتوازن عند أية فكرة: ما جدوى النقاش الذي يدور في مخيلتي حول هذه الفكرة؟ وما الفائدة منه؟ وعندها تجد أن أكثر ما يدور في خاطرك طوال نهارك قد يكون نقاشاً بحدِّ ذاته تافهاً، وما هو إلا ترويح عن النفس، إن أدركتَ هذا الشيء يمكن لك أن تتجاوزه ويصبح مثل رواسب قديمة.

كل نفس تصبو في سر أعماقها وبفطرتها إلى ما هو روحيّ، ولو لم تعِ ذلك، يكفي إثارة تلك الفطرة التي جعلها سبحانه في الأنفس، لتجد نفسك تتحرك بحثاً عمَّا يرويها كي تتخلص من أي فكرة لا معنى لها، وإن بحثت عن ذاك الشيء الروحي الحقيقي والأصيل، تكون مسعوداً، إن وصلت أخيراً إلى القرآن الكريم، لأنك ستجد فيه رسولاً جعله سبحانه مرجعاً لك لتزكية نفسك قال عنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: 3/ 164]، وستجد في هذا الكتاب الكريم ما يروي تعطشك إلى ما هو روحي مفيد وفعَّال، يجعلك ترتقي بنفسك فوق كل ما يدور في ذهنك من أشياء لا فائدة منها سوى تبعثر نفسك وتشتتها أمام سراب لا يوصلها إلَّا إلى الضياع.



السعي وراء النفع هو دافع ومحرك أساسي لتبقى الحياة مستمرة ولا إشكال في ذلك، ولكن عندما يكون السعي طلباً للنفع حصراً في إطار الحياة الدنيا فإنه يصبح ضراً شاملاً، لأنه أعمى صاحبه عن الأهم ـ عن الآخرة ـ فالحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية، وما حياة المكلفين من إنس أو جن على الأرض إلا حياة مؤقتة وقصيرة.

أيّ نفع لا وجود له بحدّ ذاته مستقلّاً وإنما هو مظهر من مظاهر الإرادة الإلهية، ولا يصل إليك أي نفع كان في هذه الحياة الدنيا إن لم يأذن به الله تعالى، فهو وحده النافع جَلَّجَلَالُهُ:

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

[المائدة: 5/ 76].

إياك أن يعميك الجري وراء نفع دنيوي ليصبح هدفاً بحدّ ذاته خاصة، المنافع المالية التي نبهك الله سبحانه عنها بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: 89/ 20]، إياك أن تصير بيت قلبك ومحطَّ رجائك، معتقداً بمنفعتها عند الشدائد، فكم من صاحب مال كان المال الذي جرى وراءه بالنتيجة قد حمل له أشد الضرر عندما نسي أن الله هو النافع جَلَّجَلَالُهُ، وأصبح هذا المال فيه التعاسة له في الدنيا قبل الآخرة.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: 5/ 188].

كُن على يقين أن طلب النفع ضمن حدود الحياة الدنيا هو بيد الله وأن النافع الأوحد حقاً هو الله، وكل مظاهر النفع التي تراها لا يمكن أن تصل إليك إن لم يأذن بها النافع جَلَّجَلَالُهُ، فهو الذي يُوَصِّلُ النفعَ إِلى مَن يشاء من خلْقه، وهو سبحانه أصلاً خالِقُ النفْعِ والضَّرِّ والخيْرِ والشرِّ وكل شيء، وإن كنتَ على يقين من ذلك فلن يمنعك نفع دنيوي عن النفع الحقيقي في الآخرة، وستجد نفسكَ قد تَحَرَّرتَ من ذل الاحتياج لأي شيءٍ أو شخص، وانتقلت إلى شرف الالتجاء إلى الله النافع الذي لا نافع إلا هو جَلَّجَلَالُهُ.



عندما تعي أنك، بالحقيقة، لست سوى نفسٍ عابرةٍ في هذا العالم لحكمةٍ ولمهمةٍ، وأن مصيرك في عالم آخر. عندها يكون تعرُّفك على القرآن الكريم ليس مجرد مطالعة ثقافية، بل، ضرورة قصوى ومصيرية.

إن وعيت تلك الضرورة المصيرية، فلا تُضَيِّع وقتكَ بالتخبط في كل ما كتبه الناس عن القرآن الكريم، أو الاسترسال في تجاربك الشخصية والتعلُّم من أخطائك في التعرف على هذا الكتاب المبارك، لأن الزمن لم يعد يسمح بذلك قط!

فهو في تسارع مطّرد؛ فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ؛ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ» [مسند أحمد: 10521].

فلا بد إذاً، في ذلك السباق المصيري مع الزمن، من الاستعانة في تعرفك على القرآن الكريم بخبرة مرشد حقيقي يوصلك إلى بيت القصيد.

المرشد الحق هو الذي تَعلَّم وأخذ من الذي قال عنه سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: 33/ 21]، وتَعلَّم تمامَ العلم من نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى أين يصل الطريق الذي يسير عليه ويرشد إليه.

المرشد الحق هو: المتجرِّد عن محدودية مرجعية نفسه تجرداً تاماً، لاعتماده عظمة حقيقة المرجعية الإلهية. والمتبرِّئ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، وحاله الدائم: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ [الكهف: 18/ 82]. ودليله ودعمه لكلِّ ما يقول بالبيِّنة الجلية من كتاب الله، وبالدليل الساطع لما جاء في السُّنَّةِ المشرفة التي قال عنها نبينا ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ» [مسند أحمد: 16519]، وهي السمة الأساسية للأدلة التي يقدمها.

فما أحوجك لا إلى مرشد تُقَبِّل يده وتتأمله فحسب، بل إلى خبرة مرشد توظِّفها في الحال أحسن توظيف في زمنٍ متسارعٍ مطّرد.



إن أردت طلب أي علم فاطلبه من العليم جَلَّجَلَالُهُ، وانهل من علمه سبحانه فهو خالق الوجود وموجد كل موجود.

علمه شامل ونافذ بكلّ أمر أو موجود، إذ لا موجود إلا ما أوجده الله سبحانه ولا يُوجِدُ سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلا مبرر، لذا فهو أعلم بكل موجود، وعلمه نافذ شامل مطلق وليس مجملاً، ودليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 2/ 29].

كن على يقين بشمولية ونفاذ علم الله المطلق، حيث لا يغيب عنه سبحانه صغيرة ولا كبيرة لا سابقة ولا لاحقة، وإن قورن أي علم بعلم الله سبحانه انعدم لصغره. ولا يمكن المقارنة بين علم محدود مع لا نهاية علم العليم جَلَّجَلَالُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 2/ 115].

إياك والظن أنه تعالى قد يغيب عنه شيء أو أمر، أو أنه ترك أموراً لخلق من خلقه كالملائكة يخبرونه بما يجري، وهو سبحانه لا علم له بها، أو أن يتسرب إلى ذهنك أنه يمكن لبعض خلقه أن يخفي عنه شيئاً، لأن العليم جَلَّجَلَالُهُ علمه هو شمولية ونفاذ بكلّ أمر أو خلق، وهو سبحانه أعلم بما خلق ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: 36/ 79].

وإن آتاك العليم جَلَّجَلَالُهُ من علمه تدرك مدى عظمة برهان فيض عطاء هذا العلم الذي يؤتيه سبحانه من يشاء من عباده، والذي يهزل ويحقر أمامه ما سواه من علوم.

الله جَلَّوَعَلَا ليس عليماً فحسب بل هو الخالق والبارئ والمصور، وهو بعلمه مهيمن على كل شيء؛ لذا كن مؤدباً معه سبحانه إن آتاك من علمه كما فعل الملائكة فقد ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 32].



إن واجهتك الصعاب أو انتابك شعور سلبي أو خوف من مستقبل، فتوجَّه إلى الله سبحانه أولاً، لأن نقطة انطلاق أي شيء هو الله، والمدد كله من الله، ونهاية المطاف هو الله، ودائماً وأبداً بداية ونهاية أي أمر منه وإليه سبحانه﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 2/ 156].

إن علمت ذلك، تجد التيسير والتوفيق لأي أمر من أمورك، وتخرج من أي شعور أو خوف قد يعتري نفسك، ويفُتح لك ليس باباً واحداً من أبواب الفرج؛ بل عدة أبواب بعون الله ومدده.

كلما واجهتك صعوبة في هذه الحياة الدنيا، فعليك أن تستفيد منها وتحولها إلى شيء إيجابي في حياتك، وأن ترفد بها خبراتك، وكلما كانت الحواجز أكبر كان للحياة معنىً. وإياك أن تكون مثل أناس لا يغيبون عن الله بذكرهم الدائم، ولكن مفهوم الله في أذهانهم بدائي وغير متوازن، لذا ترى صلتهم بالله مزعزعة إن مروا بظروف صعبة، وهم قد اعتادوا ـ منه سبحانه ـ لأمورهم التيسير الدائم والتوفيق.

يجب أن يكون إيمانك بالله على ذات المستوى أيام التيسير والتوفيق وأيام الصعاب، وقدوتك في ذلك سيدنا النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو عندما أسري به إلى بيت المقدس كان هناك معجزة البراق الذي جاء به سيدنا جبريل ليكون معه في تلك الرحلة، أما عند الهجرة وكم كان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معرضاً للخطر، فكانت الرحلة على ناقة أعدها سيدنا أبو بكر ليكون معه في تلك الرحلة الخطرة إلى المدينة المنورة، ولأهمية العبرة التي في هذه الرحلة جعلها سبحانه في كتابه الكريم:﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 9/ 40]، وهي دليل وتعليم لنا كيف كان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيام التيسير والتوفيق وأيام الصعاب في الحالتين مع الله سبحانه، لا يعتري إيمانه بالله إلا صعود دائم وقرب من ربه سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾[هود: 11/ 61].



المعلومة التي تُحَصِّلها يجب أن تضعها في مكانها المناسب، وإياك أن تَخْلِطَ بين مستوى أي معلومة وأخرى، فهناك معلومات لها مستوى عالٍ جداً ولا يمكن أن تنزل إلى مستوى التفكير الشائع؛ مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 25/ 59].

قضية استوائه على العرش سبحانه هي مسألة عالية تتطلب قدراً كبيراً ليس من المعلومات فقط، بل تحتاج إلى خبرة وليس هنا أعلم من الخبير جَلَّجَلَالُهُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ لأن علم الله سبحانه ليس نظرياً بل بالواقع هو علم وخبرة.

فقد يقول قائل مثلاً: إنه خالق وإنه عليم؛ إلا أنه من عظمته خلق بعلم ووضع القوانين، والقوانين تسير وحدها بإرادته وقدرته، وأنه سبحانه عمل كلّ شيء وارتقى وسلّم الأمور إلى قوى ثانية كما في عقائد أخرى (سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يصفون)، الخبير جَلَّجَلَالُهُ هو الجواب المسبق عن مثل هذه العقائد، لأن الخبرة في العلم هي تخصيص العلم بما يحصل ويقع، فهو سبحانه العليم ومن كمال علمه أنه الخبير جَلَّجَلَالُهُ، وهو على علم بكلّ ما يقع ويحصل وبالتفصيل.

انظر فيما ورد في السنة المشرفة بما يقوم به الكرام من رفع الأعمال إليه سبحانه، وكيف يسألهم سبحانه: على ما تركتم عبدي؟ وهو أعلم بعباده من الملائكة لأنه الخبير جَلَّجَلَالُهُ الذي يعلم بكلّ ما يقع ويحصل لعباده وخلقه وبما كان وما يكون بالتخصيص والتفصيل.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» [صحيح البخاري: 6878].

إن فُتِح لك باب من أبواب قصرٍ عظيم بحدائقه وعمارته، ونظرت من نافذة مطلة عليه وأعجبك كثيراً؛ فأردت الاحتفاظ بهذا القصر، فأخذت تلك النافذة ووضعتها في بيتك مقتنعاً أنك كلما فتحت تلك النافذة فسوف تدخل وترى ذاك القصر!

كذلك إن فتح الله لك باباً من أبواب معرفة كلامه، وأعطاك علماً من أحد بحور علوم القرآن مثل علم النحو أو اللغة أو علوم التفسير وغيرها، فإنك إن اكتفيت بأحدها ووقفت عنده كنت بذلك كالذي احتفظ بنافذة من نوافذ ذاك القصر.

القرآن الكريم بمثابة نوافذ وأبواب نحو اللانهاية، نوافذ تتفتح على آفاق تسمو بنورها نفسك ومداركك، وأبواب تتفتح على تلك الآفاق، لتسمح لك برؤية ومعرفة ما لم يكن بإمكانك معرفته عندما كنت واقفاً عند أعتابها.

إن وُفِّقت لحسن تدبره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 4/ 82]، تستطيع بالقياس، فهم أي تجلٍّ للحقيقة فهماً عميقاً ودقيقاً، لأن القرآن الكريم آفاق لا نهائية، فهو كلام الواحد الأحد سبحانه، بحرفيته، وكل ما هو موجود فيه هو تجلٍّ من تجليات حقيقة واحدة.

هذه الحقيقة تتجلى بطرق مختلفة وعلى مستويات مختلفة، وهي متجلية في أشمل وأعظم تجلياتها في القرآن الكريم فهو يحوي مستويات المعرفة كلها، ويتميز بأنه كلٌّ متكامل شامل، فالذي خلق الكون هو الذي أنزله وشاء أن يكون فيه أسس القوانين التي تحكم هذا الكون.

النص القرآني لا يقف عند ظاهر كلماته؟! فهو كلام الذي ﴿ أَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: 72/ 28]، والذي قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: 78/ 29]، والمعرفة التي فيه لا تنتهي ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 18/ 109] وهو نافذة نحو اللانهاية.

إن كانت لك قسمة ووفقت في حسن تدبُّرِه وكنت أهلاً لذلك، فإنك تتدرج في فهمه، عمقاً وسمواً، لتصل إلى مستوياتٍ وآفاقٍ لا تُرى نهايتها.



عندما تقف وحيداً داعياً سائلاً وراجياً الله سبحانه، تفكر أنه بنفس اللحظة ربما هناك ألوف مؤلفة يقفون سائلين متوجهين إلى الله بالدعاء، وهو سبحانه أدرى بأحوالهم جميعاً ويسعهم رحمةً وعلماً ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ [غافر: 40/ 7].

الكل يناجونه بنفس اللحظة، ومن عظمته سبحانه أنه يفسح لكلٍّ واحد منهم حدوداً لا متناهية لسؤاله، فهو الواسع جَلَّجَلَالُهُ الذي لا حدود له، ولكن وسع علمه أي شيء ولو متناهياً في الصغر، ولا شيء خارج علمه، وعنده بشكل مطلق الاستيعاب والإحاطة التامة بكل شيء ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الأنعام: 6/ 80].

هو الواسع جَلَّجَلَالُهُ فلا شيء إلا وهو محتوى ضمن علمه، ولا شيء كائناً ما كان إلا داخِلٌ في إحاطة علم الله لأنه الوحيد جَلَّوَعَلَا الذي يستطيع أن يرى مسألة ما ضمن المنظار المطلق، وأن يسع علمه كل الاحتمالات وخاصة كل عواقب الأمور إلى حدها الأقصى واستمرار عواقبها في الزمن.

الله سبحانه لا يخرج عن علمه أي شيء مهما كَبُر أو صَغُر، لأنه الواسع جَلَّجَلَالُهُ الذي علمه محيط بكل شيء ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[طه: 20/ 98].

إياك أن تقع في الخطأ البشري الشائع المتمثل بإسقاط فهمنا وتجربتنا عليه سبحانه، وأن تتعامل مع الواسع جَلَّجَلَالُهُ من خلال فكرك المحدود ضمن حدود المكان والزمان الذي أنت فيه، وتطلق الأحكام على غيرك ظناً منك أنه مثلاً لن يغفر لإنسان معين أو مجموعة بشرية لعظيم ذنوبهم.

الله جَلَّوَعَلَا قال عن نفسه أنه واسع المغفرة، أي إن إحاطته وعلمه بملابسات الذنب وعواقبه عبر الأزمنة إحاطة تامة شاملة، يسع أيَّ أمرٍ ويعرف ويعلم كيف ولِـمَ ولمن يغفر، وذلك لعلمه وإحاطته بكل أمر.

الواسع جَلَّجَلَالُهُ يغفر ذنوباً لا يستطيع أحد من البشر إحاطة ملابساتها وعواقبها لأنه واسع المغفرة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: 53/ 32].

كم هو ساذج وجاهل الذي يحلم بصنع جنة يخلدُ فيها إلى الأرض، وهي دار فسادٍ وفناء، ألم يقل سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: 30/ 41].

لذا إياك أن تكون بجهلٍ وسذاجةٍ ومحدوديةِ رؤيةِ من يتخذ مستقراً له في دار عبور، ولا يعلم ما المركب الذي هو فيه، ولِمَ هو فيه، وإلى أين هو ذاهبٌ به؟

إنْ تجرَّدت عن حجاب العادة الذي يعمي البصيرة، فسوف ترى أنَّ أكثر ما يميّز الأرض هو الضُّر. انظر إلى أي شيء يُترك عليها، أيّ مخلوق مهما كان جماله بالنسبة لك، إنْ سَلِمَ من المؤذيات والآفات التي تكاد لا تُحصى، لا يلبث إلا وأنْ يموتَ ويتحول إلى جيفة مرعبة مقززة. أرضٌ لا يصمدُ فيها شيء إلا ويخرب ويفنى حتى الصخر الجلمود.

والسؤال: هل صفة الضر هذه المرتبطة بالأرض ناتجة عن خلل في الخلق أم أنّها مطابقة لإرادة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ ولحكمة الحكيم العليم الذي قال عنها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 99/ 4-5].

لك أن تتصوّر مثلاً: (وحاشى لله سبحانه وتعالى عن التشبيه)، أن مَلِكاً لديه رعايا يريد أن يختارَ بعضاً منهم لمنزلة ما، وكونه حَكَماً وعَدْلاً يريد أن تكون للمختارين منهم حجة دامغة تثبت أهليتهم. فأرسل أولئك الرعايا إلى مدينة فسادُ أجوائها وموقعها ومأكلها جعلها بؤرة عُنفٍ وفساد وسفك دماء. ولك الآن أن تتصورَ مدى نبل ورقيّ ذلك الذي يصمدُ أمام هذا التأثير السلبي ويخرجُ منه ولم يهبطْ؛ بل وقد ارتقى.

تجربة الحياة الدنيا وما يصيب العبدَ فيها ممّا يصيب من امتحاناتٍ هي برمتها كي تظهرَ معدن الشخص وخفايا نفسه وحقيقة أمره، لذا جعلها سبحانه دار عبور وقال لنا على لسان نبيه صالح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 11/ 61]، وكل ذلك لتصل إلى غاية ومنتهى تجربة الحياة الدنيا وهي معرفة الله القريب المجيب جَلَّجَلَالُهُ وتقدست أسماؤه، وهذا هو المعنى الحقيقي لوجودك على هذه الأرض.



أي ذنب تقع به هو خطأ يتجسد في مخالفة الأوامر الإلهية ومخالفة النظام الكوني، وخطورة أي ذنب قد يحدث معك تكمن فيه عواقب تبعاته ونتائجه التي لا تقف عند نقطة محددة بل تسري عبر الزمن، والشاهد على ذلك قول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» [صحيح البخاري: 3088].

فأي ذنب كان استمرار تبعاته على المدى البعيد يمكن تشبيهه بكرة ثلج صغيرة على المنحدر وكيف تصبح هائلة أسفله.

ولا أحد يستطيع إيقاف هذه السلسلة التصاعدية الرهيبة للخطأ وعواقبه ونتائجه إلا الله الغفار جَلَّ جَلَالُهُ، لأن المغفرة هي إيقاف نتائج وعواقب انتشار الذنب وإلغاؤها عبر الزمن.

كن على يقين أنه مهما كانت الذنوب عظيمة فإن الغفار جَلَّ جَلَالُهُ مغفرته أعظم، ولا أدلُّ على ذلك من قوله تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 71/ 10].

وإن أحببتَ أن تنال مغفرة الغفار جَلَّ جَلَالُهُ وتُمحى نتائج وعواقب ذنوبك عبر الزمن، فبادر بالتوبة وجدد إيمانك واعمل صالحاً عسى أن يشملك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: 20/ 82].

توجه إلى الله بالدعاء وطلب المغفرة فقد جاء في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي» [سنن الترمذي: 3463].

وعليك أن تنصت وتلتزم لنصيحة نبينا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [سنن أبي داود: 1297].

ليكنْ مِنْ حَوْلِكَ دائماً صُحبة صالحة يدلونك على الله جَلَّجَلَالُهُ، وإياك وجليس السوء، فقد شبه نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الجليس الصالح بحامل المسك وقال عنه: «فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً» وشبه جليس السوء بنافخ الكير: «وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً» [صحيح البخاري: 5108].

الناس الذين يرتكبون خطأً معيناً يسعون جاهدين أن يفعله معهم جميع الناس، وهذا يعطي طمأنينة لهم بأنهم ليسوا وحدهم المخطئين، وهؤلاء هم من وصفهم نبينا بجليس السوء.

خطورة التواصل مع هؤلاء الناس لا تنتهي في الحياة الدنيا بل تمتد إلى الآخرة لتنقلب عداوة كما أخبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 43/ 67].

ولعل أخطر صحبة سيئة تجدها في قصة ذاك الرجل الذي تأثر ذات يوم بكلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكاد يصل إلى سبيل الهداية وإلى ذكر الله الحقيقي، ولكن منعه من ذلك أقرب أصدقائه قائلاً له: أقسمت عليك بما بيننا من الصداقة ألا تفعل، وأخذ يُلحّ عليه بشكل شديد حتى تراجع عن تلك الفكرة، بل و ذهب ذاك الرجل إلى رسول الله وآذاه بأقبح الأفعال ليثبت لصاحبه حُسن صداقته، ولأهمية تلك القصة جعلها سبحانه في كتابه الكريم مخبراً إيانا عن ذاك الرجل وما آل إليه بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 25/ 27ـ29].

حتى الذين هم بعيدون كل البعد عن الله جَلَّجَلَالُهُ وجمعت المودة بينهم في الحياة الدنيا على الوثنية والكفر، فحالهم وما آلوا إليه وصفه سبحانه لنا بذلك الحوار بين سيدنا إبراهيم وقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[العنكبوت: 29/ 25]، وكل الود وصحبة الناس السيئين ستنقلب يوم القيامة إلى خصام وتبادل للاتهامات فيما بينهم، وهذا من الحقائق التي لا خلاف عليها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[ص: 38/ 64].

إياك إن أخطأت أو أذنبت أن يتسلل إليك اليأس والقنوط بأنك لن يُغفر لك... سبحانه هو الغفور جَلَّجَلَالُهُ ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: 39/ 53]، وهذه المغفرة منه رحمة كما يشهد على ذلك آيات كثيرة في كتابه الكريم اقترنت فيها المغفرة بالرحمة.

الله سبحانه هو الذي خلق المكلفين وهو أدرى أنهم يخطئون، لذا ميزهم عن بقية خلقه بالمغفرة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[القصص: 28/ 16]، فهو الغفور جَلَّجَلَالُهُ يغفر وداً وحباً ورحمةً بعباده، ليس هذا فحسب بل هذه المغفرة ينتج عنها إيقاف تبعات الخطأ أو الذنب، وعواقبه في الزمان.

الغفور جَلَّجَلَالُهُ يغفر وداً وحباً ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: 85/ 14] ، ورحمةً بعباده جعل هذه المغفرة سبباً لإيقاف مسلسل المآسي والرعب المتصاعد والمتفاقم للذنب والخطأ.

لذا اعملِ الصالحات لتكون من الأوابين الذين قال عنهم سبحانه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾[الإسراء: 17/ 25] ، والأوابون هم توابون يسارعون ويهرعون بالعودة إلى الله حباً. لأن الذي يدفع الأوابين بالعودة إلى الله أكثر من حبهم لله هو حب الله لهم سبحانه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: 5/ 54].

وكن على يقين أنه مهما عظمت ذنوب العباد فمغفرة الغفور جَلَّجَلَالُهُ أعظم، ولا أحد غيره سبحانه أقوى بجبروته وقهره يستطيع إيقاف عواقب وتبعات الأخطاء والذنوب.



مهما توغلت في فهم كتاب الله سبحانه تجد نفسك أمامه مرة ثانية وكأنك بدأت من جديد، ولتتابع بشكل صحيح في توغلك وفهمك للكتاب الذي قال عنه من أُنزِلَ عليه: «لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ» [سنن الترمذي: 2831] لا بد لك من أدوات ولا غنى لك عنها، من هذه الأدوات تدبر معاني اللغة العربية ومعرفة مصطلحاتها؛ ومراجعة التفاسير وما ورد فيها من أحاديث المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأسباب النزول واجتهاد المفسرين.

ولحسن تدبر القرآن والدخول في رحاب آياته، والتوغل فيها، لا بد أن تكون نفسك في حال الشوق والافتقار إلى الله تعالى، وأن تطلب منه جَلَّجَلَالُهُ أن يفهمك تلك المعاني ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 21/ 79]، وأن تُخْرِجَ نفسك من الاكتفاء والاعتياد وتلبد الحس فهي تحجبك عن الفهم وكل فتوح جديد يمن الله به عليك.

لا يمكن لك متابعة توغلك في معاني كلمات الله تعالى إن لم تكن دائم النباهة والدهشة لكل ما تحصِّلهُ، وهذا لابد له من تنمية أحاسيسك وردود فعلك بما يتناسب مع تلك الكلمات وعظمة قائلها.

فمثلاً كلمة يشاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 76/ 30]، كلمة قوية جداً يجب أن يكون لها وقع رهبة وإجلال وخوف وخشية في قلبك لأن المشيئة لله وحده، والأدلة على ذلك كثيرة وهذه الكلمة هي مثال لباقي كلماته سبحانه، ومنها كلمة الأرض والسماوات يجب أن يصاحب تفاعلك معها بما يليق بالذي قال في وصفها جَلَّجَلَالُهُ في إحدى آياته: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 19/ 93]. عليك عند البحث في معاني كلماته سبحانه أن يتفاعل وجدانك ونفسك وعقلك تفاعلاً مناسباً ولائقاً مع كلمات الذي قال:﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 16/ 40]، وأن تكون واعياً بالقدرة والإرادة الإلهية الموجودة في كل كلمة من كلماته جَلَّوَعَلَا.



إذا أدركت وفهمت ووعيت خطورة ما للخطأ وللذنب من تبعات، تجد رحمة من الله تعالى أن جعل لك مخرجاً للخطأ أو الذنب وفتح لك باب التوبة إليه، لأنه التواب جَلَّجَلَالُهُ الذي كتب على نفسه الرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: 6/ 54].

إن كان ثمة ذنب فباب التوبة مفتوح أمامك، وشرط الدخول فيه أن تبادر وتطلب التوبة من التواب جَلَّجَلَالُهُ، وتتعهد وتلتزم بعدم المعاودة إلى الذنب أو الخطأ، عندها يكون التواب جَلَّجَلَالُهُ بتوبتك قد غفر لك رحمة منه، فلا يحاسبك ولا يعاقبك على ذنبك، لأن الرحمة ليست جانباً من التوبة، بل التوبة جانب من الرحمة؛ كما في قوله سبحانه:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: 2/ 160].

إن فتح لك التواب جَلَّجَلَالُهُ أبواب الرحمة والتوبة تصبح مدركاً لما في الذنوب من وحشة ظلام البعد عن أنس أنوار رضا الله، فيلين قلبك ويتواضع ويتأجج حباً وتعلقاً به سبحانه وامتناناً للذي تاب عليك، وتصير مميّزاً للخطأ والصواب، وتصبح من الذين قال عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: 2/ 222].

انظر كيف أن باب التوبة يُغلق في الدنيا بطلوع الشمس من مغربها، إذاً لا توبة بعدها! فمن يترك التوبة إلا ضالٌّ هالك؟ وأي عاقل يعود إلى الذنوب بعد إذ خرج بالتوبة.

وإن كنت واعياً لما في الذنوب من أهوال، كن صادقاً متأججاً بالدعوة لغيرك من العباد لترك الذنوب والمعاصي، وتوجه إلى التواب جَلَّجَلَالُهُ ليتوب عليهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 9/ 118].



لا تكن عواطفك تجاه الآخرين سيلاً موسمياً وتنتهي، بل اجعلها مثل نهر عامر لا ينقطع أبداً، وهذا النهر جارٍ لا يشح، ولا يفيض، بل ينساب بتوازن وبشكل دائم لا ينضب.

العواطف ثمينة ويجب أن لا تهدرها على أناس ليسوا أهلاً لها، أو أن تضعها في غير مكانها، لأنك بذلك تقوض إحدى أهم مقومات الحياة على هذه الأرض.

إياك أن يصل بك الأمر ويصعب عليك التحكم بعواطفك تجاه من حولك، فتارة تغرقهم بها وتارة تقطعها عنهم، لأن ذلك يوصلهم إلى حافة الهاوية، ولا حَلَّ لكل ذلك سوى يقينك أن عواطفك وعواطف الخلق كلهم بيد الله جَلَّجَلَالُهُ، وهو الذي يمنح أي عاطفة كانت.

مهما حاولت أن تجد عاطفة تجاه شخص لا تحبه فلن تفلح أبداً لأن «قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» [صحيح مسلم: 4798]، هذا ما أخبر به نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

إن شاء سبحانه أطلق عواطفك تجاه الخلق فتحبهم، وإن شاء أمسكها فلا تجد سبيلاً لمحبتهم. لذا فما الفائدة من أن تنظر إلى أسباب العاطفة وتترك المسبب لها جَلَّوَعَلَا، الذي وصف أقواماً في كتابه الكريم قائلاً: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 5/ 54].

اجعل عواطفك عند الله جَلَّجَلَالُهُ وهذا مكانها المناسب، فهو المعطي لها أصلاً، وتوجه إليه بدعاء سيدنا دواد عَلَيْهِٱلسَّلَامُ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي» [سنن الترمذي: 3412]؛ وبذلك تصل إلى توازن عاطفي ما أحوجك إليه في زمن طغت عليه المادة.

احرص على الأوقات المباركة، تلك التي يمن بها الله سبحانه على عباده بفضل ومحض الكرم الإلهي بالعفو عن الذنوب، كليلة القدر والأسحار وغيرها من الأوقات المعروفة التي دلنا عليها نبينا، لأن العفوّ جَلَّجَلَالُهُ يعفو فيها بمحض كرمه وفضله، ودون أي طلب من العبد، ودون استحقاق أو مقابل لعمل عمله ذاك العبد حتى ينال عفو الله سبحانه، بل بمحض رحمة وكرم الله جَلَّوَعَلَا.

إذ لا علاقة بين الخطأ أو الذنب وما يترتب عليه من عقاب أو قصاص، وبين العفو الذي هو قرار حرّ من العَفُوِّ الغفور جَلَّجَلَالُهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 4/ 43].

ويجب أن لا يغيب عن ذهنك أن عفوه سبحانه هو عدم محاسبة على الخطأ، من غير موقف أو مبادرة من المذنب أو الظالم بل بمحض الكرم والرحمة، فهو وحده أدرى بسرائر خلقه، وعفوه جَلَّجَلَالُهُ هو دائماً في محله تماماً، وإن كان العفو عن مذنب أو ظالم؛ إذ إنه سبحانه العليم الحكيم الخبير العدل، وحين يعفو عن عباده هو أدرى بسرائرهم وطوايا نفوسهم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 2/ 52].

وإذا أردت عَفْوَ العَفُوِّ جَلَّجَلَالُهُ فكن مع عباده متسامحاً، واعفُ عنهم إن هم أساؤوا إليك رجاء وافتقار أن يشملك العَفُوُّ جَلَّجَلَالُهُ بعفوه، وتكون من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 3/ 134].

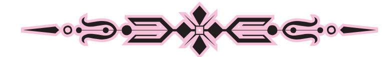
العفو يزيدك عزّاً كما أخبر نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» [صحيح مسلم: 4689]، فكلما عفوتَ ازددت عزّاً عند الله تعالى وكان لك الأجر العظيم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 42/ 40].



مهما كان عندك من ملكات ذهنية ومادية، ومهما كنت في مكان رفيع، إن لم يكن الله سبحانه مهيمناً وحاضراً في قلبك، وهو الدليل والمرجع في كل عمل تعمله، فأنت من الغافلين، وتعظيم أي شيء أو أي أمر هو غفلة عن الله سبحانه.

والحل الأمثل كي لا تكون من الغافلين أن تستفيد من كل طاقاتك التي أعطاك الله إياها، وأن تنظر إلى سُلَّم الأولويات وأيها الأهم في حياتك، وأي شيء يجب أن تبدأ به يومك؟ ونفسك عندما تكون جاهزة مع الله دائماً وتقول: لبيك اللهم، فإنك ترى بقية الأمور جانبية ولا يبقى مشكلة في حياتك أبداً، وعندها إن شاء وتكرم سبحانه يساعدك ولا تبقى عبداً إلا لله وحده، ولتكون نفسك على أحسن حال يجب ألا يغيب ذكر الله سبحانه عنك منذ لحظة الاستيقاظ وحتى ساعة النوم.

عالج نفسك واجمع شتاتها حتى تصل إلى تطابق بين اعتقادك ونفسك، وإياك والإكراه فإنه يزيد نفسك بعثرة وتمزقاً. وعليك أن تبحث عن قناعة داخلية، جداً عميقة، وأن تقود نفسك بحكمة وروية حتى تصل بها إلى النور الإلهي الذي يمدها بطاقة خلَّاقة، لا تلبث إلا وتجد أن كل أجزائها قد جمعها نوره سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[النور: 24/ 35]، وعليك ألا تهمل شيئاً في نفسك ذلك لأن نوره سبحانه إن غاب عنها ترهلت وتخلخلت؛ لأن الحياة بدون نوره سبحانه هي كغرفة مظلمة وأنت تبحث عن مفتاح ضوء يضيئها، وكيف تصل إليه إن لم يكن لديك نور تهتدي به ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: 24/ 40]. فهو سبحانه النور الذي يدلك على الطريق القويم، ضمن لا نهاية من طرق تقف على مفارقها كل يوم، وليكن قدوتك نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقد كان يسأل ويتوجه إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ قائلاً: «اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً» [سنن الترمذي: 3341].



كان من أخلاق نبينا ﷺ أنه لا ينتقم لنفسه أبداً:

«عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، حَتَّى يُنْتَهَكَ مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ لله» [صحيح البخاري: 6347].

والمنتقم جَلَّ جَلَالُهُ الحق هو الله وحده ولا أحد غيره، لأنه سبحانه يمهل كلّ من انتهك حرماته ويضعه أمام بابين أحدهما يقود إلى التواب سبحانه والثاني يقود إلى المنتقم جَلَّ جَلَالُهُ، وترك له حرية الاختيار ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: 18/ 29].

أما إن تردد عندما خيره سبحانه بين الهداية والشقاء، وعندما ذَكَّرَه بآياته فأعرض عنها وظلم نفسه، فعندها يكون واقفاً على باب المنتقم جَلَّ جَلَالُهُ الذي هو اختاره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 32/ 22].

انظر كيف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعاقب المذنب في الحياة الدنيا رحمة به، لأن العقاب يكفر عنه الذنب، وهذا من العدل الإلهي كما في حدّ الزنى أو السرقة أو القتل، فإنها تعفي صاحبها من عذاب الآخرة.

أما الانتقام فإنه لا يكفّر الذنب، لأن صاحبه قد أجرم في حق نفسه عندما ترك باب التوبة المفتوح مصراً على إجرامه وانتهاكه لحرمات الله سبحانه، عندها ينتقم جَلَّ جَلَالُهُ منه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 30/ 47] ، وهنا الفارق الأساسي بين العقاب والانتقام الإلهي في الدنيا، وهذا ما يغيب عن أذهان كثيرٍ من الناس.

وهذه قصة سيدنا نوح مع قومه هي عبرة لكل من فتح الله له باب التوبة فأعرض عنها وانتهك حرماته، وفاتته فرصة الهداية، واختار العقاب الإلهي بملء إرادته:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: 11/ 32].

وكانت نتيجة ذلك الخيار الذي اختاره قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 136].

لا ينبغي لك أن تنظر إلى قصصِ الأقوام المذكورين في القرآن الكريم، مثل قوم نوح أو عاد أو ثمود أو فرعون، وكأنك تقرأ لكاتبٍ يستشهد بقصصٍ أو أحداثٍ واقعيةٍ، ليبين لقارئه صحة الفكرة التي يطرحها، إذ شتان بين ما ذكره الله جَلَّجَلَالُهُ لأحداثٍ في كتابه الكريم قال عنها: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 12/ 3] وبين استشهاد مخلوق بحدث على أرض الواقع.

مثلاً قصة سيدنا موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ والخضر في سورة الكهف، ليست «مجرد» تقرير «بما» جرى اختاره سبحانه للاعتبار منه فقط، بل كل ما جرى في تلك القصة وكل ما قيل، هو مُعَدٌّ أصلاً ليكون في كتاب الله الكريم، بما في ذلك من انتقاء الشخصيات وحتى أسمائهم.

القصص التي ذكرها سبحانه لها أبعادٌ رمزيةٌ، لا بد لك من تدبرها، لذا ينبغي عليك أنْ تتأملَ وتعتبرَ من قصص: سيدنا آدم، وإبليس، وابني آدم (هابيل وقابيل) وسيدنا يوسف وإخوته كما طُرحَتْ في القرآن الكريم، لأنك إن فهمت وأدركت الرموز والإشارات الأساسية فيها، تكون قد خطوت خطوات في الطريق نحو المعرفة المطروحة في القرآن الكريم والتي لا غنى لك عنها أبداً، هذه هي المعرفة الحقّ التي تساعدك على تطوير نفسك نحو الأفضل والثبات بها على ذلك، لأن النفوس الإنسانية التي تعيش في هذا العالم، عالم الزمان والمكان هي في تغيّر دائم وأحوال متبدّلة، سبحان مقلب القلوب.

هذا العالم فيه مفهوم القبلية والبعدية عالم يمكن لك فيه من أن ترتقي وتحوّل نفسك نحو الأفضل أو عكس ذلك، أما في عالم الآخرة فيثبت كل شيء، لذا إياك أن تُضَيِّعَ فرصة الحياة الدنيا وتكون مثل أولئك الذين لم يعتبروا ممَّن ذكرهم سبحانه في قصص كتابه الكريم وقال عنهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾

[الكهف: 18/ 103-105].



الذي يقدم ويؤخر في حياة الخلق على هذه الأرض هو الله سبحانه لأنه المقدم والمؤخر جَلَّجَلَالُهُ، ولا أدل على ذلك من قصة عزير في القرآن الكريم عندما كان فتىً، من كان يستطيع أن يحدد لحظة وفاته الأخيرة.

كذلك الفتية في سورة الكهف من كان يتوقع وفاتهم بعد أكثر من ثلاث مئة عام؟

انظر في التقديم والتأخير في حياة سيدنا عيسى، وانظر كيف رفع، وأن موته عَلَيْهِٱلسَّلَامُ سيكون في آخر الزمان.

حتى قيام الساعة لا يعلمها أحد من خلقه ولا حتى أنبياؤه، وهم أهل النبوة أي الإخبار بما سيكون، لا يعلمونها ولا حتى الملائكة ولا حتى سيدنا جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، يقدمها سبحانه ويؤخرها كيفما شاء ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 7/ 34].

العقل البشري الذي يخوض في مسائل الوجود والإرادة الإلهية، قد يظن أن الأمور بعد إذ أوجدها سبحانه وجعل لها قوانينها صارت تسير من تلقاء نفسها إلى أن يوقفها سبحانه... إياك أن تظن ذلك!

كلّ ما يحدث، لا يحدث حتماً وإنما يحدث كما شاء سبحانه له، يقدمه ويؤخره كيف يشاء ولا يعلم أحد من خلقه متى يكون، كذلك ترتيب الخلق ليس تلقائياً، وإنما مطابقاً لإرادته سبحانه، فهو الذي يسيطر على الزمن الذي خلقه أصلاً، وهو منزّه عنه، لذا هو وحده المقدم والمؤخر جَلَّجَلَالُهُ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: 34/ 30].

وإن أردتَ مغفرة الذنوب ما تقدم منها وما تأخر، فتوجه إلى الله سبحانه بدعاء سيدنا النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [صحيح البخاري: 5919].



الله جَلَّجَلَالُهُ أعطاك طاقة الحياة، وهذه الطاقة هي طبقات أعلاها الطاقة الذهنية، ومركزها هو الدماغ، وهي أساس حياتك الدنيا، لأنه سبحانه جعل في الدماغ العقل والحواس الخمس، إضافة إلى العواطف والمشاعر والأحاسيس.

وأهم عمل جعله سبحانه للدماغ هو الصلة بين العالمين المادي واللامادي، وهذا العمل بين العالمين يحتاج إلى طاقة ذهنية، وهذه الطاقة هي التي يجب عليك توظيفها بشكلها الأمثل.

يبدأ هذا التوظيف بإيقاف ضجيج الدماغ لأنه هدر لها، وإيقاف الأفكار السلبية وتداعياتها، وكذلك الأفكار التي لا معنى لها.

إيقاف ضجيج الدماغ يحتاج منك إلى التركيز وضبط النفس دون تشنج، والانتباه إلى أن أية فكرة كانت لا بد وأن تأخذ حيزاً من الدماغ وتخلق مداراً معيناً لها، وأنت إن أعطيتها أهمية أخذت من طاقة دماغك وتثبتت، حتى وإن غابت عنك بفكرة جديدة إلا أنها سوف تعود، وكلما عادت واستغرقت فيها تزداد قوة واستهلاكاً للطاقة الذهنية، ثم تغيب لتعود من جديد أقوى، وكلما غذيتها بالطاقة كبرت إن سلباً أو إيجاباً، وعلى العكس من ذلك كلما أهملت الفكرة تتضاءلت وانتهت، حتى وإن عادت يمكن أن تعطي لها موعداً في يوم معين وساعة معينة، والعجيب أنها تعود. والأعجب من ذلك إن أقنعتها أن لا تعود فإنها تتلاشى.

والحل الأمثل للخروج من كل أنواع الضجيج الدماغي والذي هو آفة الزمان الذي نعيشه، هو الثبات على أوراد وأذكار تناسب نفسك وتطمئن بها.

وقد تفضل سبحانه عليك بالكثير: ﴿مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 3/ 58]، وهذه الآيات والذكر الحكيم أفكارها إيجابية، والأهم أن طاقتها إلهية توصلك إلى طمأنينة نفسك، لأنها تعود بك إلى من منحك طاقة الحياة أصلاً، وكم هو شيء رائع أن وعد سبحانه من يذكره بطمأنينة القلب قائلاً: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 13/ 28].



انظر إلى أهل الدنيا، تجد أن عامة البسطاء ـ وهم الكثرة ـ حالهم حال الضعف، وعظيمي الشأن هم القلة القليلة وحالهم الظاهر حال القوة.

الضعيف دائماً يطمح للقوة ويشعر بحاجة لها وهذا الطموح يدفعه إلى إرضاء القوي، وذلك بتعظيم أفعاله وصفاته، بعبارة أخرى التأكيد والمبالغة في ذكر أمجاده، فكم من ألوف زجت في الشوارع لتهتف معظمة أمجاد فلان من الناس، وكم ذلك شائع ولكنه مذري وفيه نفاق وإذلال.

المجيد جَلَّجَلَالُهُ هو الله، والمجد الحق له وحده، ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: 85/ 15].

وهو سبحانه أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، الوحيد الحري بالتمجيد وبأن تُعظّم أفعاله ومآثره وتبجّل صفاته، لأنها صفات متأصلة، ومجده سبحانه فيه عظمة الأفعال والصفات، أي إنه مجد كلّي لا سطحي، مجد أبدي.

المجيد جَلَّجَلَالُهُ حقاً هو الله. فما أمجاد أيٍّ من الخلق مهما عظمت بالنسبة والتناسب لمجد الله؟ وهي كنسبة العدم للكل؛ حيث أن سواه سبحانه بذلك معدوم!.

إياك أن تسترسل بمناجاة خالقك كما قد يصدر من شطط أو جنوح عند بعض الناس، فتعتبر المجيد جَلَّجَلَالُهُ كأنه صاحب أو خليل، ترفع الكلفة معه لأنه سبحانه ودود. ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: 85/ 14-15].

هيبة وعظمة ومجد ذلك الودود يعلّمك أن التودد إليه يكون بتمجيده سبحانه. وهذا التمجيد أساسي لا بدّ منه، تكرره كلّ يوم في الصلوات الإبراهيمية بقولك:

«في العالمين إنك حميد مجيد».



إياك أن تعظم نفسكَ إن كنت ممن أكرمه الله جَلَّجَلَالُهُ بتعليم القرآن الكريم ويصبح حالك كالذي يتميّز عن غيره بما عنده من علم عَلَّمَه إيَّاه سبحانه، ويلتبس الأمر عليك، فتظن أن عظمة المهمة والمدد الذي أتاك من القرآن الكريم، ما هو إلا دليل على عظمة نفسك، والأخطر من ذلك أن تقف عند تعظيم نفسك، وتنسى تعظيم كلام الله، لأنك عندئذ ستكون مثل بني إسرائيل خاصةً، الذين جعلهم الله سبحانه عبرة وإلى آخر الزمان عندما فضّلهم الله على العالمين، وميّزهم عمن سواهم لا بشخصهم بل بفضله الذي منَّ به عليهم عندما آتاهم الكتاب وحمّلهم التوراة. ولكنهم توهموا أنهم وصلوا وحظوا بالمكانة العالية ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ...﴾ [المائدة: 5/ 18]، إياك أن تكون على نهجهم ولسان حالك يقول ما سبق وقالوا مدَّعين: ﴿...سَيُغْفَرُ لَنَا...﴾ و﴿...لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾! وتحسب أنك من أهل النجاة والامتياز، ولا تدري أن تميّزك بما آتاك الله من فضله يوجب عليك مضاعفة جهودك أضعافاً مضاعفةً لحمل الأمانة التي قال عنها سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 33/ 72].

تذكر دائماً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 35/ 15-17]، ولا تنسى أن الله جَلَّجَلَالُهُ هو بكل شيء عليم وهو مالك الملك، الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، والذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، واجعل نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قدوتكَ في تعليمِكَ للقرآن الكريم، فقد جعل الله نفسه الشريفة بريئة من علل أهل الكتاب في تعظيمهم أنفسهم، وقد حدث عنه أصحابه «أن رَجُلاً أتاه فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ». فَقَال له: «هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» [سنن ابن ماجه: 3303].



مهما حصل لك من إحسان أو عطاء أي امرئ كان، فكن في قرارة نفسك حامداً لله وأحسن الأدب والتصرف معه سبحانه، وتيقن أن ما جاء به أيُّ امرئ من عطاء لك ما هو إلا عطاء الله وإحسانه أصلاً، فهو الحميد جَلَّجَلَالُهُ حريّ حقاً أن يُحمد أولاً، إذ إنه هو صاحب الفضائل كلها، وهو الذي يمنُّ ولا يُمنُّ عليه.

واعلم أن الذي ينبغي بالحقيقة حمده وذكر فضائله والتوجه إليه بالحمد، وهو غني عنه، ليس العبد بل الربّ جَلَّجَلَالُهُ، لأن أفضاله حقيقية ذكرها العباد أم لم يذكروها ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 2/ 267].

ما أعظم ذنب زعماء الأرض من كافة الأصناف، أمثال فرعون ومن كان على شاكلته، الذين لا يعملون شيئاً ولا يقدِّمون أي خير للآخرين، وبذات الوقت يسعون لنيل الامتنان وحمد الناس لهم، حتى تصير أُمة بكاملها تشيد بفضل ومآثر ومناقب أولئك الزعماء الذي ليس لهم من الزعامة إلا زعمهم لأنفسهم ما ليس منها. ما أخطر حالهم الذي عبَّر عنها سبحانه بقوله: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة: 2/ 267].

إن جعلك الله في موقع العطاء للآخرين فتيقن بأن الحميد جَلَّجَلَالُهُ له الحمد وليس لك، وانفِ عن نفسك الفضل وانسبه إلى الله، وإياك أن تَكْبُرَ نفسكَ بالمنِّ على غيرك وتقبل الامتنان والحمد منهم، إذ لا ينبغي أن يكون ذلك إلا لله.

ما أجمل أن يكون حال المعطين والآخذين حال الاعتراف بالفضل لله الحميد جَلَّجَلَالُهُ، لأنهم بذلك تصفو نفوسهم ويصبحون سواسية في فقرهم إلى الله، إذ الآخذ لا يأخذ في الحقيقة إلا من الله والمعطي في الحقيقة ليس سوى الله. والكلّ مفتقر إليه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: 35/ 15]، وإن كان حال المعطين وحال الآخذين كذلك، فما أصفى نفوسهم، وأيّ كرامة هم فيها.

توجه إلى الله الحميد جَلَّجَلَالُهُ بالفضل والحمد والامتنان، لأنه منَّ على البشرية بنبي كريم جعل فيه خير الشمائل فكان محموداً ومحمداً.

عليك أن تميّزَ بين حالٍ نفسي وحالٍ حقيقي مع الله جَلَّجَلَالُهُ.

الحال النفسي هو الجو الذي تهيئه أثناء صلتك بالله جَلَّوَعَلَا من خلال أي عبادة أو عمل تعمله له، ويتولد عن ذلك حسٌّ نفسي معين؛ ونتيجة كل ذلك أنك مسرور من نفسك، وطروب بها وتشعر بالرضا، وكأن في داخلك جمهوراً وهمياً يصفق لك ويثني عليك، وحالك مثل ممثل يقوم بدوره على خشبة مسرح، وهنا السؤال: هل هذا حال حقيقي؟

الحال الحقيقي أن تعي أنَّ أي أمر تقوم به لله تعالى تبعاته هناك في العالم الآخر وليس في عالمنا، وقد نَبَّه إلى ذلك نبينا عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ بقوله: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [صحيح مسلم: 3527].

والأصل أن تبني قناعتك بأن الله هو الحق وما أحوجني إلى صلة به، وأي شعور به سبحانه هو شيء عابر في هذه الدنيا، والأصل هو الشعور الدائم بالفقر إليه سبحانه، والشوق إلى لقائه، وهذا لا يكون إلا بالصدق مع النفس والصدق مع الآخرين والصدق مع الله خاصةً، وعدم القيام بأي عمل لله تعالى إلا من بعد التحسب لكل تبعاته على المدى البعيد، وخاصةً الأقصى، أي في الآخرة عند الحساب، أي عدم القيام بأية عمل إلا من بعد أن تتوخى فيه رضا الله.

يجب عليك أن تعيد تصوراتك عن العبادات، وعمّا يتأتى عنها من أحوال معينة، وهل هي سرورك ورضاك عن نفسك أم هو رضا الله تعالى، والأساس الذي تُقَوِّمُ عليه كل أمورك هو توجهك لله الواحد الأحد العزيز الجبار المنتقم القهار الذي إليه المصير سبحانه، والمهم في كل ذلك هو أن تصل إلى الذين قال عنهم سبحانه: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: 98/ 8].

إياك أن تتبع طرقاً ملتوية أو تتنازل عن مبادئك وقيمك طلباً لتحصيل أمجاد الدنيا، لأنك في الحقيقة تبحث عن مكانة لك لتكون لك أهمية بين الناس، وعندها تكون فقيراً في نفسك محتاجاً لغيرك.

انظر إلى أين تؤدي طموحات المجد في انحرافات النفس البشرية، فالبحث عن المجد قد يكون سبب هلاك أمم وشعوب وليس هلاك أفراد فقط، فكم من أشخاص كرّسوا حياتهم لتحقيق الأمجاد، ثم ماتوا كما يموت أيّ إنسان، ودفنوا ولم يبقَ لهم أي ذكر، لأنه بالموت تزول أمجاد الدنيا، ولم تنفعهم التماثيل المقامة على شرفهم والشوارع التي تحمل أسماءهم أو كونهم دفنوا في مقابر العظماء. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 3/ 185].

إن أنعم الله عليك بالمجد فعليك بالتواضع للآخرين وإياك أن يصيبك الغرور، وكن على يقين أن المجد بيد الله والماجد جَلَّجَلَالُهُ هو الذي بيده كلّ المجد يفيض به على من يشاء من عباده، يمنحه ويمنعه كيف يشاء، إن كنت عالماً بذلك فلا تتحرك نفسك حسداً لرؤية أمجاد الآخرين، بل تجد في ذلك تجلياً لإرادة الماجد جَلَّجَلَالُهُ وتثق به. فكما يشاء لأحد من خلقه مجداً كذلك يجرّده منه، أو قد يكون منحه المجد لأحد عباده استدراجاً أو عطاءً أو امتحاناً، فهو سبحانه الحكيم والعليم الخبير بعباده وبسرائرهم.

عندما تجتمع نفسك مع نفوس كلها يقين أن كل المجد بيد الماجد جَلَّجَلَالُهُ يمنحه ويمنعه كيف يشاء، أنفس غير آبهة بمحدودية طموحات أهل الدنيا، متوجهة بعملها وسعيها نحو سمو روحي إلى الله الكريم، الذي وحده يعطي ويمنع، وحده الذي يرفع من يشاء من عباده، عندها تنتهي الأنفس من عقدة السعي والعمل لأمجاد الدنيا وتحصيلها، وتتجه للمصلحة الجماعية وللحياة الأبدية. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: 35/ 5].

إن كان الشيطان قد اعترض سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثلاثاً ليمنعه عن الامتثال لأمر الله في ذبح سيدنا إسماعيل.

هذا عن الأنبياء، والذين خصهم سبحانه بالعصمة نظراً لخطورة مهمتهم في نقل رسالته، فليس للشيطان عليهم من سبيل. فما بالك في سائر الخلق الذين أنت منهم، فهُم عرضة لكيد الشيطان إلى آخر لحظة من حياتهم الدنيا، ولا مهرب من ذلك أبداً.

انظر ماذا قال الشيطان بعد أن أبى أن يمتثل لأمر الله بالسجود لآدم: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 7/ 16-17].

لا يعترض الشيطان من هم بعيدون عن الطريق إلى الله. فهم لا يشعرون به، ويعتبرونه اختراعاً من اختراعات رجال الدين ليخوفوا به البسطاء. إنما يعترض الشيطانُ من يرتقي روحياً، ابتداءً بأنواع الإغراءات والملهيات، ثم الغرور والادعاء. فإن لم ينجح، فأشكال وألوان المنغصات والعقبات والضغوط، إلى أن يظهر للمرء في نومه، وأخيراً عياناً، وهذا ما فعله مع نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فقد حدث عنه قائلاً: «إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» [صحيح مسلم: 843].

كلما تقدم المرء روحياً اشتدت حملة الشيطان عليه، وهذا ما توعد به عندما أمره الله سبحانه بالسجود لآدم ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: 15/ 39-40]. وكان جواب الله تعالى له بعد ذلك ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: 15/ 42]، فكن من عباد الله المخلصين ولن يكون للشيطان عليك سبيل.



عليك بالالتجاء إلى الله فهو الحسيب جَلَّجَلَالُهُ، وليكن ﴿حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: 8/ 62] في كلّ أمر من أمورك، وضع ثقتك التامة في ترتيبه سبحانه، لأنك إن التجئت إليه تكون قد اقتربت منه سبحانه، ومن اقترب من الله أصبح في الحضرة الربانية ولن يستطيع أحد أن يصل إليه، فهو محفوف محاط ولن يخشى أحداً سواه أبداً، ودليل ذلك أنبياء الله الذين بلَّغوا رسالته اكتفوا بالحسيب جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: 33/ 39].

اجعلْ خشية الله في قلبك دائماً، فإن تولى الناس عنك كان الحسيب جَلَّجَلَالُهُ هو حسبك: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: 9/ 129].

إياك والاكتفاء بغير الله إطلاقاً، بل به حصراً وبالكلية، إذ عندما يكون الاكتفاء بالحسيب جَلَّجَلَالُهُ وحده حصراً وبالكلية فلن تخشى أحداً ولو اجتمع الناس كلهم عليك: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 3/ 173].

الحسيب جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يكفيك في الدنيا فهو حسبك، وتكتفي به عن غيره، ولكنه يوم الحساب هو ذاته الذي يحاسبك على دنياك، وعلى ما أعطاك وكفاك فيها.

إن التجأت إلى الحسيب فإياك أن تنسى يوم الحساب، لأنك سترد إلى ذلك اليوم وستقف بين يدي الله الحق الحكم الحسيب جَلَّجَلَالُهُ:

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: 6/ 62].

توجَّه إلى الله الحسيب جَلَّجَلَالُهُ في كلِّ صباح ومساء، كما علَّمنا نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلاً: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ» [سنن أبي داود: 4418].



لا تستهن بأي عمل تعمله هنا في عالم المادة، لأنك ستراه على حقيقته في العالم الآخر، وستجده واقعاً تعيشه، بل وستجد أن الحياة الدنيا عبارة عن مرآة لحقيقة الأعمال هناك في العالم الآخر.

إن كنت ممن يؤمن بالغيب: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 2/ 3] ونظرت من خلال معطيات الغيب التي بنيت عليها أصلاً إيمانك، ولم تنظر من خلال معطيات واقعية وإنما منظار إيماني صرف، وكنت من ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 21/ 49]، ستجد أن أي عمل هنا هو وهمي بالنسبة لحقيقة العمل هناك، أي في الآخرة.

تجرد عن عامل الزمن تجد أن هذا العالم هو المرآة التي تضع مباشرة أي عمل بنفس اللحظة في العالم الآخر والذي ينعدم فيه الزمن.

الحقيقة هناك في العالم الآخر، وعالمنا مرآة لذاك العالم، والفكرة برمتها تزامن بين عالمين أحدهما الذي تعيشه الآن، والآخر حيث يقف الزمن، والحقيقة هو العالم الآخر، والوهمي هو عالمنا.

التزامن بين عالم الزمان وعالم انعدام الزمن يجعل الإحساس عندك والوعي لخطورة أي شيء تعمله في عالم الزمان الذي أنت فيه، لأنك ستجده هناك كما قال سبحانه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾ [الكهف: 18/ 49] ،ستجده حاضراً وليس مجرد تقرير بل حقيقة فيزيائية.

لا تتمسك بأمور الحياة الدنيا لأنها برمتها صورة على مرآة، وهذه الصورة لا تنتهي بانتهاء حياتك بل هناك تبعات أعمالك ضمن الزمن، وكل ذلك سينتقل إلى واقع حقيقي تجده يوم الحساب.

ولا يتم الحساب إلا عندما تنتهي الحياة الدنيا، لأن تبعات الأعمال تستمر مع صاحبها ربما إلى آخر الزمان، وهنا تفهم قيمة الاستغفار وأهميته، لأنه باب عظيم يمكن من خلاله تغيير ومحْو أي عمل وصل إلى العالم الآخر، كذلك كل الأعمال الصالحة لها ميزات الاستغفار ذاتها، فاحرص عليها قبل فوات الأوان.



نِعَمُ الله عليك لا تعد ولا تحصى﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [النحل: 16/ 18] ونحن جميعاً عاجزون حقاً عن إحصاء نعمه سبحانه علينا، فكيف نحصي ما لا علم لنا به من نعمه على خلقه!

هو وحده المحصي جَلَّجَلَالُهُ القادر على معرفة هذه النعم وعددها بالدقة والكمال ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[الجن: 72/ 28]؛ بل والأعمال والأفعال والأقوال أحصاها سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كتاب، يدرك الناس حقيقته عندما يُرفع عنهم الحجاب ويقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾[الكهف: 18/ 49].

إحصاؤه سبحانه كلّ شيء مؤكد لك بقوله: ﴿عَدَدٗا﴾. وهو دليل على علو شاسع علمه وهيمنته المطلقة، وعلمه التام بكلّ ما أوجد لا يخرج عن هذا العلم شيء، وهذا الإحصاء ليس بالإجمال كما يكون الحال عليه بالنسبة للبشر، لأنه المحصي جَلَّجَلَالُهُ القادر وحده على أن يحصي كلّ شيء عدداً مهما كان العدد كبيراً وليس بالإجمال.

انظر إلى البشر عندما يصبح المعدود كبيراً بين أيديهم كيف يُجملون، ولا يعود ثمة فارق في عقولهم بالنسبة لتتمة العدد إن كان في العدد ما يسمى كسراً بعد الفاصلة، لك أن تتأمل في ذلك وتبحث بنفسك عن الأمثلة، وعندها تدرك عظمة هيمنته سبحانه بإحصائه وعلمه بكل دقة لما في هذا الكون من الأعمال والأقوال وكل شيء ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: 19/ 93-95].

وإن أدرك ذلك عالم بالعدد خرَّ صعقاً من عظمة قدرة الله تعالى.



الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يتميزون عن سائر البشر، بوعيٍ استثنائيٍّ، ويعرفون تماماً هول ما ينتظر الأنفس البشرية يوم القيامة إن هي ضلت وغفلت عن الحقيقة، وهذا كان حال سيدنا إبراهيم، الذي وصل به الأمر إلى مجادلة الله جَلَّ وَعَلَا في شرِّ أهل زمانه: قوم لوط! ومع أن هذا الجدال الذي كان دافعه حلم ورقة قلب سيدنا إبراهيم، إلا أن الله سبحانه أمره بتركه والإعراض عنه ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ [هود: 11/ 74-76].

إياك والجدل مع أيٍّ كان، فقد نهى عنه ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في محكم كتابه، وأكثر من ذلك فقد وعد لمن تركه الأجر والثواب كما جاء على لسان نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قوله: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً» [سنن الترمذي: 4167] والمراء: هو الجدل الذي لا طائل منه.

إن تتبعت كلمة (جَدَلَ) في القرآن الكريم تفهم من مدلول هذه الكلمة؛ أن الإنسان الذي يجادل، هو الذي استأثرت عليه نفسه وحجبته عن الحق ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال: 8/ 6] وصارت وحدها هي المرجع، وتراه يجادل من منطلقات توافق نفسه فقط ويرفض قبول أي شيء آخر، ويتجلى لك سبب عقم جداله أنه إنسان بلا علم، أو علمه ناقص، كما بين ذلك سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج: 22/ 3].

وأخطر ما في الجدل هو مع الذين يجادلون بغير علم آيات بينات من كلام الله، لأنهم في حقيقة الأمر اتبعوا وأصغوا إلى الذي سيجادلهم يوم القيامة قائلاً لهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 14/ 22]، وكم هي خسارة للإنسان إن جادل بما جاءه من الحق والبينات.



إياك والظن أن الموجودات تبقى موجودة تلقائياً طالما أنها لم تخضع لقوة تتلفها، بل ثمة قوى هائلة تبقي عليها بشكل متواصل ومستمر ودون انقطاع، وتحفظها من التلاشي أو الزوال، ولا يدرك عظمة هذه القوى إلا من تعمق في أسرار الذرة والفيزياء الفلكية.

الله الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ هو الذي بيده الإبقاء على الموجودات أو أثر الموجودات وكل شيء من التلاشي والزوال، حتى أعمال العباد هو سبحانه يحفظها من الضياع ليجدها أصحابها يوم الحساب كاملة. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 11/ 57].

تعمق شديد في أسرار المادة من المتناهي في الصغر إلى المتناهي في الكبر يقودك إلى الإيمان واليقين أن الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ بيده القوى الضابطة للمادة، وهو وحده سبحانه الذي يسيطر على انتشار المادة إلى اللانهاية أو عدمها، ويمنعها من التلاشي والزوال أو البقاء والاستمرار بشكل متواصل مع مرور الزمن ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 34/ 21].

الله سبحانه هو الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ الذي يبقي أي موجود من العودة إلى العدم، وهو وحده إن رفع حفظه عن أي موجود تلاشى وأصبح معدوماً.

حتى الكرسي والسماوات وما فيها من مادة يحفظها سبحانه من الزوال ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 255].

هو الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ الذي تكفل بحفظ كتابه الكريم من كل تحريف أو تغيير ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 15/ 9].

هو الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ الذي يحفظ أي شيء بشكل متواصل مع مرور الزمن من التلاشي والزوال من أصغر شيء في المادة إلى أكبر شيء فيها حتى أعمال العباد، وهذا الحفظ بعلوٍّ وهيمنة مطلقة ودون أي مشقة أو تعب.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 255].



الحياة الدنيا من منظار الحقيقة وضمن نسبيّة الزمن هي لحظة عابرة، كما ذكرها سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بآيات كثيرة منها قوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 17/ 52]، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: 23/ 113]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: 30/ 55].

لذا إياك أن تَغْتَرَّ بهذه الحياة الدنيا ويصل بك الأمر فتنسى الآخرة ويغيب عنك حقيقة قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ...﴾ [النحل: 16/ 107]، لأن معظمَ الذين يقرؤون هذه الآية الكريمة لا يرون فيها، وبأحسن الأحوال، إلا وعظاً عادياً أَلِفُوه عن الزهد في الدنيا، ونادراً ما يعتبرون أنفسهم معنيين بها ويبقى فهمهم للآية الكريمة فاتراً، لأنهم من منظار الظاهر يرون حب الدنيا ليس ذنباً طالما أنه لم يستأثر على صاحبه ليدفعه إلى المعاصي أو إلى التقصير في الواجبات.

ولكن إن نظرت إلى الآية الكريمة من منظار الحقيقة تجد أن الذين ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾ قد تجاهلوا حقيقة هويّتهم وماهيتهم، عندما ارتبطت حياتهم ارتباطاً وثيقاً بظاهر مادية أجسادهم، واعتقدوا خطأً أنهم ينتمون إلى عالم المادة، وهم في الحقيقة ليسوا سوى أنفس، تنتمي إلى عالم لاماديّ، وأن هويّتهم هي النفس، وماهيتهم لاماديّة وهم، قطعاً، ليسوا أجساداً فقط، بل أجسادهم بريئةٌ منهم، مستقلة عنهم وستكون شاهداً عليهم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: 24/ 24] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: 41/ 20]، وجودهم في أجسادهم وفي عالم المادة ليس سوى وجود عابر، بترتيب إلهيّ مقدّر، وبناءً على حكمة بالغة عبر عنها نبينا بقوله: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» [صحيح البخاري: 5937].



في الأعماق السحيقة للمحيطات حيث لا ضوء ولا حرارة، وحيث تستحيل الحياة بناءً على المنطق العلمي، نجد ثغرات بركانية يندفع منها ماء تزيد حرارته بحكم الضغط الشديد على 400 درجة مئوية، تعيش حوله بكتريا وكائنات صغيرة لا تُرى إلا بالمجهر تتغذى عليها كائنات أخرى، وهناك تزامن بين وفرة ذاك الغذاء ومجيء أحياء مهاجرة لتلك البقعة في أيام محددة، لتجد حاجتها من الغذاء، والأمثلة في ذلك المجال لا تحصى.

إن تأملت في ذلك وتفكرت به تجد في ذاك التكامل بين الأحياء في الأقوات ترتيباً دقيقاً وعجيباً، لأن أمر القوت هو بيد الله المقيت جَلَّجَلَالُهُ، وهو بيده ترتيب قوت خلقه لأنه سبحانه حين خلق الأرض قَدَّر فيها أقواتها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: 41/ 10].

فهو سبحانه الذي يمدّ كلّ شيء بالطاقة اللازمة له، وأيّ موجود لا يبقى موجوداً إلا بمدد الطاقة والقوة من المقيت جَلَّجَلَالُهُ؛ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴾ [النساء: 4/ 85].

الطاقة هي التي تشكل أي ذرة في هذا الكون، وإن سحبت تلك القوة أو الطاقة من أي ذرة تلاشت ولا يبقى منها شيء، وإن أوقف المُقيت جَلَّجَلَالُهُ مدد الطاقة في الأفلاك تلاشت ولا يبقى لها أثر.

إن كنت ممن له سلطة على أرزاق الآخرين فإياك التحكم بأرزاق العباد؛ وخاصة إذلالهم بالمنّ عليهم من خلال أقواتهم، فقد حذَّر من ذلك نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلاً: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ» [صحيح مسلم: 1662]، وإياكَ أن تخاف ممن قُوتُك بيده ألَّا يصلك قُوتُكَ منه، فالمقيت جَلَّجَلَالُهُ هو الله وحده.



إياك أن تقع في محدودية الدعوات العرقية أو الطائفية، واجعل انتماءك إلى دين الله الخالق جَلَّجَلَالُهُ فهو أعلم بما خلق ولِمَ خلق، وتذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 49/ 13].

انظر كيف ودّع نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الناس في حجه الأخير قائلاً:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟» [مسند أحمد: 22391]، فهو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يوجه خطابه إلى البشرية جميعها بعبارة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» كما هو في الآية الكريمة.

دين الله هو الوحيد الذي أراده سبحانه للعالمين، وأراده شاملاً لكل رسالاته متمماً ومكملاً وخاتماً لها، لذا أرسل رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى البشرية جمعاء: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 7/ 158]، وكلمة «الناس» في القرآن تعني «البشرية» في لغة معاصرينا، ولم يرسل الله سبحانه رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى العرب حصراً ليخلصهم من الوثنية، بل أرسله للناس كافة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: 34/ 28].

بذلك فإن الانتماء إلى دين الله هو انتماءٌ إلى البشرية جميعها، حتى نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو وقومه وأول من آمن به، كلهم أنفس أصلها، من عالم آخر لا مادي، عالم لا علاقة له بالمواقع الجغرافية ولا بالأجناس ولا بالأقوام، أنفسٌ رتب لها العليم الحكيم أن تولد في أجساد، وتجتمع في وقت واحد ومكان واحد، كما هو الحال بالنسبة لك ولأيٍّ منا ولمعاصرينا، أو لأيِّ نفسٍ تولد في عالمنا في الماضي وفي المستقبل.

ليكن انتماؤك دائماً إلى دين الله الخالق جَلَّجَلَالُهُ الذي قال: ﴿..إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: 49/ 13]، واحذر محدودية الدعوات العرقية أو الطائفية.

أيٌّ مِنَّا لم يكن واعياً لحظة إحيائه في الدنيا عندما كان جنيناً، ولا لحظة ولادته أو سنواته الأولى، حتى في باقي عمره ينسى أن حياته هي بمدد الحي جَلَّجَلَالُهُ. أما عندما يبعث يوم الحساب يعي تماماً أن ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[البقرة: 2/ 255]، وأن الله هو موجد كلّ حياة، لأنه يرى كيف أحياه سبحانه مباشرة ودون المرور بمراحل الحياة الدنيا، وأن أي حياة ما هي إلا بمدد من الحي جَلَّجَلَالُهُ، وأن الحياة الحقيقية والدائمة هي الحياة الآخرة.

فكن من الذين يَعون ويدركون ذلك تماماً في حياتهم الدنيا حتى تكون من الذين أخبر عنهم سبحانه: ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ ﴾ [الأنبياء: 21/ 103].

فكر بحياتك ومصيرك واغنم الصلة بالله في كلِّ صلاة تصليها، وخاصة عندما تحييه سبحانه في التشهد بقولك: (التحيات لله)، تَصَوَّرْ وأنك قد مِتَّ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: 39/ 30] لبثت في القبر، فَنيتَ، بُعثتَ، أُحييتَ فهل يغيب عنك حينئذٍ الذي أحياك؟ فلك أن تتأمل بما أخبرك به سبحانه عن الحياة الدنيا وعن الحياة في الآخرة، التي لا تكون إلا لمن كان قلبه حيّاً بصلته بالحي جَلَّجَلَالُهُ. ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [البقرة: 2/ 28].

سلِ الله أن تكون من أهل النجاة وأن يحييك الحياة الحقيقية والدائمة، فما أقوى الشعور بحقيقة الحياة عندما يحيينا الحي جَلَّجَلَالُهُ يوم الحساب، وهناك تدرك معنى أن الله هو الحيُّ وهو يُحيي ويميتُ، وأنه موجد كلّ حياة، وكل حياة ما هي إلا بمدد منه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهو بيت القصيد في البحث والتوجه إلى الحقيقة ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ ﴾ [طه: 20/ 111].

وعبّر عن امتنانك للذي أحياك سبحانه في هذه الحياة الدنيا وعَظِّمْهُ وبَجِّلْهُ، ولتكن نفسك توَّاقة إليه، عسى أن يكرمك الحي جَلَّجَلَالُهُ باسْمِ الله الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أجاب؛ فعَنْ أَنَسِ بن مالك قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جَالِساً فِي الْحَلْقَةِ وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إِنِّي أَسْأَلُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا اللهَ؟» قَالَ: فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [مسند أحمد: 13081].



هناك فارق جذري بين التشريع وبين الاجتهاد، فلا اجتهاد في نص تشريعي أمر به خالق الكون، وأمور التشريع هي حصراً بيد الله الذي أوجد الخلق كلهم.

إياك ثم إياك المَساسَ بما أحلَّ وحرَّم الله جَلَّجَلَالُهُ، لأن ذلك من حيث المبدأ وعلى الصعيد الروحي، تجرُّؤ أرعن وتَعدٍّ سافر على عظمة المشيئة والحكمة الإلهية، وهو كذلك باب كبير مفتوح على مصراعيه لخلل التوازن وللفوضى بين الناس في حياتهم وتعاملهم فيما بينهم.

ما أخطر المَساسَ بما أحل أو حرَّم الله، حتى ولو صدر ذلك عن النبي ﷺ وكان خاصاً به وبأهل بيته، ولشدة خطورة ذلك الأمر، فقد سمى سبحانه سورة بكاملها باسم سورة التحريم وجعل أول آياتها عتاب للنبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: 66/ 1] والسؤال الإلهي: ﴿...لِمَ تُحَرِّمُ...﴾ سؤال رهيب! وكأنه سبحانه يسأل نبيه على أي أساس، وبناءً على أي معطياتٍ تحرم ﴿...مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾ وذلك لمجرد ﴿...مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ...﴾ وقصة هذه السورة جلية إن بحثت عنها في الكتاب الكريم.

خطورة خطأ التعرض لشرع الله ولِما أحلَّ وحرَّم سبحانه هو خطأ خطير على الصعيد الروحي والعملي، إذ يُخرِّب صاحب هذا الخطأ صلتَه بربه ويُخِلُّ بخطئه التوازن والانسجام بين الناس فاتحاً باب فوضى متفاقمة فيما بينهم.

ظاهرة تحريم ما أحل الله سبحانه ظاهرة شائعة منذ القدم وإلى زمننا هذا، فكم من أناس طغت عليهم نفوسهم، يوهمون الناس بالتدين والتقى ويتكبرون عليهم من خلال التشدد في محرمات﴿ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد: 57/ 27]. محرمات لا يتطلب الالتزام بها كرماً ولا سمواً في النفس، بل تزيد القلب قسوة لأنها أصلاً قائمة على جهل وعلم ناقصٍ ودوافع نفسية صرفة، أناس ظنوا أن علمهم تجاوز علم الذي ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: 65/ 12] فحرموا ما أحل الله جَلَّجَلَالُهُ...لا تكن مثلهم.



احمَدِ اللهَ دائماً أن عَرَّفك سبحانه عن نفسه من خلال كتابه الكريم، وحماك من متاهات عقائد كثيرة تسللت إلى عقول البشر. فهناك مثلاً من يعتقد بأن الإله بعد إذ أوجد الخلق دخل في سبات أو نوم، وأصحاب هذا الاعتقاد يبررون ما يسمونه استراحة الإله بما يرون من أحوال في هذه الدنيا ولا يستطيعون فهمها، وتفسيرها الوحيد حسب زعمهم هو غياب الإله المؤقت راحةً أو نوماً.

هذا الاعتقاد يقود إلى أخطر منه، وهو الالتجاء إلى أوهام قوى أخرى تقوم بالأمور بغياب الإله، ولا تزال ألوف مؤلفة تعتقد بذلك، ولا تظن أنك بعيد عن مثل هذا الاعتقاد، فقد حَذَّر نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخبر عن آخر الزمان وهو زماننا قائلاً: «يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً ثُمَّ يُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ثُمَّ يُصْبِحُ كَافِراً» [مسند أحمد: 17678].

كلما تقدّم الزمن، و هو يتقدم بتسارع، ازدادت إمكانية وخطورة مثل هذه الأوهام التي تعتقد وتؤمن بها أمم وشعوب، والتي قد تتسلل إلى قلوب أهل الإيمان؛ إذ الحواجز بين الأمم و المجتمعات و الأديان تتلاشى يوماً بعد يوم، لذا عليك إن كنت ذا قلب حي أن تسأل الله سبحانه الثبات، وأن لا تترك خلقاً من خلق الله في ذاك الضلال البعيد؛ لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء؛ كما قال نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» [صحيح مسلم: 4798].

انظر كيف منَّ الله علينا فعرفنا أنه القيوم جَلَّ جَلَالُهُ حين قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾..! يليه مباشرة: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾. بهذا الكلام بيّن لنا سبحانه أنه هو وحده القيوم جَلَّ جَلَالُهُ، وهو قائم غير مستلق ولا نائم، مهيمن مسيطر لا يغادر، آمر فاعل، غير تارك لغيره أي أمر كان، وله سبحانه الاستقلالية التامة عمّن سواه، والهيمنة والسيطرة والقوة والفعل، وهو جَلَّ جَلَالُهُ القيوم أصلاً قبل وبعد خلقه ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [آل عمران: 3/ 18]. انظر إلى قولك: (قائم على عمل) أي متابع له شاهد عليه متقن له فهو القيوم جَلَّ جَلَالُهُ أي عالم ومتابع لكل أمر، مع عُلوٍّ ورفعة وهيمنة مطلقة، وإن تفكرت بعجائب المعاني المكنونة في هذه الآية ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 3/ 1-2]، تلاشت نفسك وإرادتك أمام عظمة هيمنة الحي القيوم جَلَّ جَلَالُهُ.

إن رأيت أحدهم يصلي في المسجد وهو من أهل الصلاح والإصلاح وإلى جانبه رجل سيئ من أهل الفساد والإفساد، ونظرت من حيث الظاهر تجد أن كلّاً منهما يفعل الشيء نفسه، ولكن في حقيقة الأمر الفارق بينهما هو الموقف.

الذي يُسَجَّلُ عليكَ وتُحاسَبُ عليه هو الموقف وليس ظاهر فعلك، وهذا ما يسمى في الشريعة بالنية ومكانها القلب.

موقفك من أي أمر يوضع أمامك هو الذي يقيم عملك وهو الشيء المهم في سجل أعمالك وهو بيت القصيد يوم الحساب،وقد عبر عن ذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُم وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وأعْمالِكُم» [مسلم: 4651].

أهم شيء في الموقف أن يكون موقفاً إيجابياً من أي أمر كان، وهذا يحتاج في نفسك إلى صعود دائم في أحوالك مع الله جَلَّجَلَالُهُ دون أن تهبط، وعندها يعينك سبحانه بموقفك الإيجابي على فعل الخير بكل أشكاله ويمنحك القوة، والعكس من ذلك إن كان موقفك سلبياً يسحب منك القوة ويثبط عزيمتك عن فعل الخير، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 9/ 46].

موقفك من أيِّ أمر هو الأساس وهو المهم، ولا أدل على ذلك كيف غفر الله سبحانه لرجل سقى كلباً كما حدث بذلك نبينا قائلاً: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ فنزلَ بِئْراً فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ فقالَ: لَقدْ بلغَ هَذَا مثلُ الَّذِي بلَغَ بِي فَمَلأَ خفَّهُ، ثمَّ أمْسكهُ بفيه، ثمَّ رَقِيَ فسَقَى الكَلْبَ، فشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» [صحيح البخاري: 2190].

انظر كيف كان موقف الرجل إيجابياً عندما أحس بعطش الكلب، وهذا هو سبب مغفرته، والله أعلم.

عليكَ بالسعي لكلِّ ما يلزم للسموِّ بنفسك والارتقاء بها، وإياك أن تعيش حياة التناقضات، فلا يوجد في نفس المؤمن صراع داخلي أريد، لا أريد ، بعبارة أخرى: عليك إزالة وإعدام صراع الأضداد في نفسك أو مع غيرك، وذلك بأن تتعامل مع الآخرين ليس بالمجابهة والمعاكسة، مثل جبهة ضد جبهة، وإنما أنت والآخرين بذات الاتجاه لا صراع أضداد بينكم، والطريق إلى ذلك هو التوجه الصادق لمن أوجدك وخلقك إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الله هو السلام جَلَّجَلَالُهُ لا أضداد فيه، وتجليات إرادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منبثقة من السلام؛ أي: انعدام صراع الأضداد؛ أي الانسجام المطلق، وكل شيء لديه سبحانه منسجم بالكلية كونه جَلَّوَعَلَا «السلام» فلا صراع للأضداد في نفسه، وتجليات إرادته ليست نتيجةً لردود فعل أحوال سلبية وإيجابية كأحوال الإنسان، بل تجليات إرادته في عالم الخليقة ناتجة عن السلام، فهو جَلَّجَلَالُهُ القابض والباسط، الخافض والرافع، المعز والمذل، العفو والمنتقم، الضار والنافع، تقدست أسماؤه وصفاته، هو كلّ هذه الصفات والأسماء بآن واحد، لا تغيب صفة من صفاته سبحانه إطلاقاً، جمع بينها كلها لفظ الجلالة «الله» بتجرده، ليعبّر عن هذا الانسجام التام والدائم لانعدام تام لصراع الأضداد فيه وغلبة بعضها على بعض أبداً، وكل شيء عنده سبحانه متجه باتجاه البسط ولا يقدر على ذلك إلا الله.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 59/ 23].

إن شعرت في نفسك أو مع غيرك أحوالاً سلبية وإيجابية وردودَ فعل يغلب بعضها على بعض؛ فعليك بالتوجه إلى الله فهو السلام جَلَّجَلَالُهُ وهو وحده الذي يهديك إلى ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 5/ 16]، فلا يبقى في نفسك أي تناقض لأن من يتبع ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فإن المأوى بالضرورة هي دار السلام ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 10/ 25] أي الجنة.



كم هي نعمة معرفتك أن الله جَلَّجَلَالُهُ هو معك في كل وقت وزمان ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 57/ 4]، وكم هي نعمة أنه جَلَّجَلَالُهُ هو ذاته في كل الأوقات لا يتغير ولا يتبدل، لا يعتريه شيء ولا يتأثر بشيء بل هو الثابت المطلق الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 42/ 11].

ومن أكبر نعم الله عليك سبحانه أنه سمح لك أن تتوجه إليه في أي أمر من أمورك، وأعطاك نعمة الصلة به من خلال العبادات، ومنها الصلاة التي جعلها سبحانه مكررة وليست مرة واحدة فقط ، وكم هذا شيء مهم، اِحْمَدِ الله عليه.

ليس هذا فحسب بل أعطاك صيغاً لا حصر لها سمح لك بها أن تخاطبه جَلَّوَعَلَا في أي وقت وحين، صيغ تجعل دائرة نفسك واحتوائها يتصل بدائرة الكون، ومنها مثلاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وهي تبرؤ من حولك وقوتك إلى حول الله تعالى وقوته، وجعل في هذا الذكر العظيم وأمثاله، ما يوصلك إليه سبحانه ويزيد إيمانك به، وفتح لك باب الدعاء متى شئت في أي لحظة من ليل أو نهار حتى آخر لحظة في حياتك.

وأرسل أنبياء ورسلاً منهم نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وجعله سبحانه أسوة حسنة لك ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 33/ 21]، ليدلك على أقصر الطرق التي تُعَرِفُكَ بالله جَلَّجَلَالُهُ، لأنك إن سعيت إلى معرفته سبحانه من خلال إمكانياتك المحدودة فلن تصل إلا إلى دائرة يصعب لك أن تتجاوزها، أما إن سعيت لمعرفته من المصدر الذي حمله لنا نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فستجد فيه المعرفة الحقيقية المقدَّسة أي المنزَّهة عن أيّ نقص أو عيب أو خلل، وهناك لا نهاية لأشياء يمكنك تعلُّمها عنه سبحانه، ومنها علمك يقيناً: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 22/ 62].



لا تضيع جهودك بطلب أمان من غير الله؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو المؤمن؛ الذي يمنح أو يعطي الأمان، يمنح الأمان لمن يشاء، وهو القادر على منح الأمان الحقيقي، ولا أمان حقيقياً إلا من المؤمن جَلَّجَلَالُهُ وذلك بطاعة الله ومع الله.

منح الأمان هو من تجليات إرادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والشواهد في هذا الصدد في كتاب الله كثيرة.

انظر كيف منح الله تعالى الأمان لسيدنا موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ قائلاً له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ [القصص: 28/ 31].

وحين أرسل سبحانه سيدنا موسى وأخاه هارون إلى فرعون ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 20/ 46].

وفي غزوة بدر حين استغاث سيدنا النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ طمأنه ربنا جَلَّوَعَلَا:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 8/ 11].

وهذا دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 2/ 126].

من صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المؤمن وفيه عطاء ومنح للأمان، فهو سبحانه وحده الذي يمنح ويعطي الأمان لمن شاء من عباده.

فإن كنت تريد الأمان من المؤمن جَلَّجَلَالُهُ، وتسعى لأن تحظى بهذا الأمان فعليك تحقيق الأمن والأمان للآخرين، وأن تكون مأمناً لهم طمعاً بأمن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي قال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 106/ 4]، وأكثر من الحسنات لأنك ستجد خيراً منها يوم الفزع الأكبر، بل ستكون من الآمنين يومها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: 27/ 89].



مسؤوليتك عظيمة، لا بل مصيريّة، عندما تبني قناعاتك حول النص القرآني الشريف، وتشرع في تطبيق ما ورد فيه ليس على نفسك بل على غيرك.

ما أدق الأمر وما أخطره لأنك بذلك تتجاوز حدود ما بينك وبين الله سبحانه، كالصيام وقيام الليل والأحكام المتعلقة بك، إلى الأمور التي تمس حقوق العباد من أموالٍ أو أعراضٍ أو دماءٍ أو ذِمَّةٍ، وإلى أخطر بكثير كإعلان الحرب على الآخرين، ومثل هذه الأمور الخطيرة لا ينبغي لك أن تقرر فيها إلا إن كنت موكلاً بها، ولست وحدك بل ضمن هيكلية متكاملة، على رأسها رجل من الصادقين المتقين استوفى هو ومن معه شروطاً لا بد منها من الصدق وتقوى الله جَلَّجَلَالُهُ، ويجمع فيما بينهم جميعاً أنهم من (أُولي الألباب) الذين قال عنهم سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: 39/ 18].

وإن تتبعت عن (أُولي الألباب) في القرآن الكريم تجد أنهم أناس تحقق بهم أمران؛ أولهما: هو تقوى الله سبحانه، والتقوى في كتاب الله تجد أنها تحتاج إلى إحاطةٍ وعلمٍ عميقٍ بكل الأوامر والنواهي، ومعرفة تبعاتها على المدى البعيد والأقصى.

وثانيهما: ذاكرةٌ ملهَمة، إذ لا مجال للقيام بأية خطوة في الأمور المصيرية، إلا بذاكرة تربط ما جاء في القرآن الكريم من معطيات ومعلومات دون نسيان معلومة واحدة، وهذا يحتاج إلى صدق مع الله سبحانه حتى يَمنّ بتلك الذاكرةِ الملهَمة التي تأخذ صاحبها حيث ينبغي، ليتقدم ويفهم المعطيات القرآنية، وعندما تكتمل الصورة في ذهنه عندها يُقَرِّرُ مصير الآخرين مع التحسب لكل تبعات قراره على المدى البعيد، وخاصةً الأقصى، أي في الآخرة يوم الحساب. وهذا هو السبيل لبلوغ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾.



إياك والظن بأنك تعلمت الكلام تلقائياً وتدريجياً حسب تدرج عمرك، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي علمك البيان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 55/ 3-4] والبيان هو القدرة على الكلام، وبهذه القدرة يمكنك أن تعبر وتنقل للآخرين كلّ ما يختلج في نفسك ويعتري عقلك من أفكار ومشاعر، كما يمكنك كتم ذلك كله وعدم البوح به، ولكن على أناس أمثالك وليس على الذي علَّمكَ البيان جَلَّوَعَلَا والذي هو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 2/ 127].

كن على يقين أن الله هو السميع جَلَّجَلَالُهُ، أسمع وأدرى ليس فقط بالكلام المسموع بل بكلّ همسات وخلجات نفسك ووجدانك وعقلك وما يجول في خاطرك، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على الدوام مُطَّلِع على سرِّك وعلانيتك لأنه أصلاً هو الذي علمك البيان والقدرة على الكلام.

عليك الانتباه والتأدب مع الله، فهو السميع جَلَّجَلَالُهُ الذي يسمع ويعلم بأيّة خاطرة وأية شاردة وأيّ شيء ينطق به خلق من خلقه، بل وكل ما يجول في نفس وعقل عباده، وقدرة اطلاعه سبحانه لا حدود لها حتى الكرام قال لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 2/ 33].

افتح قلبك لله السميع جَلَّجَلَالُهُ وقيم أفكارك وما يدور في ذهنك وخاطرك من خلال قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 2/ 284].

واسأل نفسك: تُرى من هو أعظم في قلبي، ذلك الأمر الذي يجول في خاطري أم الله تعالى؟ لأن تعظيم الله سبحانه هو من أهم الأمور، فهو السميع جَلَّجَلَالُهُ المطلع على نفوس عباده وعلى أي كلمة كانت سراً أو جهراً.

توجه إلى السميع جَلَّجَلَالُهُ في سرك وجهرك بالدعاء والطلب منه، ذلك لأنه: ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: 34/ 50]، كما فعل سيدنا زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 19/ 3]، وتذكر قوله سبحانه لسيدنا موسى وأخيه هارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 20/ 46].



إن تكرم عليك الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقبل صدق توجهك إليه صار تخلصك من عراقيل الآراء المسبقة والأفكار الجاهزة والمفاهيم المغلوطة أو المرتجلة التي تحجبك عن الحقيقة أسهل وأسرع، وتجد في صدقك أنك تعي كل هذه العراقيل بل وتسارع لتصحيحها بنور الحق جَلَّوَعَلَا الذي تتواصل معه.

هذا الصدق يحتاج منك أن تراقب نفسك في كل أحوالها ـ وهذا وَعْيٌ ـ خاصة أثناء وقوفك بين يدي الله جَلَّجَلَالُهُ في الصلاة مثلاً، وفي كل ما يخطر على بالك أثناء يومك، مع الانتباه أنه من الخطأ أن يرافق ذلك أحوال سلبية توصلك إلى إحباط وردّة فعل سيئة؛ لأن ذلك حالة من حالات الطفولة.

إن كان في توجهك أو أفكارك أثناء يومك بعض الأخطاء، فهذا لا يعني أنك مخطئ ، بل يجب عليك أن تكون شجاعاً وتصحح قلبك وشعورك، وتناقش أي توجه خاطئ، وتطلب من الله سبحانه العون، وعندما يكون العظيم في قلبك هو الله تعالى يصغر أي أمر آخر عندك، وهذا يعطيك نضجاً بالرؤية، ويعيد لك كل شيء إلى مكانه، والقاعدة دائماً هي: من قاس أموره بالله ـ وهو الكبير جَلَّجَلَالُهُ ـ فكل شيء دونه تافه وصغير، وإن كان المقاس أي شيء آخر فتعظم الأمور في قلب صاحبها حتى تسيطر عليه، وعندها يكون غافلاً.

أي أمر يمر معك من فكرة أو عمل ما هو إلا امتحان لك؛ ومن خلاله تقيّم نفسك وذاتك وترى أين موقعك من الله تعالى، لذا اجعله سبحانه الموجه لكل تفكير أو عمل في حياتك ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: 20/ 7] ويعلم ما يجول في قلبك، واسأله أن يمن عليك بنفحات من عنده حتى يمتلئ قلبك بنوره جَلَّجَلَالُهُ، وعندها تجد بالبصيرة ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ [الكهف: 18/ 26] كيف تميز بين أفكار سلبية وحقيقية.



تأدّب مع الله سبحانه في السرّ أكثر من العلانية، واجعل الخشية والاستحياء منه بين عينيك دائماً وأبداً، فهو البصير جَلَّجَلَالُهُ الذي يراك في كل لحظة من لحظات حياتك ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: 67/ 19]. انظر كيف أخبر نبيه أنه يراه ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾[الشعراء: 26/ 218] وقال سبحانه لسيدنا موسى وهارون مطمئناً لهما ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: 20/ 46].

هو البصير جَلَّجَلَالُهُ الذي بصره فيه إحاطة بعلم لكل التفاصيل ولأي حادث وموجود، فهو الواجد والخالق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، الذي من عظمته يرى كل شيء عن خلقه ولا يراه أحد من خلقه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[الأنعام: 6/ 103].

البصر عنده جَلَّجَلَالُهُ ليس رؤية عادية فحسب بل وعياً وإدراكاً لكل ما هو مرئي وبحدّه الأقصى مع الهيمنة المطلقة، ونفاذ بصره وبصيرته وخبرته ومعرفته وإدراكه سبحانه نافذ إلى دقائق الدقائق مستمر لا ينقطع، ثابت متأصّل ومحقق إلى أقصى حدّ.

كن على ثقة أن لاشيء يغيب عن البصير جَلَّجَلَالُهُ، لأنه عالم مهيمن بكلّ ما يجري لأيٍّ من خلقه، ولا يغيب عنه شيء إن أبصر به الخلق أم لم يبصروه ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 69/ 39].

تذكر أنه سيأتي اليوم الذي يتغير فيه البصر عندك من الرؤية العادية باتجاه وعي وإدراك ما هو مرئي، وترى حقيقة يوم البعث والحساب عندما يكشف الغطاء عن بصرك، كما قال سبحانه عن الذي ينتقل إلى الآخرة: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 50/ 22]. لذا اعمل جاهداً في طلب محبة الله لك، وتقرب منه سبحانه بالفرائض والنوافل، فقد جاء في الحديث القدسي أن نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «...مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ...» [صحيح البخاري: 6021].

جاء في الحديث القدسي فيما يرويه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [رواه البخاري: 6856].

المقصد من كلمة «ظن» في هذا الحديث الشريف، أقرب ما يكون إلى ما يُعَبَّر عنه بكلمة «اعتقاد»: أي ما وصلت إليه ورست عليه قناعات المرء، وتصير المقولة الإلهية:

«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي» بلغة معاصرة:

«أنا (أقف حيث بلغ اعتقاد وما وصلت إليه ورَسَت عليه قناعات) عبدي بي».

أي بقدر صحة أو سوء «اعتقادك» وقناعاتك بالله، يكون قربك أو بعدك عنه جَلَّجَلَالُهُ، فإن كان ظنك بالله بعيداً عن الحقيقة، فما أبعدك عنه سبحانه، أما إن صار ذلك الظن لائقاً، وقد بُنِيَ على الحقيقة، فإنه لا يعود ظناً! لأن الظن يبقى شخصياً مهما كان صحيحاً، أما الحقيقة، فهي مطلقة واعتمادها يقتضي التبرُّؤ والتجرد عن كل ما هو شخصي، وهذه الحقيقة تجدها في كل ما أخبر به سبحانه عن نفسه في آيات كتابه، وخاصةً في أسمائه.

وإن صار ذلك الظن لائقاً بالله وقد بُنِيَ على الحقيقة، فإنه يصبح إيماناً بالله، بالمعنى الصحيح والحقيقي للكلمة ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 2/ 45-46].

«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» هذه المقولة الإلهية إشارة لك للتحول من الظن إلى الإيمان، وإن حققت ذلك، فإنه سبحانه يقول: «وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي».

فما أحوجك لكل ما ينبغي عليك معرفته عن الذي خلقك وأوجدك، والسير متتبعاً تلك المعرفة المتجلية في كتابه الكريم بأسمائه، بدءاً من رحمة الرحمن إلى صبر الصبور جَلَّجَلَالُهُ، وأن يكون سيرك إلى تلك المعرفة مرَكّزاً متألقاً جوهرياً وحاضراً في وعيك ووجدانك وعندها تحظى بشرف تتمة ذلك الحديث القدسي الشريف.

شكر الله شيء، وحمده سبحانه شيء آخر..

الحمد هو في القلب واللسان ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾[الإسراء: 17/ 111].

أما الشكر لله فيتطلب عملاً ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾[سبأ: 34/ 13]، فإن عملت شكراً لله قابلك الشكور جَلَّجَلَالُهُ بالعطاء والإحسان مقابل عملك، وهو الوحيد القادر على الجزاء الوافي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء: 4/ 147].

وشكر الله سبحانه لك يتجلى بعطاء مقابل طاعتك، ولكن هذا العطاء لا يقبل المقارنة في النسبة والتناسب بما قمت به من عمل، فما نسبة عملك إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

مهما عملت شاكراً لله فهو قليل لا يذكر إذا قوبل بعطاء الله لك ومهما شكرته سبحانه فلن تبرئ ذمتك ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: 34/ 13] ، فكن دائماً ممتناً غاية الامتنان لله تعالى، ولا تساوي في قلبك ووجدانك وعقلك بين جزاء العمل الذي تعمله وجزاء الله لك فتضعهما بمستوى واحد، لأن جزاءه سبحانه هو الوحيد الحقيقي والباقي.

واعلم أن أيّ عمل فيه طاعة لن يضيع ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[الشورى: 42/ 23] بل ستجزى عليه خير جزاء من الشكور جَلَّجَلَالُهُ، فهو الوحيد الذي جزاؤه حقيقي، فلا تضع أملك في غير الله تعالى، وإياك أن تندم على عمل صالح قمت به ظناً منك أنه ضاع وذهب أدراج الرياح، فهو الشكور جَلَّجَلَالُهُ العليم بكل عمل عملته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 2/ 158]. وهو سبحانه الذي يقابلك بحسن الجزاء حباً منه وكرماً، وهذا الجزاء هو بزيادة مختصرها: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ أي الجنة.

إن كان شكر الله لك جزاؤه الجنة، فكيف ينصرف قلبك ووجدانك ولو لطرفة عين لغير الله؟ وكيف لا يذوب قلبك شكراً وامتناناً للشكور جَلَّجَلَالُهُ؟



من الأمور المفروغ منها والتي يجب أن تكون من أسس حياتك هي أن الله جَلَّجَلَالُهُ خارج عن الزمان والمكان، وهو جَلَّوَعَلَا أزلي أبدي. لذا إن أردت أن تفكر به سبحانه فعليك استخدام منظومة فكرية مناسبة ينتقل بها تفكيرك إلى عالم الأزل حيث لا زمان ولا مكان، ولا شيء سواه.

وأول ما يجب عليك تطبيقه في هذا النهج من التفكير هي صفات الله جَلَّجَلَالُهُ حين تقف عندها، لأنك إن فكرت بها من خلال المعطيات البشرية فقد خلطت بين الخلق والخالق ووقعت في تناقض كبير.

صفات الله مطلقة، فهو جَلَّجَلَالُهُ منتقم وعفو، وأول وآخر، ومبدئ ومعيد، وكذلك كل صفاته تعالى لا تناقض فيها إن استعملت التفكير المناسب لها.

تفكيرك الصحيح بصفات الله تعالى هو من ضرورات الإيمان، إذ هل يمكن لك أن تؤمن بأن الله منتقم ولا تؤمن أنه عفو جَلَّجَلَالُهُ، هذا مستحيل، عقيدتك وإيمانك بجميع صفات الله تعالى يجب أن تكون بالمستوى ذاته، ولا تفاضل بينها لأن الله جَلَّجَلَالُهُ هو الكمال المطلق، ولا يمكن لشيء أن يحدث إلا بعلمه وحكمته جَلَّوَعَلَا، وهناك فارق جذري ونوعي بين الله وبين أيٍّ من خلقه. هذا الفارق يكمن في انتماء أي مخلوق إلى عالم الزمان والمكان، أما هو سبحانه، فإنه قدوس منزه عن عالم الخليقة برمته ومهيمن عليه، بناءً على ذلك، فلا بد لك من صفاته تعالى التي جاءت في القرآن الكريم والسنة المشرفة، والانتباه جيداً فيها إلى عنصر الزمن فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتابع الأحداث، بل الأحداث تتبع إرادته وسابق علمه وكل حدث تراه أمامك إن كان عطاء أو مصاباً فهو ﴿فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: 57/ 22]، يجب ألا تغيب عن عقلك ووجدانك صفات الله جَلَّجَلَالُهُ، ولن تجد طريقاً يوصلك بشكل مباشر إليها غير كتابه سبحانه، حيث ستجد فيه كل ما ينبغي عليك معرفته عن صفات الخالق، وستجد هذه الصفات في هذا الكتاب الذي جاء فيه: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 31/ 26-27].



احرص على تقوى الله سبحانه في كل أمور حياتك الدنيا فقد وعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده المتقين ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[الزمر: 39/ 20]، ولتكون من المتقين عليك بوجوه الإحسان في كل عمل تعمله لتنال أجر المحسنين ويشملك وعدُه سبحانه﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر: 39/ 34].

الله هو البَرُّ جَلَّجَلَالُهُ الذي يبر ويفي بوعده بالإحسان إليك، وجزاء إحسانه سبحانه إليك لا يقف عند هذه الدنيا بل يستمر في الحياة الآخرة وهو الأهم، وهذا كلام أهل الجنة شهود منهم، فقد كانوا يدعونه فما خاب أملهم، ووجدوه جَلَّجَلَالُهُ براً بالإحسان صادق الوعد مخلصاً مستمراً في العطاء والجود والإحسان بلا انقطاع ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: 52/ 28].

هو البر جَلَّجَلَالُهُ إحسانه لا حدود له، وهو متصف بالمبادرة أي بالابتداء والسبق وبالسرعة، أي إنه السابق بالإحسان المتواصل لعباده والسريع في الثواب على ذلك الإحسان، وردّه على إحسان عباده إحسانٌ يليق بعظمته ويتصف بصدق وعده وبدوام فضله.

ليكنْ قدوتك في البرِّ سيدنا يحيى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فحين برَّ بوالديه ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴾ [مريم: 19/ 14]، انظر كيف أثنى الله سبحانه عليه قائلاً: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم: 19/ 15].

كن على يقين أن البَرَّ جَلَّجَلَالُهُ هو من يبادرك بالإحسان، فكن فعّالاً في وجوه الإحسان وفياً مخلصاً وملتزماً بها لترى من عطاء البرّ الرحيم ما بشرنا به ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الزمر: 39/ 35].



هناك فارق جذري بين مفهوم كلمة الروح وكلمة النفس.

المفهوم المرتبط بكلمة «الروح» في أذهان الناس، وفي أحسن الأحوال، مرادف لكلمة «النفس»، إن لم يكن بديلاً عنها. وهي كذلك مرتبطةٌ في أذهانهم بمفهوم «الحياة»، وهذا خطأ إياك أن تقع فيه، إذ يكفي لك أن تراجع كيفية ورود كلمة «الروح» في القرآن الكريم، لتصل إلى نتائج مختلفة جذرياً عن ذاك المفهوم الشائع.

انظر في قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: 39/ 42]. فسبحانه لا يتوفى «الأرواح» بل الأنفس، كذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 89/ 27-28] لم يقل سبحانه: «يا أيتها الروح المطمئنة...» ، بل خاطب النفس المطمئنة. كذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: 4/ 1] وكذلك: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 2/ 281] والآيات في كتاب الله التي تخاطب الأنفس لا الأرواح كثيرة، وكلها تشير بشكل واضح أن النفس هي التي تموت وهي التي تحاسب وهي التي تبعث. وأن الروح هي دائماً مقترنة بالعلم ولم تذكر إلا مع العلم ولم تنسب الروح في القرآن الكريم لأحد قط، إلا لله جَلَّجَلَالُهُ! ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: 15/ 29].

والله سبحانه يتوفى الأنفس وليس الأرواح. وروح القدس أي سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مهمته إيصال العلم لذا كانت لقباً له، لأنه الموكل بتبليغ رسالة الله جَلَّجَلَالُهُ وما فيها من العلم خاصةً ولم يكن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ موكلاً بالحياة والموت. وهذا ما يؤكده استعماله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكلمة النفس عندما حَدَّث عن مَوتِ المؤمن بقوله: «إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ رَشْحاً» [سنن الترمذي: 902] (والرشح: هو عرق الجبين)، وهذا المفهوم المرتبط بكلمة «الروح» في أذهان الناس، وأنه مرادف لكلمة «النفس»، أو بديل عنها، لا وجود له في القرآن الكريم ولا أثر ولا حتى له أي صدى.



إن صليت أو تصدقت أو عملت أي عمل لله سبحانه، فإياك والظن أنك بعملك هذا قد قدمت شيئاً لله، أو أنه سبحانه بحاجة إلى عملك، فهو الغني جَلَّجَلَالُهُ عن خلقه أجمعين لا يحتاج أحداً منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: / 6]، وهو سبحانه قائم بذاته و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 42/ 11].

لذا عندما تتوجه إلى الله سبحانه يجب ألا يغيب عنك أن الغني جَلَّجَلَالُهُ هو الله، وإياك أن تشعر بأهمية أو قيمة الجهد الذي تبذله، أو تتوهم أنك تقدم خيراً لله وكأنك تقدم مساهمة لسلطان أو حاكم، فكم من مُصلٍّ يقوم الليل ويكثر من العبادات ولا يدرك في قرارة نفسه أن الله سبحانه له ما في السماوات والأرض وأنه الغني جَلَّجَلَالُهُ عن عمله وعن خلقه أجمعين ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 10/ 68]، في صلتك مع الله احذر أن تشعر بأهمية وقيمة الجهد الذي تبذله، فتنتظر أن يسارع سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقضاء حوائجك وحمايتك، والدفاع عنك دون تأخير... إياك أن تقع في خطأ كهذا، وتوجه إليه سبحانه داعياً: «اللَّهُمَّ يَا ذَا الْمَنِّ ، وَلا يُمَنُّ عَلَيْكَ» كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فكم ممن يدّعي الإيمان يقع في مثل هذا الخطأ، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: 49/ 17].

تفكّر في نفسك تجدها حتماً فقيرة دائماً ولا محالة لله سبحانه، بل وكل الناس فقراء والله هو الغني جَلَّجَلَالُهُ، لم يكن محتاجاً لهم ليخلقهم وإنما خلقهم لأنه إله حق، والإله الحق خالق بلا حاجة. انعدام الحاجة لا يعني انعدام الهدف أو المقصد. ما أفصح قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 35/ 15-17].

منذ أن تفتح عينيك تحرك بهدوء وإيمانٍ عميق بالله سبحانه الذي أمدك بطاقة الحياة من جديد، وابحث من بداية يومك عن وضعية مريحة لجسدك، واعزم أن تجعلها معك طوال يومك، وإياك والعجلة لأنك بقدر ما تستعجل تتأخر، وتبتعد عن النتائج الصحيحة.

ابدأ يومك بشيءٍ عالٍ جداً تفكر به، ثم ليكن أمامك أشياء جميلة هي أول ما يقع بصرك عليها، ولتكن لحظات بداية يومك كلها إيجابية.

ابحث في يومك عن الذوق بكل عمل تعمله، وبكل موقف يمر معك، فهو من أهم آدابِ السلوك التي بها يمكن معرفة ما هو لائق أو مناسب، والذوق هو شكر لله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأولها الطعام الذي جعله سبحانه نعمة لك والذي ينبغي عليك أن تستمتع بمذاقه، لا أن تملأ به معدتك.

ثم في يومك استمتع بكل رائحة طيبة، وبكل لون وصوت جميل، وإياك أن يقع في أذنك صوت قبيح، فقد نَبَّه إلى ذلك سبحانه في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 31/ 19].

راقب تعابير وجهك واجعلها دائماً تعابير تسليم لله جَلَّجَلَالُهُ، ودليلك في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 31/ 18].

لا تترك مكاناً للفوضى في حياتك إطلاقاً، واحسب حساباً لكل شيء وراجع أمورك كلها بهدوء ودون تشنج.

وإن وقعتَ بأي خطأ فتوجَّه إلى الله تعالى واطلب منه بصدقٍ العونَ على تصحيح ذلك الخطأ.

وتابع كل شيء في حياتك من خلال الكنوز التي تركها لنا نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأقواله وأفعاله، والتي جمعت بكتب منها الشمائل المحمدية، وفيه صفات النبي الخَلقية والخُلقية وأخلاقه والآداب التي تحلى بها وتمثلها سلوكاً وعملاً واهتداءً، لأنها غاية في الذوق والرقي والتي هي أصلاً من الخالق جَلَّجَلَالُهُ الذي ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة: 32/ 7] ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: 23/ 14].

لا تتوجه لغير الله سبحانه في الطلب؛ بل توجه وأنت موقنٌ أن الله وحده هو المغني جَلَّجَلَالُهُ، ولا مغنيَ يقيناً غيره والأمر أولاً وأخيراً ظاهراً وباطناً بيده سبحانه.

لا تخشَ نقصاً أو فقراً أو فاقة فهو الذي يمنّ بالفضل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: 9/ 28]، لا مال ولا عزّ ولا جاه ولا ولد ولا أنصار ولا شيء يغني عن المغني جَلَّجَلَالُهُ وعن نفاذ حكمه وإرادته، وهذا نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ خاطبه سبحانه قائلاً: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: 93/ 8].

المغني جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يغنيك من فضله عن كلّ شي، والفضل هو الزيادة التي لا حاجة لها، أي أنه عندما يغني من فضله فلا ينقص مما عنده شيء مهما كان الذي أغناه فقيراً ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 24/ 32].

إذاً لا مغني يقيناً إلا الله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: 53/ 48]، فلا تضع الأمل الزائف والرجاء الخائب فيما يغني مؤقتاً ولا يغني عند أمَسّ الحاجة إليه، وتيقن بأن لا غنى بأيّ شيء عن أمر الله أو مشيئته أو فضله.

وإياك أن تتوجه إلى المغني جَلَّجَلَالُهُ فقط بدوافع الطمع الشخصية، حيث تطمع أن تغنم ماديّاً ما تستطيع أن تغنمه وبالحدّ الأقصى، لأن هذا التناول لا يفيدك شيئاً، بل للاستغناء بأي أمر كان اطلب رضا الله وتوجه إلى المغني جَلَّجَلَالُهُ، فلا غنىً إلا برضاه سبحانه، حتى الملائكة الكرام عليهم السلام لا يستطيعون الشفاعة إلا بإذنه، ولا يكفي إذنه لهم بل لا بدّ من رضاه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: 53/ 26]، لذا فلا تضع أيّ ثقة أو أيّ أمل في أيّ شيء أو أيّ أحد، إذ لا فائدة في ذلك إن لم يكن ثمة رضاً من الله سبحانه.



تعاليم الله جَلَّجَلَالُهُ هدفها النهائي هو السمو بنفسك وعقلك إلى أقصى مستوى ممكن من الصفاء والرقيّ، والوعي اللائق بلقاءِ الله العزيز الحميد البر الرحيم في سلام ورضا السعادة الأبدية: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: 5/ 119] والسمو بالنفس هو من أساسيّات المواضيع المعروضة على مدار القرآن الكريم.

هناك قانون إلهي عليك ألا تنساه أبداً، لأنك إن تجاهلته أصبحت نفسك عائقاً مانعاً في طريقك إلى الله جَلَّجَلَالُهُ، وإن بحثت عنه تجده في قوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 91/ 7-10].

ولتسمو بنفسك عليك تخليصها من الانصياع للأهواء، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: 79/ 40-41] وهوى نفسك في حقيقته: هو انقطاعُك عن المرجعية الإلهية وعن الانسجام مع النظام الكوني، والغرق في ضيق وحجب الأنا.

لتحرر نفسك من أهوائها وتكون من الذين قال عنهم سبحانه ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ كن على هدي نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي قال: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [صحيح مسلم: 133]. وتدارك نفسك إن كان فيها كبر أو تعالٍ على الآخرين، واسعَ في تزكيتها بأعمال الخير التي جعلها سبحانه قربة إليه، وما أكثرها في كتاب الله وسنة رسوله مثل الزكاة والصدقات وإطعام المسكين، وجميع أنواع البرّ المتلازمة مع كلّ لحظات حياتك التي تجدها نقية صافية في السنة المشرفة وعلى رأسها برّ الوالدين وصلة الرحم، وحب الآخرين الذي وصفه نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» [صحيح مسلم: 64]. وقوله «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ» [صحيح البخاري: 2262]، وغيرها مما لا يحصى من أعمال الخير والبر التي هي أساس في تزكية نفسك، وهي دليلك الذي يوفر عليك هدرَ الإمكانات والوقت الذي منحك الله جَلَّجَلَالُهُ إياه، وهذا الدليل ما أحوجك إليه لعبورك السريع في هذا العالم، عالم الزمان والمكان.



تصورك عن الله سبحانه يجب أن يكون لائقاً بجلاله وعظمته، فهو جَلَّوَعَلَا ليس كمثله شيء، والطريق إلى ذلك تفكرك بالنسبة والتناسب بينك وبين هذا الكون الذي يحيط بك.

انظر إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: 35/ 41]، ولك أن تتصور (إن استطعت) مدى هذه القوة التي تمسك بهذه السماوات والأرض وتمنعها من التلاشي وتهيمن عليها، ومدى العلم الذي تتطلبه هذه الهيمنة، وكيف ضبط سبحانه كل ذلك بقوانين ثابتة.

الوحيد القادر على ذلك هو الله لأنه القابض جَلَّجَلَالُهُ، أي الذي يسيطر على الموجودات ويوجهها حيثما شاء وكما ينبغي لها، وله سبحانه التحكم والتصرف بها، يهيمن عليها بعلمه وحكمته وكل ذلك بالقدر اللازم والمناسب تماماً.

إياك والظن أن الموجودات متماسكة تلقائياً، بل هناك قوى هائلة تجعل المادة متماسكة وتمنعها من التلاشي، هذه القوى جميعها بيد القابض جَلَّجَلَالُهُ، فهو سبحانه قابض مهيمن عليها كابحها، وباسط قوتها وقوة انتشارها، ليس مهيمناً على المادة قابضاً فحسب بل هو أيضاً باسط لها، وهو القادر سبحانه أن يضغط ويكثف هذا الشيء. ومثالها في السماء الثقوب السوداء﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة: 2/ 245].

القابض جَلَّجَلَالُهُ له الهيمنة المطلقة على كل شيء وعلى المادة وتوابعها خاصة، وهذا شيء كوني ورؤية للمادة معبر عنها بهذه القوة العليا التي إن تركت تذهب بكل الاتجاهات، وإن رفع هذا الناموس كل شيء يتلاشى، وهذا الشيء ستراه بجلاء ووضوح يوم القيامة، عندما ترى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر: 39/ 67]..



لا أحد ينكر وجود شيء اسمه قوى النفس، وأن هذه القوى يمكن استغلالها بأشكال عدة، منها التداوي من أمراض مزمنة عن طريق أشخاص عندهم قوة في نفوسهم يستطيعون من خلالها علاج الآخرين.

وصار هناك كتب تتحدث عن قوة العقل الباطن، وكيف يمكن استثمار هذه القوة وتوظيفها في مستقبل سعادة الناس، وإلى غير ذلك من تطبيقات أصبحت ضمن علوم حديثة تدرس في الجامعات، وكلها تندرج تحت قوى النفس البشرية، ثم ظهر علم النفس الحديث الذي يعالج أمراض هذه النفس البشرية في حال فشلها أو تعرضها لأزمات نفسية حادة.

في كلا الحالتين إن كان استغلال قوى النفس أو علاج النفس فقد أغفل أصحاب هذه العلوم الحديثة تلك القوى الخفية التي لها أكبر الأثر على النفوس، ولا يمكن توظيف قوى النفس بشكل صحيح إن كان لسعادة البشرية أو لعلاجها من أي مرض يصيبها، دون معرفة تلك المؤثرات غير المرئية، وأخذها بعين الاعتبار والتي تبدأ قبل كل شيء بصلة هذه النفس بمن أوجدها وأمدها بالقوة أي علاقة الإنسان بالله جَلَّجَلَالُهُ.

هذا الإنسان جعل الله له ملائكة معه منذ خلقه وحتى وفاته، ومنهم الحفظة ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 13/ 11]، كذلك كان له عدو لدود هو الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 35/ 6]، وجعل سبحانه نفس هذا الإنسان تتأثر من هذين الطرفين، وأعطاها كل مقومات النجاح كي تستمد طاقة خير من خلال الملائكة الكرام، وتبعد عنها طاقة الشر من الشيطان، ثم جعل لها دواء يستطيع إيقاف أخطاء قديمة وعُقَدٍ في أعماق النفس البشرية موروثة وما زالت مستمرة فيها، وذلك بالاستغفار ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 14/ 41]، ولا أحد غير الله سبحانه يستطيع إيقاف تلك الأخطاء والعقد التي لها أكبر الأثر على سلوك أي إنسان.



الرزق حصراً بيد الله جَلَّوَعَلَا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: 51/ 58].

ومسألة اتساع وتقتير الأرزاق بيد الباسط جَلَّجَلَالُهُ الذي قال: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت: 29/ 62] لذا اطمئنَّ، وثِقْ، وسَلِّم أن الباسط جَلَّجَلَالُهُ هو العليم وهو العدل والمقسط وهو الرحيم والودود... واشهد أن ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: 13/ 26].

إياك أن تُفَسِّرَ تقتير أو اتِّساع الرزق بالحَظِّ أو النحس والصدف، لأن هذا يوصلك إلى سوء الاعتقاد بالهيمنة الإلهية وحكمة الحكيم العدل جَلَّوَعَلَا، ويعطيك شعوراً متصاعداً بالغبن والظلم يوصلك إلى النقمة والاعتراض، ومن يصل إلى هذا الاعتقاد فهو غير مؤمن لأنه يخلط بين حاجاته الفعلية وبين طلباته النفسية، ويطلب على الدوام أكثر مما يحتاج، وعندما تطغى طلبات نفسه على حاجاته الفعلية، ولا يستطيع تحقيق هذه المعادلة، يعيش أزمة نفسية خانقة، ويتحول مفهوم الرزق عنده إلى وسيلة لتأكيد الذات والتعالي على الآخرين والتحكّم بهم بدلاً من أن يكون سدّاً لحاجاتهم.

كن على يقين أن اتساع وتقتير الرزق بيد الباسط جَلَّجَلَالُهُ واحذر هؤلاء الذين قالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: 5/ 64].

وكن دائم التفكر ليس في معاني تقتير أو اتساع الرزق فحسب؛ بل بقدرة الله وأثر إرادته سبحانه على الموجودات بالبعد الكوني في الأرض والسماء فهو وحده الذي ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة: 2/ 245].

وهو وحده جَلَّوَعَلَا يجعل مكونات ما خلق تضغط أو تنتشر ومثالها السحاب.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: 30/ 48].



أي علم تتعلمه سوف يثير تساؤلات عندك إن كان مصدره بشرياً، ولن تستطيع الإجابة عليها إلا إن بحثت عن علم جديد من ذات المصدر قد تجد فيه الأجوبة على هذه التساؤلات، ثم إن تابعت في العلم الذي أجاب عن تساؤلاتك الأولى فسيتجدَّد عندك أسئلة جديدة، ولا بد أن تبحث عن علم آخر يجيب عليها، وهكذا إن تابعت بالمصادر البشرية فسوف تدخل في دوامة لا نهاية لها إلا مرحلة خطيرة هي الشك في كل ما تعلمت.

إن دخلت بمرحلة الشك ووجدت عالماً تسأله فسوف تراودك الشكوك في كل ما يقول، لأنه أيضاً مصادره بشرية؟ وأخيراً لن تثق بأحد، وبعدها لن تجد من تتكلم معه، وهذا شيء خطير، لأنك ستضيع في دوامة الشكوك وقد تختل عقيدتك وبالتالي قد تدفع ثمن ذلك الضياع فرصة الحياة الدنيا التي لا تعوَّض أبداً.

كي تخرجَ من فخ مطبّ أسر هذه الحلقة المفرغة، لا بدّ لك من إعادة النظر كي تُذهِبَ عن عينيك غشاوة العادة لأنَّ الإنسان لا يرى إلا ما يَعْلم. إذن، لا بدَّ من مصدر خارجيّ غير بشري تتعلمُ منه كيف تُرى الأمور من منظار غير منظارك. والحال كذلك، فما أعظمَ قيمة مصدر خارجيّ أتاك من خالق الوجود جَلَّجَلَالُهُ.

هذا المصدر الإلهي يحوي كلّ ما يمكن أنْ يُعلَم إذ فيه الأسس والقوانين والضوابط المطلقة لسائر العلوم، وهو جُلّ ما يبحث عنه أي طالب علم.

المعرفة التي في هذا المصدر الإلهي هي المعرفة المقدَّسة أي المنزَّهة عن أيّ نقص أو عيب أو خلل.

وهي المعرفة الحقيقية التي لا غنى عنها والتي فيها كل الإجابات الصحيحة التي تنقلك إلى مرحلة الإيمان واليقين قبل أن تصل إلى مراحل الظنون أو الشكوك وتضعك مباشرة عند بيت القصيد.

بجهدك أو جهود الآخرين لن تجد أجوبة نهائية عن تساؤلاتك بل لابد من الله جَلَّوَعَلَا الذي قال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 14/ 1].

لا أحد ينكر أن الله سبحانه هو الرزاق، ولكن إياك أن يجول في نفسك أنه سبحانه لم يكن كريماً في عطائه لك، فهو سبحانه اللطيف جَلَّجَلَالُهُ الذي يقبض أو يمسك بلطف عباده بما أعطاهم من أن يفتنوا ويبعثروا هذا العطاء: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: 42/ 19].

لطفه سبحانه بك ليس في الرزق فحسب، بل في كل تصرف وعمل تعمله، فهو اللطيف جَلَّجَلَالُهُ الذي يحوطك ويمسك بأمورك، ولكن برفق من غير عنف، مع الحذر والانتباه والمعاملةِ باليُسْرِ، ويوجه عطاءه لك بالقدر اللازم والمناسب تماماً وكما ينبغي أن يكون، ولا أحد غير اللطيف جَلَّجَلَالُهُ القادر على القيام بذلك على أتم وجه، لأن ذلك اللطف يتطلب علماً نافذاً وخبرة: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: 67/ 14].

اللطيفُ جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يَعْلَمُ ما يصلح لك ولكل خلقه، فهو سبحانه أدرى بمكونات أي شيء خلقه، لذا يقبض بإمساك ولطف وييسر كل ما خلق دون زيادة أو نقص، وإن حدث خلل في القبض يصبح كل موجود حطاماً أو خلل في البسط يتلاشى كل شيء، وهذا محال على الله جَلَّوَعَلَا.

انظر كيف أوصى سيدنا لقمان ابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: 31/ 16].

واعلم أن اللطيف جَلَّجَلَالُهُ خبير ومتَّصف بدقة العلم، محيطٌ بكل صغيرة وكبيرة في حياتك، لذا إياك أن تغفل عنه طرفةَ عينٍ، أو قِيدَ أُنْملة لتكون من الناجين يوم الحساب.

ما أعجب اختيار نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من بين المخلوقات كلها النملة والحوت ليذكرهما في حديث مشهور قال فيه: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» [سنن الترمذي: 2609].

طالما أن هذا الحديث الشريف يبين فضل العلم، فإن ذلك يُذكِّرك بالضرورة بحوت سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر من سورة الكهف، والذي كان الإشارة للقاء الخضر الذي ذهب إليه سيدنا موسى ليتعلم منه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: 18/ 63]. أما النملة، فلم يرد ذكرها في القرآن الكريم إلا في قصة سيدنا سليمان من سورة النمل، والتي تبدأ بذكر عِلْم سيدنا داود وسليمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: 27/ 15]، حيث نجد تماماً نفس عناصر الحديث الشريف: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» وبذلك، فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعوك، بلفتته الكريمة تلك، إلى فَهم إحدى الإشارات التي جعلها سبحانه في تلك السورتين:

قصة سيدنا موسى والخضر من الكهف تتميز بوجودها تماماً عند منتصف القرآن الكريم، إذ يبدأ الجزء السادس عشر بقول الخضر لسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 18/ 75]. أما قصة سيدنا سليمان في سورة النمل فإنها تتميز باحتوائها على البسملة الوحيدة في القرآن الكريم الواردة ضمن تلك السورة لا أولها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: 27/ 30].

وبناءً على ذلك فإن اعتبرت سورة الكهف محوراً وقابلت بين السور التي قبلها والتي بعدها، فإنك ستجد: أن سورة الإسراء تقابل سورة مريم، وسورة النحل تقابل على ذلك المحور سورة طه. وهكذا إن تابعت فستصل إلى سورة التوبة، وهي السورة الوحيدة التي لا بسملة أولها، لتجدها تقابل سورة النمل التي فيها البسملة الوحيدة الواردة في ضمن السورة لا أولها، وهذا التقابل دليل على عظمة الذي أنزل هذه السور سبحانه.



أيّ شيء يحدث ويظهر مبدئه هو الله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 85/ 13]، ولا يأخذ أي شيء معنىً له إن لم يشأ الله تعالى تحديد بدايته، فهو المبدئ جَلَّجَلَالُهُ الذي خلق كلّ شيء على أحسن وجه، وبداية أي مخلوق من عنده ومنها بداية خلق الإنسان ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [السجدة: 32/ 7].

يعتقد البعض أن بداية الحياة ما هي إلا نتيجة لاجتماع شروط مناسبة، ثم أخذت شكلاً من أشكال الحياة البدائية، لتصبح كائناً وحيد الخلية، ثم تعددت خلاياه نتيجة للتطور، وانطلقت من تلقاء نفسها بدافع قانون البقاء للأصلح، ثم يتابعون في اعتقادهم ويبيّنون ويشرحون لك نقطة بداية الحياة، ولكن دون التعرّض لسؤال أين وكيف ابتدأ اجتماع الشروط المناسبة للابتداء؟ وأين وكيف ابتدأ وجود العناصر المادية المكونة للشروط المناسبة لبداية الحياة؟ وإن صعب عليك فهم ذلك كله قالوا لك: أن الابتداء كان من الانفجار الأول، والسؤال: لِمَ ابتدأ الانفجار الأول ولم يبقَ كامناً؟ وهكذا يدخلونك في حلقة مفرغة لا نهاية لها إلا قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: 27/ 64].

إياك والاعتقاد بمثل ذلك لأنك تكون مخلّاً في أحد أسس عقيدتك وهذا خرق لإيمانك وهو كافٍ لأن يحرمك وعد الله لك.

قف أمام نقطة بداية الحياة موقف وعي، وكن على يقين أن الله هو المبدىء جَلَّجَلَالُهُ الذي بدأ خلق كل شيء وإليه مرجع كل شيء ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 10/ 4].

أنت وكل بني البشر يمضون حياتهم ضمن عالم الزمان والمكان الذي شاءه الله تعالى لهم، ووفق الأبعاد الثلاثة من طول وعرض وارتفاع، أما من هم في عالم مختلف عن بني البشر كالجن فهم يعيشون ضمن عالمهم الخاص بهم، وعندهم زمان مختلف وأبعاد أخرى كالبعد الزمني والذي يسميه البعض بالبعد الرابع، وسرعة الزمن عندهم مختلفة لذا فهم يعمرون أكثر منا وقد تمتد أعمارهم مئات السنين ومنهم منظرون إلى يوم القيامة: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [ص: 38/ 80-81].

فإن علمت أن من حكمته سبحانه أن يكون مع كل إنسان خلقه جَلَّوَعَلَا مَلَكٌ يلازمه طوال حياته وكذلك قرين من الجن كما حَدَّثَ بذلك نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بقوله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: وَإِيَّايَ؛ وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِحَقٍّ» [مسند أحمد: 3466].

وإن تذكرت فارق الأعمار بين البشر والجن، تفهم جيداً كيف عاش قرين أولاً مع إنسان ومات ذاك الإنسان، وشاءت الإرادة الإلهية أن ينتقل قرينه ليعيش مع إنسان ثانٍ، وهذا القرين يحمل معه ذكريات من الإنسان الأول الذي عاش معه، وهذه الذكريات قد تنتقل إلى الشخص الثاني كما ينتقل الوسواس، وعندها يظن الشخص الثاني أنه ربما كان يعيش حياة قبل هذه الحياة، ويبدأ بكتابة قصص عنها وتكهنات لا أصل لها، وكل ذلك وهم أساسه وسوسة القرين، وعلاجها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الناس]، فلا حياة لإنسان تعاد مرتين بل هي أوهام قرين.

الله جَلَّوَعَلَا هو الثابت المطلق وهو الخالق الذي ليس له بداية أو نهاية لأنه الله الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 42/ 11]، وكونه خالقاً فهو بذلك يختلف اختلافاً مطلقاً عن الخلق لأنه سبحانه ثابت لا يتبدل ولا يتغير، وهو، أصلاً، كامل وكماله مطلق؛ أي بالحدّ الأقصى، أي لا يمكن زيادة كماله.

وهو جَلَّوَعَلَا الذي يضع بداية ونهاية أي خلق كان ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 85/ 13]، وهو القادر على إعادة أي خلق كان لأنه المعيد جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد كل خلقه أصلاً، والقادر أن يعيد أي خلق من جديد متى شاء وكيف يشاء ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[نوح: 71/ 17-18].

إياك أن تخطئ وتكون مثل أولئك الذين يعتقدون بأن المادة تسير بخط انتقال ذهاباً إلى اللانهاية، حيث تنتهي بالتلاشي، وسبب هذا التلاشي بزعمهم هو اضمحلال الطاقة.

ويأخذ الخطأ عندهم أقصى أبعاده، عندما يقولون بتجمع فتات التلاشي وقد اضمحلت قوته، فتنبعث فيه قوة مفترضة وتنتظم المادة من جديد تلقائياً وبنفس الاتجاه وتعود لما كانت عليه، وإن سألتهم لماذا؟ وكيف؟ حصل ذلك، تصل بالنهاية إلى الحيرة والضياع وهو حالهم.

كن على يقين أنه سبحانه المعيد جَلَّجَلَالُهُ القادرٌ على إعادة أي خلق كان لأن الابتداء لهذا الخلق أولاً كان مطابقاً لإرادته، وإرادته نابعة عن علمه، وحكمته هادفة ومطابقة لألوهيته.

انظر كيف مَنَّ الله عليك بالجواب الصحيح ووفر عليك الدخول في هذه المتاهة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[العنكبوت: 29/ 19].

وحده المعيد جَلَّجَلَالُهُ بالهيمنة المطلقة على كل ما خلق، قادرٌ على الإعادة لأي شيء كان قد ابتدأه وخلقه ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 21/ 104].



هناك قاعدة ذهبية عليك ألا تنساها وهي: أن كلّ ما قد يُشكِلُ عليك عند وصولك إلى جواب غير مقنع لسؤال كنت قد طرحته عند تناولك للقرآن الكريم، ما هو في الحقيقة إلا مرآة تظهر ثقافتك وعقليتك ومفاهيمك حيث يكمن الإشكال، والحل لذلك، بشكل عام، هو التريث وعدم الاستعجال في تناول كتابه الكريم لأنه سبحانه نبَّه لذلك وذكر: ﴿...وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: 17/ 11]، وكم من مرة ذمَّ العجلة والاستعجال: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القيامة: 75/ 20-21].

الذي نزَّل القرآن سبحانه هو أدرى بنفوس وعقول خلقه، لذا فقد حثَّهم على التريث بشكل يكاد يكون متواصلاً عبر صفحات كتابه.

استعجالك ووقوفك عند جواب غير مقنع بالنسبة لك في فهمك للقرآن الكريم هو من أكبر الأخطاء، لأنك، إنْ لم تقتنع بجواب على تَساؤلٍ طرحته، فهذا لا يعني أنّ الجواب الموجود في الكتاب الكريم غير صحيح لأن: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 17/ 9].

القناعة بصحة الجواب، هي مرتبطة بك وبظروفك ومؤهلاتك وأحوالك المتبدلة، وهي متبدّلة معك، بذلك، فالقناعة التي تصل إليها هي مسألةٌ نسبية وشخصية، لا يُعوَّلُ عليها في تقييمك لأجوبة القرآن الكريم، والتي هي صحيحة ودائمة بشكل مطلق بدوام قائلها ومنزلها جَلَّجَلَالُهُ.

تدبّر وفهم القرآن الموجّه للعالمين يحتاج منك إلى عدم الاستعجال في فهمه وتدبره ، ومن الحكمة التريّث عندما تبحث عن سؤال فيه ريثما تصبح أهلاً لفهم وتلقي الجواب الذي كنت تبحث عنه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: 4/ 82].

قصة سيدنا موسى واجتماعه بالخضر كان سبب نهايتها هو عدم تريّث سيدنا موسى فاستعجل، لذا قال نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ...» [صحيح مسلم: 4386].



ليكن عندك عقيدة راسخة ويقين مطلق أن الله هو المجيب جَلَّجَلَالُهُ يقيناً لا محالة، لأنه جَلَّوَعَلَا أمرنا أن نتوجه بالدعاء له حتى يستجيب لنا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 40/ 60]، والإجابة حاصلة لا كما نشاء نحن العباد بل كما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء سبحانه.

واعلم أن الله أدرى بحاجتك، وأنه بسابق علمه يعلم أنك سوف تدعوه باللحظة التي قَدَّر لك فيها الدعاء، فهو سبحانه الذي خلقك وهو أدرى بحاجتك منك أنت، لذا لا تكن عجولاً قنوطاً، إن لم تحصل إجابة دعائك، أو أن تظن أنه سبحانه لا يجيب.

إجابة المجيب جَلَّجَلَالُهُ لدعائك تكون مباشرة لك أو مؤخرة في هذه الدنيا، أو قد يؤجلها لك سبحانه إلى يوم الحساب، حيث تود هناك أنه أجّل لك كلّ دعاء دعوته إلى ذاك اليوم لما تجد من كرم المجيب جَلَّجَلَالُهُ.

تأكد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من رحمته يستجيب لكل مضطر دعاه من كلّ المِلَل والأديان إن توجه بدعاء صادق ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 27/ 62]؛ لأن الإجابة ليست متلازمة على الدوام مع صحة العقيدة، فلا يعني سوء العقيدة عدم الإجابة على الإطلاق، وكذلك فلا تعني صحة العقيدة إجابة حتمية وآنية على الدوام، لذا إياك أن تظلم أحداً لأن دعوة المظلوم حذر منها نبينا قائلاً: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيس بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» [صحيح البخاري: 2268]. وقال في حديث آخر: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِراً فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ» [مسند أحمد: 8440].

سَلِ المجيب جَلَّجَلَالُهُ وتوجه بالكلية إليه بالدعاء لكلّ صغيرة وكبيرة بصدق وحرارة، وكُنْ واعياً تمام الوعي أن دعائك هو صلة به سبحانه لأنه من سابق علمه كتب لك أن تسأله، وكتب لك الإجابة، وإن أدركت ذلك في دعاءك غاب عنك كل شيء ولم يبقَ غير الله سبحانه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 2/ 186].



هناك مجموعةٌ من المتاهات، إياك أن تقع فيها، تأتيك بشكل أسئلة قد تطرح عليك، ظاهرها مقنع وفي حقيقتها ليس لها هدف إلا إدخال الشك إلى قلبك بالعدالة الإلهية، ومن أكثر هذه الأسئلة شيوعاً تلك التي تجدها في سؤالٍ واحد: «هل الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟».

الخطأ في هذا السؤال هو إعطاء الاهتمام إلى الإنسان «هل الإنسان...» وغياب ذكر الله صراحة في صيغته، وهي عملية التفاف مكشوفة توصلك إلى نفس السؤال ولكن بصيغة أخرى: «هل يُخيَّر الإنسان أم يُسيَّر؟». وهنا تجد فعلين مبنيين للمجهول: «..يُخيَّر ..يُسيَّر؟» والمجهول فيهما هو الله، والهدف الحقيقي في كل ذلك أن تشك بعدالته جَلَّجَلَالُهُ.

انظر إلى هذه المغالطة التي تتسم بانعدام تام للأمانة الفكرية لأنها حصرت المسألة في احتمالين لا ثالث لهما: «مخير»، «مسيّر». وكأن حصر المسألة في تلك الثنائية، مُسَلَّمَة لا مناص منها، وكأنهما بدهية كونية لا تناقش، أو عبارة إلهية قرآنية لا يمكن إنكارها، بل هذان الاحتمالين «مخير»، «مسيّر». أصلاً لا وجود لهما في القرآن الكريم.

والخروج من هذه المتاهة هو أنك لست «مخيراً» ولا «مسيراً» ، بل أنت مكلَّف: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 23/ 62].

وإن وقعت في فخّ هذين الخيارين المعروضين، في مثل سؤال: «هل الإنسان مخير أم مسير؟»، فأنت إنسان تختلط في عقلك الأمور، فلا تميز بين القدر و سابق علم الله جَلَّجَلَالُهُ. وغاب عنك أن الذي أوجدك من العدم أصلاً هو الله جَلَّجَلَالُهُ الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 10/ 44]، وغاب عنك قول نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا». والأخطر من ذلك أنك إن وقعت في متاهة أسئلة هدفها زرع الشك بعدالة الله جَلَّجَلَالُهُ فقد شملك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: 6/ 21].



من الصفات الضرورية لأهل النجاة والفلاح أن يكون المؤمن ذا عزم وجلدٍ ومثابرة، وإن أحببت أن تتصف بهذه الصفات، فاجعل قلبك متوجهاً بأسرار السورة التي قال عنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»؛ ألا وهي :﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

انظر كيف ارتبط فيها لفظ الجلالة الله بالصمد سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، والصمد هو الذي يصمد إليه بالحوائج، الوحيد القادر سبحانه أن يعطيك حوائجك، لذا توجه إليه على الدوام بالتعظيم والعبادة والسؤال، ولا جدوى من التوجه إلى غيره فهو سبحانه الحي الباقي وكلّ من سواه ميت.

الصمد جَلَّ جَلَالُهُ هو الحريّ والجدير أن يعظّم ويعبد ويُتوجه إليه بالسؤال، لأنه على ما هو عليه من كلّ صفات الألوهية والعظمة والجلال والعلم والقدرة، وهو ثابت أزلي أبدي لا يتبدل لأن كماله سبحانه مطلق على كلّ شيء وسلطانه وهيمنته وقوته وقدرته لا تنقص، ولا تزيد وهي بحدّها الأقصى واللانهائي، وهذه القوة مجبولة بالعلم والحكمة، متصفة على الدوام بالجلال.

بابكَ للسموِّ والارتقاء، والعزم والرفعة، والابتعاد عن شتات النفس والضلال، وعتقك من التبعية والذل للآخرين، هو بتوجهك إلى الصمد جَلَّ جَلَالُهُ، المقصود إليه في الحوائج وقضاءِ الحاجاتِ ولا تضيع وقتك ولا جهودك سدىً، بل توجه وجهة واحدة إلى ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ الإله الحق الأحد الذي ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وكن على يقين دائم أن لا صمد إلا الله.

هناك نمط من التفكير المحدود إياك أن تقع به، لأنه يقودك إلى التزمت والتعصب وينتهي بك إلى التحجر والتخلف والانغلاق والتقوقع على نفسك والبعد عن الآخرين، وهو منافٍ تماماً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 49/ 13].

إحدى السمات الأساسية لهذا التفكير المحدود هي النظر إلى أي أمر من خلال معيارين حصراً.

مثلاً: خير مطلق أو شر مطلق، صواب أو خطأ، معي أو ضدي، أبيض أو أسود. معياران هما طرفا نقيض كل منهما الحد الأقصى المعاكس للآخر.

معياران من غير أي تدرج بينهما، كميزان حرارة لا يشير إلا إلى بارد أو حار؛ البارد هي درجة الصفر المئوية والحار درجة الغليان.

هذا النمط من التفكير يقود صاحبه إلى الأخذ بالأمر برمته أو رفضه برمته، فلا يستطيع تقبل نمط تفكير آخر يرى تدرجات الأمر ويتعرض لجانب منه.

وإن نظرت إلى هذا التفكير المحدود تجد أنه يرى الأمور من ظاهرها، وهو في البداية سهل ومقنع ويبدو واقعياً، ولكنه محدود في اتجاهين أساسيين: العمق والزمن، محدوديته في العمق تحصر رؤية صاحبه في بعد واحد لا ثاني له، إما صواب وإما خطأ ، وتحرمه من رؤية أبعاد كثيرة هامة وتدرجات لا نهائية بين طرفي نقيض ذلك التفكير.

أما محدوديته في الزمن فهي تَحْرِم صاحبه من رؤية إدراك حكمة علاقة البدايات بالنهايات، لأنه يرى من خلال إمكانياته المحدودة ضمن حدود المكان والزمان الذي هو فيه؛ لذا فهو منظار خاطئ، انظر كيف قال سبحانه مادحاً أمَّة نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 2/ 143].



كلّ كائنٍ تدبّ فيه الحياة، الله هو الذي أحياه، وكل ما ترى من مظاهر الحياة هي من المحيي جَلَّجَلَالُهُ، الذي إن قطع عنك مدد الحياة ولو لطرفة عين أصبحت ميتاً، فهو الذي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 57/ 2]، وهو سبحانه من يمدك بالحياة في كل لحظة، لأن الحياة ضرورة على الدوام، يحتاجها كل حي خلقه الله سبحانه، ولكن الناس لكثرة ما يرون من مظاهر الحياة غافلون عن هذه الحقيقة واعتادوا عليها، والعادة غشاوة تحجب البصيرة.

إياك أن تعتبر مسألة الحياة شيئاً معتاداً وتلقائياً، تألفه وتعتاد عليه كأنه أمر يسير بشكل تلقائي، لأن هذا غفلة، يليها التوهم، وصولاً إلى الجهل التام، والأخطر من ذلك أن يوصلك هذا الجهل إلى تصديق من يزعمون بالتحكم في حياة الكائنات إلى حدّ الادعاء بإيجادها، وذلك بتلاعبهم بمظاهر الحياة في الهندسة الوراثية، وما فيها من تعديلات جينية واستنساخ وتوليد.

كن على يقين أن المحييَ جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يحيي أول مرة وكلّ مرة، وهو يميت ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس:10/ 56]، وهو قادر على أن يعيد الحياة لمن ومتى يشاء، ويوم القيامة ستجد نفسك قد بعثت بنفس اللحظة، دون المرور بمراحل الحياة الدنيا من ولادة وطفولة وشباب، بل بعثت بكامل وعيك، والوعي في العالم الآخر آلاف الأضعاف عن الوعي في هذه الدنيا، وعندها ترى يقيناً أن الله وحده الحق وهو المحيي جَلَّجَلَالُهُ ولا محيي سواه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحج: 22/ 6].



الطريق الأمثل لتتعرف على نفسك هو أن تضع حسّك ووعيك خارج نفسك، وتنظر من خلال ذلك إلى الناس وإلى نفسك ذاتها، عندها تكون إنساناً موضوعياً.

تجرد عن نفسك وقابلها بأنفس عظيمة مرت عبر الزمن، وهي خطوة هامة جداً في النضج والخروج من أحوال الطفولة إلى نضج وتألق الإنسان العاقل المتزن.

انظر كيف شاء سبحانه، ضمن ترتيب له معنى وله بداية ونهاية، أن يجعل رسالته الأخيرة لسائر الأمم في نبيّ جعله نموذجاً للنفس الحية الصافية كالصفحة البيضاء النقية، الجاهزة لتلَقِّي الرسالة الإلهية النهائية والكاملة، ليكون مثلاً وقدوة لسائر الأنفس. وجعله سبحانه ينشأ وعقله ونفسه بريئان نقيّان من تأثير أهواء أنفس أهل زمانه، ثم أنزل عليه الكتاب، وخاطب سبحانه الناس قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 10/ 57].

وجنَّب نفسه الشريفة ظلمات أهل زمانه بأن علَّمه الكتاب والحكمة: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: 4/ 113].

اجعل الأنبياء قدوةً ومثلاً أعلى لنفسك لأنهم يمثّلون النفس الصافية النقية لأهل الإيمان والمعرفة الحقيقية، وكن دائماً حاضراً مع الله جَلَّجَلَالُهُ ومستسلماً له، وضَعْ عينيك وقلبك وحواسك عنده، ولا تبخل على نفسك بسؤاله لأي أمر من أمورك صغيراً كان أم كبيراً، فهو سبحانه قريب مجيب خاطب نفس نبيه الصافية النقية عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلاً:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 2/ 186].



نفسك شيء وجسدك شيء آخر، لذا اجعل شعارك: (أنا لست جسدي) وإياك أن تخاف من شيء اسمه الموت، ففي النوم يتوفى الله الأنفس ويبقى الجسد حيّاً ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 39/ 42].

إن كنت نائماً، فالله مُتوفِّي نفسك، وانتبه حين تستيقظ أن استيقاظك هو أمر مُقَدَّرٌ مسبقاً في سابق علم الله سبحانه! واليقين أنه إن لم يشأ سبحانه أن يوقظك لما استيقظت. والرسالة الإلهية في المنام واليقظة، أن الله سبحانه ينبهك أنه هو المحيي والمميت جَلَّجَلَالُهُ ولا يموت شيء أو أحد إلا بأمره، وهذا اليقين هو سلام لك كي تكمل حياتك بتوازن أساسه ثقتك بالله، وضمانة منه سبحانه أن أمر الموت يتم بمشيئته وبناء على علمه وحكمته، وهو مظهر من مظاهر هيمنته على خلقه سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم: 53/ 44].

اِحمدِ الله أنه هو وحده الذي بيده موت خلقه، لأن ذلك سِلْمٌ وأمان لهم، وإن أمات أحداً من خلقه فهذا نابع عن عليم حكيم رؤوف رحيم لا أعلم ولا أحكم ولا أرأف ولا أرحم منه على من خلقه أصلاً وأحياه، وإيمانك بذلك يجعلك تتم حياتك بصفاءٍ نفسيٍ عالٍ وبصِلة قوية بخالقك وربّك ومعبودك.

إن كنت على يقين أن المميت جَلَّجَلَالُهُ هو الله وحده، فلن يرتبط عندك ذكر الموت بالذعر والأسى أو اليأس أو الشعور بالعجز وما إلى ذلك من مشاعر سيئة؛ بل هو ضمانة لك أن أمر الموت يتم بمشيئته وبناء على علمه وحكمته سبحانه لأنه هو ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: 26/ 81].



تناولك للقرآن الكريم؛ هو امتحان لك تُقيِّم به نفسك من خلال الأفكار التي تدور في ذهنك وخاطرك حوله.

وإن وجدت نفسك تعثَّرت على بعض المواضيع القرآنية، وضاق صدرك عند المرور عليها لِـما تجد فيها من تعرُّضٍ لأمورٍ من صميم الواقع المادي، كقضايا القتال والإرث وأحكام الطلاق، وخاصةً ما يتعلق بالزنى، فإياك أن تعتبرها غير منسجمة، أو متنافرة مع المجال الروحي الذي تطمئن إليه نفسك.

إن شعرت بضيق عند المرورِ على تلك المواضيع، أو تجاوزتها، إلى ما يروقك من مواضيع أخرى ينفتح قلبك عندها وترتاح إليها نفسك، وتعيرها كل الاهتمام لما تظن أن فيها روحانية عالية، فعليك إعادة تقييم نفسك وردود فعلها أمام القرآن الكريم، الذي هو من أوله إلى آخره، كلام الله بحرفيَّته كلام الذي ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[البقرة: 2/ 117] كلام خالق الروح والمادة وكل شيء.

القرآن الكريم مجال روحي مطلق متجانس لا تفاوت فيما بينه، ولا مجال فيه لقراءة اصطفائية، أو التركيز على المواضيع الروحانية فقط دون غيرها، لأن ذلك يقطع عنك فهم وتدبر كلام الله سبحانه.

كذلك وبالعكس تماماً إن كنت من الذين ترتاح نفوسهم لمواضيع الجهاد والأحكام ولا يرون فيه إلا كتاباً أشبه ما يكون بقانون مدني ولا يروقهم أبعاده الروحية، فهم كذلك بحاجة إلى تقييم أنفسهم من جديد، وردود أفعالهم أمام هذا الكتاب الذي بكل تفاصيله هو ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الطلاق: 65/ 11].



احْذَرْ من الخلط بين الضوء والنور، لأن لفظ ضوء يعبر عن مفهوم ينتمي لعالم المادة، مثل ضوء النهار،وهذا الضوء يمكن لك أن تحصِّلهُ بنفسك، في حين أن لفظ نور ينتمي إلى عالم الحقيقة، وهو عطاء وهداية من الله سبحانه يهديها لمن يشاء من عباده ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فهو النور جَلَّجَلَالُهُ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 24/ 35]. ولا نور بالمطلق إلا منه وأيّ نور فهو حصراً من النور جَلَّجَلَالُهُ، ومثاله الكتاب الذي أنزله على نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 14/ 1].

الله هو النور جَلَّجَلَالُهُ ونوره سبحانه كمفهوم هو الذي يظهر حقيقة الأمور ويعطيها معنى، أي حكمة وجودها وغايتها، وهو أساس العلم الحق النقي من كلّ شائبة، الذي لا تغيب فيه معرفة حقيقة الأسباب والغايات ضمن وضوح رؤية الإطار الكلّي للمقاصد في البدايات والنهايات، ونوره سبحانه هو حصراً السبيل إلى العلم الحق والهداية الذي يهدي به من يشاء من عباده ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

إياك أن تقع في حبائل ضلال أولئك الذين يطلبون النور من غير الله، فهناك من سمّوا الخمر نوراً وعبدوه في طقوس تتصف بالفحش، وأمثالها من الضلالات كثيرة لمن يطلبون النور من غير الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 24/ 40]؛ لأن نوره جَلَّجَلَالُهُ هو السبيل الذي لا بدّ منه للسمو وللعلم الحقيقي وللهداية، فلا هداية بلا نور ولا سعادة بلا هداية، إذ ما فائدة السعادة الوهمية المؤقتة عندما تزول ولا يبقى محلها إلا الندامة والتعاسة الأبدية.

كن على يقين أن الطريق إلى معطي النور جَلَّجَلَالُهُ لا يتم بلوغه أو الاقتراب منه إلا بذكر الله والصلاة والوضوء وطاعة الله، والتوجه بدعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَعَنْ يَمِينِي نُوراً وَعَنْ يَسَارِي نُوراً، وَفَوْقِي نُوراً وَتَحْتِي نُوراً، وَأَمَامِي نُوراً وَخَلْفِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً» [صحيح البخاري: 5841].



عليك ألّا تعاكس نفسك وتحدَّ من الإمكانيات العظيمة التي أعطاك الله إياها وميزك بها عن جميع الكائنات، وتجعلها ضمن مجال نفسك وحاجاتك الشخصية دون النظر إلى الآخرين والسعي في حاجاتهم، إذ كما أنك تسخر هذه الإمكانيات وتعمل بها لنفسك، عليك تسخيرها للآخرين والسعي في حاجاتهم، وهذا له من المثوبة والأجر ما يوازي أو يفوق عملك لنفسك والسعي لذاتك.

الإسلام برمته أمر جماعي وحياة اجتماعية وتوازن عبر عنها نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح البخاري: 2262].

هَمُّكَ خلاصكَ دون النظر إلى الآخرين هو خطأ، وعليك دائماً أن تحقق توازناً بين ما تحتاجه لنفسك وشخصك، وما يجب عليك فعله لسد حاجات للآخرين.

اجعل قدوتك أنبياء الله فقد جعل سبحانه عملهم برمته هو خلاص الآخرين والنجاة بهم يوم القيامة، لذا كانت مرتبة النبوة أعلى مراتب الخلق، ومثالهم سيدنا إبراهيم، حين طلب المغفرة من الله سبحانه لم ينسَ الآخرين ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: 14/ 41].

وإن أردت محبة الله جَلَّجَلَالُهُ فاعمل بنصح نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي قال:

«الخَلْقُ كُلّهُم عِيالُ الله، وأَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْه أَنْفَعُهُمْ لِعِيالِهِ». [رواه البزار والطبراني في معجمه].



كل من يدعي أنه قادر على هداية الخلق فهو مدعٍ مغرور، لأن الهداية هي حصراً بيد الله، ولا تكون إلا بمشيئة الهادي جَلَّجَلَالُهُ الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 2/ 213]. وما أسعد الذي يمن الله عليه بالهداية الحق قبل فوات الأوان! وما أتعس من يتّبع نهجاً ظاناً أنه يوصله إلى الحقيقة والسعادة ليجده بعد سنوات طويلة من الجهود ضلالاً وسراباً.

لا هادي يهدي هداية كاملة إلى الحقيقة إلا الهادي جَلَّجَلَالُهُ ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 6/ 71] فلا تُضِعْ جهودك في طلب هداية من عند غير الله، إذ لا وقت لديك في زمن متسارع لتبحث وتجرب أو تنصت للذين يدّعون أن كلَّ الطرق توصل بالنهاية إلى نفس الحقيقة، لأنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بَتَّ وقطعَ في موضوع الهداية بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 3/ 73].

هداية الهادي جَلَّجَلَالُهُ هي بكرمه سبحانه بما منَّ به على الناس بمئات من الأنبياء والرسل ليرشدوهم إلى الهداية الحق وآخر هداية للناس كافة هي كلمات الله في كتاب قال عنه سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: 38/ 29].

احمد الله سبحانه أن تفضل عليك أن تطلب الهداية منه في كل صلاة تصليها بقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة]، ودلَّك بكتاب كريم لا ريب فيه على هداية المتقين ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين هداهم ربهم ليكونوا من المفلحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 2/ 5].



إن كنت تبحث عن الملكات العقلية المتميزة فارفع مستوى اهتمامك بالله سبحانه فكل شيء فيك يتغير ويرتقي وأول تلك الأشياء هي الملكات العقلية.

اهتمامك وصلتك بالله سبحانه من أهم ما يرفع مستواك الذهني، لأنك بحاجة إلى التركيز والوعي في كل ما تخاطب به من خلق السماوات والأرض سبحانه.

ومن قواعد التفكير السليم وليس العامي الشائع: هي المقدرة على التركيز وعدم القفز؛ لأن القفز والسرعة في التفكير، بحيث إن مرت أمامك أشياء كثيرة دون أن تنتبه لها فهذه من أصول تفكير العوام، ولا يمكن لك أن تعتمدها مع من خلقك سبحانه.

ثم إن اعتمدت قواعد التفكير السليم فتعامل مع نفسك بصدق وتعرف عليها، من خلال تلك القواعد، وابدأ بمراجعة تصورك عن الله جَلَّجَلَالُهُ، وعندها قد تجد أن هذا التصور قد يكون من خلال القناعات التي اكتسبتها وأنت في سن المراهقة، أو قبل ذلك، وكم تجد ضمن هذه القناعات من أشياء جداً صغيرة وتافهة لا تليق بعظمة الخالق سبحانه، كانت قد دخلت تفكيرك ولا أصل لها، أو قد مرَّ عليها الزمان وأصبحت غير مقبولة ولا تليق بالعمر الذي أنت فيه.

كلما تقدمت سنك كنت بحاجة إلى التعرف أكثر على الله جَلَّوَعَلَا؛ وهذا يضطرك لأن تعود كل مرة إلى ثوابت تفكيرك، وتنظر ما هو المهم وغير المهم، فهناك معلومات جاهزة يتعامل عقلك معها عليك مراجعتها والنظر إلى أساس هذه المعلومات وهل هو صحيح أم لا، لأن أي معلومة لا بد أن تأخذ حيزاً من الدماغ، ولا بد أن تؤثر في حياتك من حيث لا تدري.

لن تجد كتاباً يجمع بين تطوير الملكات العقلية، والمعلومات الدقيقة والصحيحة عن الله جَلَّجَلَالُهُ مثل القرآن الكريم، لأن الذي أنزله هو سبحانه من خلق عقلك، لذا عليك تناوله بتركيز عال وعدم القفز، أو إهمال أي معلومة فيه، وعند ذلك ستجد فيه تسلسلاً منطقياً؛ بحيث كل فكرة فيه تمهد بالضرورة للتي بعدها؛ وكم يعطيك هذا التناول مَلَكات متطورة ومعلومات تزيدك معرفة بالله الحكيم سبحانه الذي قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 2/ 269].



إن قرأت قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: 35/ 8] فإياك والظن أن مشيئة الله في الهداية فيها طغيان أو غبن، لأنه جَلَّوَعَلَا منزَّه عنهما ومحال عليه الظلم وهو النور جَلَّجَلَالُهُ، ولكن جعل لمشيئته بالهداية أسباباً، وأولها هي هدايته بالدخول في الإسلام لمن يتصف بخصال حميدة، وعلى رأسها الغيرية والإيثار والمروءة والنخوة والنجدة، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: 68/ 4].

وقد يمنُّ الله سبحانه بالهداية لمن تجاوز الظلم والكفر والفسق وغيرها ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 93/ 7]، لأن هذه الخصال يصدر عنها برّ الوالدين، والكرم والأمانة والصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلافاً لما هو شائع فإن هداية الهادي جَلَّجَلَالُهُ لا تتوجه إلى الكفار أو الظالمين أو الفاسقين فحسب بل إلى المسلمين أيضاً.

وإن منَّ الله عليك بالإسلام فأنت بحاجة هداية الله لك أكثر، ودليلك على ذلك أمره سبحانه لك أن تقول في كل صلاة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 1/ 6]. فكن على يقين أنك لن تحصِّل هداية الله إلا بالعمل، انظر في قوله تعالى ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 16/ 93] كيف ربط سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هدايته بالعمل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ثم بعدها ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، لأن الإسلام ليس أوهاماً وأحلاماً بل عمل صالح.

والعبرة في طلب هداية الله سبحانه لكل مسلم تكون بالعمل، ولا يستطيع أحد طلب الهداية بلا عمل صالح، إذ لا هداية لمن لا يعمل الصالحات وهو قادر عليها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس: 10/ 9].

لا تكن مثل أولئك الذين لا يدركون مدى أهمية الأرقام والأعداد في الخليقة والحقيقة. وخاصة أولئك الذين يعتبرون الخوض في الأرقام والأعداد فضولاً وأمراً غريباً عن الإسلام الحق.

الأرقام والأعداد جليَّة في الإسلام الحق، فهو مبنيٌّ على خمسة أركان، أي زوايا، أي مضلع خماسي الأركان، أي خير ما يمثل النسبة الذهبية. وإن كنت لا تدرك الخصائص الهندسية الاستثنائية للنسبة الذهبية، ولتجلياتها في الخليقة. فأنت إنسان جاهل.

الشهادة بنيان رقمي شامخ أول ما فيه التوحيد، كذلك الصلاة فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأعداد التي تضبطها، والتي تظهر ما أودع سبحانه فيها من أسرار مما يفوق التصور. كذلك الأمر بالنسبة لك إن تفكرت في الصوم والزكاة والحج.

القرآن الكريم وما فيه من ضوابط رقمية معبِّرة لا يمكن لك إحصاؤها، ألا يكفي أن رب العالمين وبعظمته سبحانه، قد قال وبصريح العبارة: ﴿... وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 72/ 28]؟ أليست الذرات من خلق الله؟ ذرتا الهدروجين والهليوم مختلفتان اختلافاً كبيراً في خصائصهما الفيزيائية والكيميائية، ما الفارق بينهما إلا أعدادهما الذرية التي شاءها سبحانه لها؟!

ما الفارق بين مورِّثات بشر ومورِّثات غيره من الخلق، إلا أعداد شاءها سبحانه في الحموض الأمينية الداخلة في مورِّثات كل منهما.

لو لم يكن للعدد شأنٌ عظيم، لما جعل سبحانه خلق السماوات والأرض في ستة أيام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: 10/ 3]، فهو سبحانه القادر المقتدر ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 2/ 117] قادر على أن يخلق السماوات والأرض بأسرع من لمح البصر. فَلِمَ جَعَلَ الأمر على ستة أيام؟ إلا لحكمةٍ بالغة ولمدلول عظيم لما في الأعداد من أسرار أودعها الخالق سبحانه في الخليقة كلها.

تجاهلك للأعداد جهل! لأنه جَلَّجَلَالُهُ هو الذي أوجدها وقال عنها: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 2/ 169].



إياك أن تدّعي هداية أحدٍ، لأن الهداية هي من الهادي جَلَّجَلَالُهُ ولا تكون إلا لمن شاء الله له ذلك ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: 39/ 23]؛ بل عليك بالسعي جاهداً أن تكون ممن هم أهل لشرف وسعادة إيصال هداية الهادي جَلَّجَلَالُهُ لنفسه وللآخرين، والطريق إلى ذلك يبدأ:

أولاً: بتمثلك هداية الله في كتابه وسنّة نبيه في كل عمل تعمله، حتى تصبح قدوة ومثلاً يُحتذى به، فكم من أناس كان سبب هدايتهم هو تعاملهم واحتكاكهم مع أناس لائقين، وكم ممن نفروا منها، كانوا ضحية تعاملهم مع من يدعي الهداية ويسيء إليها بكذبه ونفاقه وعدم وفائه بعهوده، وخاصة بضعفه وجهله وتخلّفه.

ثانياً: أن تسعى جاهداً لإزالة موانع الهداية، من ظلم وفسق وكذب وإسراف وكفر، ضمن مجتمعك ومن يحيط بك ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: 5/ 51] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: 5/ 108] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: 40/ 28] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 5/ 67].

ثالثاً: إدراكك التام أن الهداية هي النعمة الحق، يجعلك تتوجه بالدعاء لك ولغيرك بالهداية، وباب السؤال والدعاء مفتوح، فكم من أناس هداهم الله سبحانه بدعوة صالحة، لذا سل الله الهداية لك ولغيرك وتذكر أنه تعالى قال: (اهْدِنَا) بصيغة الجمع بفاتحة الكتاب: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 1/ 6-7].

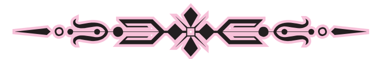
أكثر من الدعاء بالهداية لك وللآخرين وارجُ الله الهادي جَلَّجَلَالُهُ أن تشملك دعوته إلى دار السلام لك ولهم فهو القائل سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: 10/ 25] ودار السلام هي الجنة.



المادة بكل أشكالها فيها طاقة حياة، وأي ذرة مادة في هذا الكون تسبح بحمد الله ولها تسبيحها الخاص بها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 17/ 44]، هذا لا شك فيه، ولكن ما يجب أن تعيه وألَّا يغيب عن ذهنك هي تلك القصة التي حدثت بعد بناء المسجد في المدينة المنورة، حيث كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤدي خطبة الجمعة واقفاً في ظل نخلة، ثم صنع له منبر يقف عليه (فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيْهِ فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ) فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنْ الذِّكْرِ» [صحيح مسلم: 1953]. وهذه القصة ليس المراد منها إبراز معجزة للنبي ﷺ فقد أيده الله سبحانه بالقرآن الكريم الذي هو المعجزة الكبرى، بل هي لتعلم كيفية التعامل مع كل أشكال المادة، لأن المادة في هذا الكون لها وظيفتها وعملها وتعرف أنها ذاهبة إلى مكان شاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها، وحين تتدخل وتضع هذه المادة في أي مكان غير مناسب لها فأنت مسؤول عن فعلك.

والأهم من ذلك أن كل ذرة في جسدك لها تسبيحها، وتشكل مع بعضها أمة تسبح خالقها، وكم هي سعادة لمادة جسدك أن تجتمع معك بالصلاة والذكر وطاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ، وعندها تصبح كأنك إمامٌ في صلاة وجسدك شعب أو ناس يأتمون بك، وعلى العكس من ذلك كم هو ظلم لمادة جسدك حين تسير عكس تسبيحها الدائم ببعدك عن الذي خلقها وأوجدها.

جسدك هو مادة مصطفاة عبر ملايين السنين، ومادته ليست كأي مادة أخرى، وهذا الجسد سوف يكون شاهداً يتكلم عنك يوم القيامة بين يدي الله سبحانه، فاحرص أن تكون تلك الشهادة لك وليست شهادة عليك، فقد أخبرنا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24/ 24] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: 41].



ليكون الله نصيرك اجعل ولاءك إلى الولي جَلَّجَلَالُهُ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وإياك أن تجعل ولاءك لغيره، لأن من يفعلون ذلك لن يجدوا لهم نصيراً ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

لا تظن أبداً أن الناس ينصرونك، الله هو الناصر لك. انظر كيف يضع الناس تنازلات من أجل الولاء، وكم يتنازل الناس عن قيم ومبادئ من أجل نيل ولاء إنسان مثلهم، وقد يصل الأمر بهم أن يستعين أحدهم بالشيطان ويتخذه ولياً!.

الله هو الولي جَلَّجَلَالُهُ وهو الأولى والأجدر والأحق أن تتخذه ولياً، لأنه السبيل الذي لا تخيب عنده الآمال ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 42/ 9]، ولن تخيب أبداً إن علَّقت أملك وقلبك بالله واتخذته ولياً لك، لأن من ترك ولاءه لله سبحانه في الدنيا فكيف يتولاه في الآخرة.

اسألْ نفسكَ دائماً بصدق: مَن أولى باتخاذه ولياً، عبدٌ فقيرٌ ناقصٌ مفتقرٌ محتاجٌ إلى غيره، عابر زائل، أم ربٌّ غني عمّن سواه كريم قوي متين لا يحتاج إلى مؤازرة!

ما خاب من علَّق أمله وقلبه بالله متخذاً إيَّاه ولياً، وخاصة أن كلَّ ولي فانٍ ويبقى ذو الجلال والإكرام، إذ لا فائدة من أولياء الدنيا يوم الحساب، فقد شبه الله سبحانه أولياء الدنيا بقوله:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 29/ 41].

طالما أنك ذو عقل فإيَّاك أن تنتظر حتى يقضى الأمر ويأتي اليوم الذي لا تغني فيه نفس عن نفسٍ شيئاً، واسعَ في الحال أن يكون الولي لك هو الله جَلَّجَلَالُهُ.

إن كنت تحب أن يَمُنَّ الولي جَلَّجَلَالُهُ عليك لتكون ممن قال عنهم:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 10/ 62] فكن على هدي نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان يسأل الله سبحانه في صلاة الفجر وفي الوتر الأخير من الليل قائلاً: «.. وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ...» [سنن الترمذي: 426].



إيَّاك أن تخطئ فتظن أنه سبحانه عندما أراد أن يُنَزِّلَ القرآنَ وجد أن اللغة العربية هي مناسبة لكلامه، واصطفاها من بين لغات أخرى لحمل الرسالة الإلهية وإيصالها كافة للناس.

هذه القناعة ما هي إلا إسقاط تفكيرك المحدود بالزمان والمكان على عالم الغيب جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد الزمان وأنزل القرآن الذي قال فيه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 96/ 3-5]. وقال سبحانه: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 68/ 1].

إن تجردت عن المواقف المسبقة التي تعرفها عن اللغة العربية والتي تعلمتها حين كنت في سن الطفولة، ونظرت إليها بتجرد، فسوف تجد، أنها لغة إلهية وليست كأي لغة أخرى، لأنها قائمة على الأبجدية من بداياتها، وطالما أنها قائمة ومبْنِيَّة على الأبجدية، فإن أي كلمة من كلماتها مضبوطة بالفكرة المجردة التي يحملها كل حرف من حروفها وكذلك بالخصائص النطقية التي أودعها الله جَلَّجَلَالُهُ فيه، والذي يؤكد صحة وعلو مقام خصائص هذه الحروف وجودها في فواتح السور مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: 19/ 1].

إضافة إلى ذلك فإن اللغة العربية مضبوطة بقوانين رقمية هندسية تظهر بجلاء من خلال القيم العددية لحروف كلمات القرآن، وهذه القيم إن أذن لك الرحمن سبحانه وامتثلت لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾ [محمد: 47/ 19]، فإنها تَفتح لك علومَ «لا إله إلا الله» وما أودعه سبحانه من علوم في كتابه الكريم.

وإن حصلت هذا الأمر يتبين لك عندئذ من غير أي التباس، أن كل حرف من القرآن الكريم مضبوط ضبطاً لا يقدر عليه مخلوق، وأنّ النص القرآني الشريف لا تحكم لغته قواعد النحو التي تضبط كلام البشر، لأنه يسمو في آياته فوقها، ولا توجد لغة من لغات البشر تجمع الخصائص المناسبة لنقْلِ حتى جانب من علوم القرآن الكريم إلا هذه اللغة.

اللغة العربية هي الوحيدة القادرة على حمل علوم القرآن الكريم ذلك لأنها مُعَدّةٌ أصلاً لهذه المهمة من لدن العليم الخبير الذي قال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 2/ 31].



إياك أن يكون إيمانك بالله مثل أولئك الذين يَدَّعُونَ تمسكهم بالعلم الحديث والثقافة المعاصرة، وتراهم يرون الإرادة الإلهية محصورة في حياتهم ضمن عباداتهم ودعواتهم وهمومهم وحاجاتهم اليومية، أو في المحرمات المنصوص عنها في الشريعة، ولكنهم عندما ينتقلون إلى دائرة المجتمع وكل ما يحدث فيه تجد إحساسهم بهيمنة الله يضعف، ثم يتلاشى عندما ينتقل إلى دائرة ما يحدث في السياسة العالمية، وأخيراً تجد في قرارة أنفسهم قناعة بأن ما يحدث على الصعيد العالمي هو نتيجة قوى وتحالفات ومصالح، وخاصة كيف تنتقل السلطة والحكم من شخص إلى آخر، كل ذلك يأخذ مجراه بغياب الإرادة الإلهية، والسبب في ذلك ظنهم الطفولي بأن الله يجب أن يكون منحازاً لأهل الإيمان مهما فعلوا، وأنه يستحيل أن تجري الإرادة الإلهية فيما لا يتوافق مع ظاهر مصالح المؤمنين الآنية، لذلك يستحيل في عقولهم تدخل إرادته سبحانه فيما يرون من أحداث في العالم.

و الواقع أن هذا التصور الخاطئ ليس سوى جزء من تجاهل حقيقة الهيمنة الإلهية المتجلية بأن الله سبحانه هو الوالي جَلَّجَلَالُهُ وهو الذي يولي من يشاء الحكم في أي مكان.

تفكر في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: 3/ 26] ألا ترى فيه أن الله سبحانه هو الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك عمن يشاء؟!

كن على يقين أن الله هو الوالي جَلَّجَلَالُهُ الذي يولي فلان من الناس الحكم في بلد من البلاد، وما من أحد غير الوالي جَلَّجَلَالُهُ الذي يولّي من يشاء لأنه يستحيل أن يجري أمر من تلقاء نفسه أو خارج إرادة الله جَلَّوَعَلَا والأمر كله بيده، فهو سبحانه المهيمن ولا توجد أيّ قوة غير قوته.

وإن سألت كيف يسمح سبحانه لأولي الأمر بالظلم وقهر العباد ويتركهم على ظلمهم؟ فالجواب هو ما قاله سبحانه﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: 13/ 11]. انظر في قول نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وهو الصادق المصدوق: «كَما تكونوا يُولَّى عَلَيْكُم» [رواه الديلمي في مسند الفردوس، ورواه البيهقي]. وانظر كيف كان يتوجه بدعائه قائلاً: «ولا تُسَلِّط عَلينا مَنْ لَا يَرْحَمُنا» [سنن الترمذي: 3424].



إن أنت جلست بمكان لفترة طويلة وأردت أن تتحرك وتغادر ذلك المكان فأنت بحاجة إلى بذل جهد إضافي على المعتاد، لأن جسدك لم يتحرك لفترة طويلة، كذلك التفكير والعقل إن استخدمت ملكاتك العقلية بأمور جاهزة رتيبة محدودة فإنك تحتاج إلى قوى أكبر من العادية حتى تعود لك لياقاتك الذهنية، في حال احتجتَ إلى عمل ذهني جديد لم يسبق لك أن عملته .

الخطير أن الناس الذين لديهم حياة رتيبة ويعيدون العمل ذاته كل يوم تتدهور أحوالهم العقلية، وتصبح قليلة محدودة كلما تقدّم بهم العمر.

أحد أهم الأشياء التي تطور ملكاتك العقلية وترفعها هي الموسيقى الكلاسيكية؛ لأن هذه الموسيقى بحاجة منك إلى ذاكرة طويلة الأمد، ولا بد لك من متابعة الأفكار المجردة التي وضعت فيها على شكل موسيقي وألحان متقاربة، وإن وصلت إلى فهم واستيعاب تلك الموسيقى فقد حققت فكراً متطوراً، لأن التفكير البدائي هو الذي لا يميز بين أمور متقاربة ولا يفهم المجردات أبداً.

والموسيقى الكلاسيكية هي طريقة لعرض أفكار ذكية جداً، وهي قد أُلِّفت من قبل أُناس عندهم ملكات عقلية، وحسهم مرهف وعندهم القدرة على التأليف والتركيب لعدة ألحان موسيقية مختلفة (Syntheses) وإخراجها بشكل منسجم وبغاية الجمال، إضافة إلى أن الموسيقى الكلاسيكية برمتها هي حالة خاصة في تاريخ البشرية لا مثيل قبلها أو بعدها.

والمهم: إن أمكنك استغلال هذه الموسيقى بتطوير ملكاتك العقلية فليكن؛ لأن الله جَلَّجَلَالُهُ هو الذي خلق عقلك وجعل فيه جانباً كاملاً يستوعب الموسيقى والألحان، والقرآن الكريم يحتاج منك لفهمه رفع لياقاتك العقلية إلى أقصى حد لأنه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:38/ 29].

مهما حاول العلم الحديث الادِّعاء بقدرته على التحكم بنوع الجنين ذكراً أم أنثى، فكن على يقين أن الله سبحانه هو الذي يقرر ذلك، وهو وحده الوهاب جَلَّجَلَالُهُ، الذي أصلاً يهب الذرية أو يمنعها عن أحد؛ لأنه الخالق جَلَّوَعَلَا ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: 42/ 49].

إن أردت الذرية فتوجه لله الوهاب جَلَّجَلَالُهُ فهو الذي يهب الذرية أي يعطيها لمن يشاء من خلقه، وهذا العطاء عطاء بلا مقابل؛ لا استحقاقاً بل من محض كرم منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ودليلك إلى ذلك سيدنا زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فقد توجه إلى الوهاب جَلَّجَلَالُهُ حين أراد الذرية: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: 3/ 38]، وكيف استجاب له سبحانه ووهب له سيدنا يحيى ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: 21/ 90].

وحين أراد سبحانه لسيدنا إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الذرية قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: 6/ 84].

وكذلك مع سيدنا داود ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 38/ 30].

كن على يقين أنه لا يكون لأحد غير الوهاب جَلَّجَلَالُهُ أن يهب الذرية ويعطيها لمن يشاء، وهذا العطاء عطاء بلا مقابل، وإياك أن يزيغ قلبك بأوهام من يدعون قدرتهم على التحكم بأمر الخلق والذرية وما أكثرهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 3/ 8] .

سَلِ الله أن يعطيك هِبةً من محض كرمه وفضله فهو الوهاب جَلَّجَلَالُهُ الذي يهب؛ أي: يعطي، وهذا العطاء عطاء بلا مقابل لا استحقاقاً للعبد، بل من محض كرمه سبحانه؛ لأنه لا يمكن لأحدٍ غيره أن يهب الذرية والحكم والمُلك والرحمة.



إن قُدِّرَ لكَ وكنتَ من الذين يعملون في مجال الأبحاث والدراسات وتقديم التقارير التي يُبنى عليها مستقبل بلادك ووطنك فاجعل شعارك ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 24/ 40]. وسلِ اللهَ أن يرشدك بنوره إلى جادة الصواب، واحذر كل الحذر أن يكون فكرك فكراً نفعياً غاب عنه منهج البحث العلمي ولم يعد له أثراً؛ لأن الفكر الكسبي النفعي أو اللحظي ليس فيه بنية فكرية، وإنما هدفه الربح السريع وهو أشبه ما يكون بفكر بائع مفرق يشتري بأرخص الأثمان وهمّه البيع بأغلى الأثمان، وهذا ينافي تعاليم نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالى يُحِبّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ» [رواه الإمام البيهقي].

البحث العلمي الصرف هو أن تعمل تقريراً دقيقاً عن الأمر المدروس الذي وكلت به بكل تفاصيله، وتسجل كل ما تلاحظ بموضوعية وبإتقان شديد، وكذلك أن تقوم باستنباط أكبر قدر ممكن من المعلومات عن ذاك الأمر ولو لم يكن لها معنى وقت القيام بها.

قد يبدو هذا البحث العلمي الصرف لحظة القيام به غير مجدٍ، ولكنه وقت الحاجة إليه يوفر وقتاً وجهداً كبيرين على مُديرين ومسؤولين دورهم تطبيقه عملياً على أرض الواقع، وقد تكون أنت صاحب هذا البحث العلمي الصرف أكثر قوة في الملاحظة واستنباط المعلومات من الذين يتابعون تطبيقه واقعياً، ولكن ربما هم أكثر قدرة على ربط وفهم وتوظيف تلك المعلومات التي قدمتها في بحثك العلمي على واقع العمل، وهكذا تتكامل الجهود مع بعضها وكل خطوة تجعل التي بعدها أيسر وأوضح، والنتيجة هي بناء مستقبل مشرق لوطنك.

إن تأملت في مسألة الرزق تجد أن كلّ الشواهد القرآنية تجتمع على دعوة واحدة مفادها أن الله وحده هو الرزاق جَلَّجَلَالُهُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 51/ 58].

لا رزق عند غير الله، ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: 20/ 132].

وهو سبحانه وحده الذي يقرر كلّ ما يتعلق بالرزق، وأن الرزق مقسوم وكلّ إنسان يأخذ قسمته ويتوفى عند انتهاء رزقه، هذه هي الحقيقة، وإياك أن تقع في متاهات الذين يقولون إن كان رزقك مقسوماً فلِمَ تجتهد وتسعى في طلبه، وإن كنت تظن ذلك فهي أوهام تعيشها.

كن على يقين أن الرزاق جَلَّجَلَالُهُ ربط سعيك لحصولك على رزقك بدافع أساسي وحميمي عندك وهو حاجتك للرزق ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: 67/ 15]، وهذا السعي لحصولك على الرزق هو أمرٌ يريده سبحانه لأنه يتأتى عنه النضج والارتقاء والتعلّم. فإن سعيت طلباً للرزق، عليك أن تبحث وتفكر وتبتكر طرقاً مختلفة كي تحصل على رزقك، وبهذا السعي تتعرف على كيفية التعامل مع الآخرين ، وهذا يوصلك إلى النضج والتعلم، ويسمح لك بفهم حكمة الله في الزرع والبذار والحصاد والماشية والتجارة وأداء الأمانة وغيرها.

إيمانك بأن الله هو الرزاق جَلَّجَلَالُهُ يبعدك عن متاهات الذين يشككون في مسائل الرزق، ويجعل نفسك تصفو في طلبه لعلمك أن الله سبحانه بيده أمور الرزق لك ولكل خلقه على هذه الأرض ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 11/ 6].



لمعاني القرآن الكريم أسوار منيعة، ولا يمكن لك الدخول إليها إن لم يجعل الله لك نوراً تهتدي به ﴿... نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 24/ 35].

لكل سور هناك باب تدخل منه إلى رحاب القرآن وآياته، وحين تتوغل تجد سوراً آخرَ له باب ينفتح على مقامات أعلى، ثم بعده سور وباب إلى أعلى وأعلى، وهكذا إلى ما شاء الله، ولا مجال للارتقاء في فهمك للقرآن من غير فتح أبواب هذه الأسوار. من هذه الأسوار وحدة القرآن ومفتاح بابه هو النظرة الشاملة، أي الأخذ بكامل النص القرآني الشريف لتناول أية كلمة أو موضوع فيه، ومثالها ست آيات كريمة تتحدث عن سجود الملائكة لآدم منها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: 2/ 34]، وإن لم تأخذ السابعة فلن تعرف أن إبليس هو من الجن وليس مَلَكاً ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: 18/ 50]. وهناك سور المفاهيم ومفتاحه تطوير مفهومك عن الكلمات الواردة في كتاب الله، والتخلّص من التأثيرات الثقافية التي تعلمتها ضمن ثقافة محيطك الذي تعيش فيه، والانتقال من المفهوم البدائي الشخصي أو الشائع إلى دقة ونقاء ورقيّ المفهوم القرآني. ثم يليها سور المستوى ومفتاحه هو رفع مستوى فهم أي موضوع مطروح في النص الشريف من مستوى الفهم البسيط الفردي، إلى المستوى القيادي أو العالمي الكوني، وبعد سور المستوى تجد سور المقصد ومفتاحه معرفة بيت القصيد من المواضيع والقصص التي تجدها بين صفحات الكتاب الكريم، ويليه سور المسؤولية والاعتبار ومفتاح بابه أن تتمثّل كلام الله جَلَّجَلَالُهُ وأن تعتبر به، وهذا السور يفتح لك إن تخليت عن آفة الاكتفاء وتعلمت من سيد المرسلين كيف كان (خُلُقُهُ القُرآنَ)، وإن وفقت في ذلك تجد نفسك أمام سور الأسرار والذي مفتاحه هو الحرف والرقم، وهذا السور إن فتح لك تصل إلى سور عظمة القرآن والذي مفتاحه الأسماء الحسنى وعندها عسى أن يشملك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 10/ 26].

يستحيل أن يكون إيمانك حقاً مع تجاهلك أو إنكارك لأي اسم من أسمائه سبحانه، من حيث تدري ومن حيث لا تدري؛ لذا لا بد لك ليكتمل إيمانك من أن تشهد حقاً، في خواطرك ووجدانك وعملك، بأن الله هو الرحمن، وأنه الرحيم، وأنه الملك، وأنه القدوس، وكما أنه المعز فهو المذل ﴿...وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ...﴾ [آل عمران: 3/ 26]، وبقدر ما هو رحيم هو قهار... إلى آخر أسمائه وصفاته، وإن كنت ناسياً أو متجاهلاً أو مهملاً أو منكراً لاسم من أسماء الله، التي تعبر عن صفاته جَلَّجَلَالُهُ فسوف تحاسب عليها لأنه نقص أو فجوة أو عيب في إيمانك، لذا عليك السعي ليكون الله سبحانه مركز حياتك، وأن يكون جَلَّجَلَالُهُ يغنيك عما سواه، وعندك يقين مطلق بأن كل شيء منه وبيده عَزَّوَجَلَّ ولا يكون ذلك لك، إن لم تكن متمثلاً لأسمائه التي قال عنها نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْماً، مئةً إلَّا وَاحِداً، مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة» [البخاري: 2736].

كي تفهم حكمة الخالق جَلَّجَلَالُهُ فيما خلق، الذي بيده ناصيتك، عليك أن تكون متيقناً من كل أسمائه وصفاته سبحانه، وعليك استثمار فرصة الحياة الدنيا بحدها الأقصى للتعرف عليها، قبل فوات الأوان لأنك في النهاية، حتماً ويقيناً، مُلاقٍ ربك سبحانه، وستقف بين يديه في حساب دقيق، عندها يتبين لك أن أي إساءة في موقف أو عمل حدث معك في الحياة الدنيا، ما هو في الحقيقة، إلا بسبب جهلك أو غفلتك أو وهن صلتك بحقيقة معرفة صفات الله، وعندها تنكشف لك عيوب إيمانك.

مثلاً إن كنت الآن تخوض في أمور السياسية والقوى الداخلة فيها، وتبني مواقفك وعملك، وأنت ناسٍ ومتجاهلٌ هيمنة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ على كل كبيرة وصغيرة، أو كنت تخوض في أمور الاقتصاد فتخَمِّن وتتوقع وتتشاءم وتتفاءل وتخطط، وأنت ناسٍ ومتجاهلٌ لهيمنة الرزاق جَلَّجَلَالُهُ، فأنت تسيء الظن بالله وستجد يوم القيامة أنك كنت من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: 22/ 74].

إياك والاعتقاد أن منزل القرآن الكريم جَلَّجَلَالُهُ، اعتنى فيه غاية الاعتناء ليكون على أعلى مستوى لغوي، وجعل في لغته من النحو والبلاغة الشيء المعجز، كما يكون الأمر من أديب أو شاعر متمكِّن تقَصَّد أكثر الكلمات والصيغ فصاحة، واختار الألفاظ الأكثر فخامة ليضفي على كلامه أبَّهة وتميُّزاً، حاشاه، جل وعلا وترفع أن يفعل ذلك!

كلمات الذي يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 2/ 117] كلمات مُحْكَمَة هي والصيغ التي وردت فيها، وكنتيجة حتمية لذلك الإحكام، كانت فائقة الجمال وغاية في الفصاحة وهذا الجمال ما هو إلا إحدى نتائج ما أراده سبحانه في كتابه الكريم عندما قال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ...﴾ ﴿... فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: 54/ 17]؟! كلماته سبحانه تشمل ما استنبطه علماء اللغة من قواعد النحو والبلاغة، وترفَّع عنها وتتجاوزها إلى آفاق إلهية لا نهائية وليست هي المقصد والهدف أبداً.

إعجاز القرآن الكريم ليس هدفه البلاغة؛ بل البلاغة هي جانب من جوانبه والقرآن يشملها، ويتجاوزها بما يفوق التصور وذلك بما أودعه سبحانه فيه من علوم عُليا.

الخوض في علوم البلاغة والنحو لتبيان عظمة القرآن الكريم، إسقاطٌ أساسه وهمُ اعتبارِ لغة القرآن لغةً أوجدها العرب، فيصير النص القرآني الشريف بذلك الإسقاط، «تحدياً» للعرب في لغتهم، وتحدياً لشعرائِهم في بلاغته وهذا خطأ.

ينبغي عليك عند التعامل مع تلك الكلمات المقدسة أن تخرج من كل ذلك، لأنه يعرقل عليك التقدم في فهمك وتعرفك على آفاق القرآن الكريم ومعرفة وفَهْم المقصد الإلهي منه، ويحول بينك وبين تمثُّله والعمل به، فالقرآن الكريم نص إلهي قال عنه منزله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: 17/ 88]، وأنت تقرأ كلمات الخالق الذي خلقك سبحانه، إياك أن تسعى جهلاً منك، فتجعل منها مادة للتنافس مع أدباء وشعراء يجيدون اللغة العربية وكأنك معهم في سوق عكاظ!



إن كنت من أهل الثراء المترفين، ومن علية القوم المنعَّمين الذين بأيديهم الثروة والسلطة فاحذر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 17/ 16]. ومعنى هذه الآية أنه سبحانه أمر (مُتْرَفِيهَا) بالطاعة والعودة إلى جادة الصواب ولكن عندما (فَفَسَقُواْ فِيهَا) كانت النتيجة هلاك تلك القرية (فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا).

لا خلاف أن المترفين المنعَّمين هم عليّة القوم الذين بأيديهم الثروة والسلطة. وهُم، بتلك النعم وبذاك الجاه والسلطان أصبحوا بالنسبة لأهل الدنيا رمزاً للنجاح، وبذلك المنطق السطحي أصبح جاذب الاقتداء بالمترفين طمعاً بما حظوا به هو جاذبٌ قويٌّ لكل مَن دونهم ممن ليس لهم مرجع، وبمنطق أخرق، دليلٌ أن لهم حظاً عظيماً، وقد جعل سبحانه قصة قارون مثلاً أعلى لذلك وقال عنه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: 28/ 79]. ما أخطر حالك إن كنت من المترفين ومن عليَة القوم المنعَّمين الذين بأيديهم الثروة والسلطة، لأن مصير الألوف المؤلَّفة مرتبط بك وبما يصدر عنك، لذا ذكرك سبحانه بحالة قصوى في قصة أخرى عن فرعون وما أوصل به قومه عندما أطاعوه لِمَا كان عليه من ترف وغنى قائلاً: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود: 11/ 97-98].

أمرُ اللهِ المترفين ليعودوا إلى جادة الصواب في أي بلد كان هو بمثابة الفرصة الأخيرة الممنوحة إليهم، لأنهم عليَة القوم وأصحاب السلطة، وهم بمثابة المثل لمن هم دونهم ، فإن لم يمتثلوا لأمر الله، فيستشري الفساد ويعمّ ويكونون سبباً لدمار البلد الذي يعيشون فيه؛ لأن أهلها من ضعفاء الإيمان سوف يتبعونهم فيما يفعلون، ولكن يوم القيامة سوف: ﴿يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: 40/ 47].

هناك كثير من الآيات القرآنية كان سبب نزولها هو سؤال صادق وجه إلى نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكان الجواب القرآني يأتي ولكن عند طرحِ السؤال المناسب والصحيح.

إن كنت ممن يطرح الأسئلة بصدق، وحباً بالتقرب إلى الله جَلَّجَلَالُهُ، فهذا بحد ذاته دليل على اهتمامك وتحوُّل في نفسك من سلبيةِ الانغلاق واللامبالاة أو الاكتفاء، إلى الانفتاح وهو أحد الطرق التي تتعلم بها من العليم جَلَّجَلَالُهُ الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 96/ 5].

سؤالك الصحيح الصادق هو دليل على استعدادك للتلقي والاستفادة من جواب أي سؤال تطرحه.

انظر كيف أكرمنا الله بأعظم باب قرب إليه حين أجاب جَلَّجَلَالُهُ على سؤال طرح على نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 2/ 186].

وكان تحديد المواقيت هو جواب من الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 2/ 189]، وجعل سبحانه آيات بينات لكلِّ مَن أراد أن يتعلم من قصة سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بصيغة جواب لكل من يسأل ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: 12/ 7].

وكان من فضل الله وكرمه أن علمك أهمية السؤال في تعلمك من العليم جَلَّجَلَالُهُ حين أرسل سيدنا جبريل على هيئة رجل جلس إلى نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخذ يسأله والنبي يجيب، وبعد كل جواب كان سيدنا جبريل يقول لنبينا: (صَدَقْتَ)، وهذا ما جعل سيدنا عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وهو من حضر ذلك اللقاء ورواه لنا ـ يقول: (فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ) وحين انتهى ذاك اللقاء شرح النبي ﷺ لسيدنا عمر ما جرى أمامه، ولكن أيضاً بصيغة سؤال طرحه على سيدنا عمر قائلاً: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قال: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» [صحيح مسلم: 9].



لا بد من تدرج بين الخلق والعباد، ولا بد من أن تعمل أنت لغيرك وغيرك يعمل لك، وإلا لما استطعت أن تؤمن خبزك اليومي.

كل إنسان في مكانه يعمل والناس مع بعضهم يشكلون شبكة متكاملة تغطي مع بعضها احتياجات كل منهم، فلا بد لك من طعام ولباس وطريق نظيف تسير فيه، وإلى ما لا نهاية له من أسباب تُشَكِّلُ مع بعضها سبباً لاستمرار بقائك على هذه الأرض، وهذا الشيء هو من الأسس التي وضعها خالق السماوات والأرض سبحانه وجعلها قاعدة تراها جلية واضحة في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف: 43/ 32].

كل دعوة تخالف أسساً إلهية هي دعوة فاشلة مهما حاول أصحابها جاهدين لإنجاحها، ومن هذه الدعوات هي الدعوة إلى توحيد المستويات في العمل، بحيث يمكن استخدام أي شخص في أي مكان أو استبدال عمله بعمل آخر، وجعل كل العاملين في أي مجتمع كان، لهم نفس العمل دون تمييز بينهم، وتوحيد المستويات لكل العاملين حتى في الطعام واللباس، وبالتالي القضاء على الشخصيات المتميزة والوصول بهم جميعاً إلى ذل التبعية لشخص واحد دون غيره، وبقدر ما يقولون عن الإبداع والتميز ويطلبونه من العاملين فإنهم في الخفاء يطبقون عكس ذلك، ويسعون إلى توحيد مستوى الغبي مع الذكي وعامل تنظيف الطرقات مع صاحب الفكر المبدع، وقد وصل بهم الأمر إلى التدخل في أمور الخلق وإبقائهم في بيوتهم أو خروجهم منها، والفكرة باختصار هي توحيد كل الناس وإلزامهم بنظام عالمي موحد يقوده مَلِكُ العالم الذي أوشك بالظهور.



هذا قليل مما تعلمنا

من عِلْم سليمان سامي الجوخدار

وبقي الَكثير من علمه وفضله.

نرجو الله جلّ جلاله أن نوفق ونضعه بين يدي القراء

والحمد لله رب العالمين



من هو سليمان سامي الجوخدار

لا يمكن أن نضع البحر في حفرة على شاطئ.. كذلك سيرة سليمان سامي الجوخدار لم يكن لأحدٍ من معاصريه وفي مثل عمره ذاك العلم وتلك المعرفة الشاسعة من علوم للحقيقة وعلوم للشريعة وعلوم كونية.

في بيت علم وفضل نشأ، ومن أبٍ يحمل في دمائه نسب النبي ﷺ، وأمٍّ تحمل في دمائها أنبل عائلات أوروبا. ولد سليمان سامي في دمشق الشام في الأسحار من يوم الخميس العشرين من كانون الأول عام ألف وتسع مئة وستة وخمسين.

وعند مولده كان جده الشيخ سليمان الجوخدار بانتظاره، وبين يديه لبث الأيام والساعات الطوال وهو يملي عليه من الدعاء والبركة ما لازمه طوال حياته.

وقبل رحيل جده إلى جوار ربه أوصى بعلمه وكتبه إلى حفيده الأصغر سليمان سامي؛ علماً أن له أخوين يكبرانه بسبع سنين، وأختاً وحيدة تكبره بعشر سنين.

في هذه العائلة الدمشقية الأصيلة التي جمعت بين العلم والفضل ولد وترعرع سليمان سامي، هذه العائلة التي بدأت مع الشيخ محمد الجوخدار والد الشيخ سليمان الجوخدار؛ ذاك العالم الفاضل الذي ترك بيتاً له إلى جانب الجامع الأموي، من أفخر وأكبر بيوتات دمشق، ليمضي أربعين عاماً من عمره معتكفاً في الجامع الأموي، وهو الذي أخذ وحَدَّث عن الإمام البخاري بالسند، وكان قاضياً ومفتياً في بلاد الشام.

ثم خلفه من بعده ابنه الوحيد الشيخ سليمان الجوخدار؛ الذي نال أعلى شهادة في القانون أيام زمانه، وهو من أسس معهد الحقوق في دمشق، وكان قاضياً للحرمين الشريفين، ونال أعلى المناصب أيام الحكم العثماني.

ثم من بعده ابنه الوحيد إحسان الله الجوخدار، والد سليمان سامي؛ الذي نال مرتبة الدكتوراه الدولية في القانون من جامعة السوربون في فرنسا، وكان من الذين وضعوا قوانين لدول عربية عدة بعد استقلالها.

الطفولة والنشأة

مع أنّ سليمان سامي كان أصغر إخوته، إلّا أنّ والده ـ وفي سنّ مبكّرة جدّاً ـ لمس منه ذكاءً نادراً وصل إلى حد العبقرية؛ وهذا ما جعله يمارس وبشكل مفرط تمارين التركيز الذهني والذاكرة والعمليات الحسابية معه، وذلك بهدف تطوير حَدْسِه وتأسيسه بمجالات المنطق وعلم الفلك والرياضيات. وقد عمل أيضاً على تدريبه ليحقق مستوى متقدماً في الجدل والتفكير النقدي.

ومن ناحية أخرى؛ فقد أدرك والده أن ابنه سليمان سامي يملك حسّاً مفرطاً للفن والجمال، وله اهتمامه الشديد بعلم الآثار والفن وتاريخ الفن.

وفي السابعة من عمره لُقّبَ سليمان سامي بالمتحف المتنقل، و لم يكن يسعده شيء أكثر من قضاء ساعات بالتجول في المعارض والمتاحف بحثاً عن اللوحات والتحف المفضّلة لديه.

كذلك أثناء مرافقته لوالدَيْه في أسفارهما العديدة كان سليمان سامي يراقب ويُخَزّن كل شيء في ذاكرته من روائع اللوحات الفنيّة والمعالم المعماريّة والحرف اليدويّة وغيرها، ومنذ ذلك الحين، لم يعد يفوته تحليل وتقييم ونقد أيّ عمل فني. كما أصبحت الموسيقى الكلاسيكيّة إحدى اهتماماته الأساسيّة، وبقيت جزءاً لا يتجزّأ من تفكيره.

كذلك كان شغفه الشديد بتحصيل المعرفة بكل أشكالها من علوم الرياضيات والفلك وعلوم اللسانيات وغيرها.

ومنذ طفولته المبكرة أوتي معرفة وعلوماً هُيئ لتلقّيها بطريقة مرهفة، وفي الرابعة عشرة من عمره كانت عنده المفاتيح الأساسية لبعض علوم الخواص، وبدأتْ خطواته الأولى بتحصيل معرفة تلقاها لسلوكه في الطريق إلى الله سبحانه بطرق ومن مصادر مباشرة وغاية في الخصوصية.

وكانت تلك العلوم هي اهتمامه الأول وكانت شغله الشاغل، والأهم في حياته حيث عكف على دراسة وتسجيل علوم كادت أن تندثر، هذه العلوم هي في مجال المعرفة العليا للقرآن الكريم والتصوف الحقيقي، وعلوم خاصة مثل: علم الرقم والحرف وغيرها.

تحصيله العلمي

حصل سليمان سامي على شهاداته الجامعية في تاريخ الفن وعلم الآثار من جامعة السوربون في باريس، وأصبح خبيراً في مجالات متنوعة مثل الهندسة والفن الإسلامي، والعمارة الأيوبية وعصر النهضة.

ومنذ عام 1972 حتى عام 1985 أبدع سليمان سامي أكثر من 600 عمل فني من أعمال واقعية، وفن الحبر والألوان المائية والباستيل واللوحات الرمزية والتجريدية، وأعمالاً أحادية اللون أنيقة إلى أقصى حد.

وبذات الوقت تحصل لدى سليمان سامي معلومات نادرة لبعض علوم الخواص سجلها على آلاف من الصفحات بطريقة بصرية وغاية في الخصوصية.

ومع بداية عام 1980 بدأ يُطلع على هذه العلوم الخاصة عدداً من أساتذةِ الجامعات في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة ومصر ولبنان وسورية، وكذلك عدداً من الشخصيات الدينية و الفكرية.

علمه ومعرفته

كان لإلمام سليمان سامي بعلوم الشريعة أولاً، ثم الفن والفلك والرياضيات والهندسة وغيرها من علوم ومعارف الأثر الأكبر لإبداعه رؤية متميزة في كل مجالات الحياة، وخاصة في مجال الفكر الصوفي والروحي الذي كان عمله الأول.

حيث ميّز في عمله ودراسته فوضع معرفته ضمن مستويات ثلاث؛ أولها: المعرفة المطروحة لكل من يبحث عن الحقيقة وهي للجميع، ثم المعرفة الخاصة لمن قطع أشواطاً في تحصيل المستوى الأول وهي لمجموعة محددة، وأخيراً: المعرفة في المستوى الثالث لمن تمكن من المستوى الأول والثاني؛ وهي خاصة لمن أراد الخلافة في الأرض.

هذه المعرفة التي طرحها سليمان سامي هي عبارة عن تدرج في طلب العلم والمعرفة الحقيقة وهي ذات مصدر إلهي؛ لذا سمَّاها المعرفة المقدَّسة وهي كذلك لأنها جاءت من خالق الوجود سبحانه وتعالى، من خلال القرآن الكريم المنزَّه عن أيّ نقص أو عيب أو خلل.

المعرفة الحقيقية التي طرحها سليمان سامي لا غنى للعوام عنها، ولا غنى عنها أبداً للخواص؛ إذ بها تتحقق خلافة الإنسان على الأرض كما أرادها خالق الأرض والإنسان سبحانه وتعالى.

وهي معرفة أساسها القرآن الكريم الذي فيه الأسس والقوانين والضوابط المطلقة لسائر العلوم، وهو ما يبحث عنه أي طالب للعلم.

المعرفة التي طرحها سليمان سامي أساسها مصدر خارجيّ غير بشري؛ هذا المصدر يُعَلِّمُ الإنسان كيف يرى الأمور من منظار غير منظاره، والحال كذلك، فما أعظمَ قيمة هذا المصدر الذي جاءنا به القرآن الكريم.

وتبدأ المعرفة عند سليمان سامي بإعادة النظر باتجاهين تتجلى فيهما الحقيقة: إلى الخارج؛ أي: إلى الكون الذي يحيطُ بنا، وإلى الداخل؛ أي: إلى أنفسنا، وإعادة النظر هذه تكمنُ في حقيقة أنَّ الإنسان لا يرى إلا ما يَعْلم. إذن، لا بدَّ من القرآن الكريم فهو مصدر خارج عن حدود الكون وبعيد كل البعد عن محدودية أنفسنا وأهوائنا.

حياته الخاصة - وفاته

لم يكن أحدٌ يعرف أن سليمان سامي له من العلم والمعرفة ما له وما أعطاه الله سبحانه له؛ لِما كان عليه من تواضع وإنكار للذات.

فهو في بيته كما هو حال كل الناس؛ قائم عليه بكل ما يحتاج، وعلى أعلى مستوى، وقد تعهّد أمه وقام على خدمتها أتم قيام حتى آخر حياتها.

وهو في عمله مع طلابه وأصدقائه وكل من حوله قلب يتسع للجميع، والكل يضعون ثقتهم وخصوصياتهم عنده؛ لِما له من غَيْريَّة متميزة حيث يجد صاحب أي حاجة عنده نصحاً وبُعْد نظر، قَلَّ مثله مع تواضع وتجرد تام عن أية حاجة مادية.

ولم يمنعه مرض عُضال أَلَمَّ به منذ طفولته من القيام بعمله؛ ولم يتوانَ عن أي عملٍ يستطيع القيام به.

والأهم من كل ذلك عمله الدؤوب بالدعوة إلى الله، والعمل من أجله سبحانه وتعالى؛ لذا كان بيته قِبْلَةً لكلِّ باحث عن الحقيقة من كل أصقاع الأرض.

وكان لعلمه بالثقافة الغربية خصوصاً والعالمية عموماً، وتمكنه من اللغة الفرنسية والإنكليزية الأثر الأكبر في هداية الكثيرين من الباحثين الصادقين عن الله سبحانه من غير الناطقين بالعربية؛ وهم الذين قصدوا بابه فوجدوا ضالتهم عنده.

وهكذا أمضى عمره علماً وعملاً ودعوة إلى الله سبحانه حتى آخر لحظة من حياته، ورحل عن هذه الدنيا ليكون ضيفاً على جدِّه الأكبر الشيخ محمد الجوخدار وإلى جانبه في مقبرة باب الصغير مع الراحة والطمأنينة وسكينة حياة برزخية في دمشق الشام يوم السبت الثامن من شهر آب لعام ألفين وخمسة عشر.

قصة لقائي الأول
مع سليمان سامي الجوخدار

لقائي الأول مع سليمان سامي الجوخدار كان سببه شغفي الدائم بالفلسفة واللغة العربية ورغبتي في إعادة التواصل مع جذوري العربية والإسلامية. حيث كنت أحرص على حضور المناسبات العائلية بدمشق لوجود فرع من العائلة هناك، وبمناسبة حفل زفاف عائلي أقيم في دمشق، اجتمعت بعد غياب طويل مع ابنة عم لي، وعندما علمت بشغفي للفلسفة واللغة العربية قالت لي: لا بد أن أدلّك على من تجد عنده ضالتك، وهكذا كان لقائي الأول مع سليمان سامي الجوخدار، هذا اللقاء كان بداية صداقة طويلة وصادقة استمرت لأكثر من 30 عاماً. ومن خلال ما وجدته عند سليمان من علم جمع بين الغرب والشرق، وثقافة هائلة ورؤية فلسفية للحياة، وكذلك من خلال ما وجدته عنده من تراث تقليدي كان يحمله من عائلته، أصبح منذ اللقاء الأول أستاذي وسيدي سليمان، لأنه فتح عيوني على حياة جديدة متكاملة من خلال طريقة تفكير متطورة وحياة جديدة بدون أي سبب للتقليد الذي لا معنى له.

في وقت لاحق، سافرنا معاً إلى العديد من البلدان الأوروبية، وكانت سعادة لا توصف حين نزل ضيفا عزيزاً عندي في سويسرا.

ثم بقي اللقاء بيننا متواصلاً حتى السنوات الأخيرة من حياته حيث كنت أزوره بانتظام في منزله بدمشق.

لقد كان أستاذي وسيدي سليمان شخصاً متواضعاً منكراً جداً لذاته، وكان حسه فائقاً تجاه كل من حوله، لذا كان اهتمامه بالآخرين هو ذاته مهما اختلف موقعهم الاجتماعي.

وقد سمح تعليمه الذي تلقاه من عائلته، بالإضافة إلى الإلهام الصادق والمبادرات الأصيلة التي قام بها، بتطوير معرفة عميقة في مواضيع متنوعة مثل العلوم الإسلامية المقدسة، وعلم

النفس البشري، والسياسة، والرياضيات، والفن، والهندسة المعمارية، وعلم الآثار، وغيرها من علوم لا تحصى.

«سليمان سامي الجوخدار هكذا علمنا» هو كتاب قام بجمعه بعد وفاته رحمه الله أحد أحبابه الذي سمع وكتب عنه هذه الأسس التي لا بدَّ منها في مسيرة الحياة، وأنا بدوري أحببت أن أضعها بين يدي القراء ليعمَّ نفعها، لأنها مواضيع أساسية لمن أراد أن ينعم بحياة ملؤها السعادة والتوازن بين عالم الحياة الدنيا وعالم الآخرة الذي إليه نهاية كل شيء.

هذه التعاليم التي تجدها في هذا الكتاب هي أساسية لرؤية أرادها لنا سيدي سليمان، بعيدة كل البعد عن الآراء الجاهزة والأحكام المسبقة، تجعل كلاً منا لديه معايير التطوير والتمييز الخاصة به، وذلك من خلال ثقافة فكرية رفيعة المستوى، وأفكار مبتكرة لا تزال أسسها متأصلة في الإسلام الحقيقي.

كريم زين



كريم زيـــن

* من أبٍ لبناني وأُمٍّ ألمانية، ولد كريم زين في لبنان ، مدينة بيروت عام 1965م.
* في عام 1975، اضطر إلى الهجرة مع عائلته، أولاً إلى دمشق لوجود فرع من العائلة هناك، ثم هاجر مع عائلته إلى سويسرا حيث استقرت هناك.
* أنهى في سويسرا دراسته الجامعية ونال درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة جنيف، ثم من مدرسة البوليتكنيك الفيدرالية في لوزان نال درجة الماجستير في الإدارة البيئية.
* عمل كخبير للإدارة البيئية في مشاريع التعاون في الشرق الأوسط والمغرب العربي وإفريقيا لمدة 25 عاماً.
* يعمل حالياً على ترجمة أعمال سليمان سامي الجوخدار من العربية إلى الفرنسية والإنكليزية، وبذات الوقت يقيم في المغرب العربي، حيث يدير مركز يوغا وبيتاً للضيافة.

دليل الكتاب

